GDWH5063

دعوة التوحيد

المحتويات

الدرس الأول: مقدمات في العقيدة

الدرس الثاني: مفاهيم يجب الوقوف عندها

الدرس الثالث: تابع مفاهيم يجب الوقوف عندها

الدرس الرابع: كلمة التوحيد: فضلها، وشروطها، ومعناها – وما يضاد التوحيد (1)

الدرس الخامس: تابع ما يضاد التوحيد (2)

الدرس السادس: تابع ما يضاد التوحيد (3)

الدرس السابع: كلمة التوحيد تشتمل على الكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله

الدرس الثامن: مقتضيات الإيمان بالله تعالى

الدرس التاسع: أدلة وجود الله -تبارك وتعالى-

الدرس العاشر: تابع أدلة وجود الله تعالى

الدرس الحادي عشر: الإيمان بربوبية الله تعالى وألوهيته

الدرس الثاني عشر: تعريف العبادة وحقيقتها

الدرس الثالث عشر: أهمية العبادة وثمراتها.

الدرس الرابع عشر: أركان العبادة وشروط صحتها

الدرس الأول: مقدمات في العقيدة

عناصر الدرس

العنصر الأول: معنى العقيدة في اللغة والاصطلاح

العنصر الثاني: محتوى العقيدة وحاجة الإنسان إليها

العنصر الثالث: معنى الإسلام

العنصر الأول: معنى العقيدة في اللغة والاصطلاح.

كلمة العقيدة تتردَّد على ألسنة الناس، وفي محاوراتهم ومحادثاتهم كثيرًا، فهي كلمة مسموعة، ولذلك كثيرًا ما نســـمع أو نرى الناس يقولون: أنا أعتقد كذا، وفلان عقيدته حســـنة، والعقيدة الإسلامية هي السبب الأقوى الذي أدَّى إلى الانتصارات الإسلامية العظيمة في كل زمان ومكان.

ومن المعلوم أنّ الحرب بيننا وبين غيرنا من أعداء ملَّتنا حرب عقائدية في حقيقتها، ولذلك فكلمة العقيدة كلمة في الحقيقة عظيمة، ولها شأن كبير، ومن هنا كان لا بد من بيان معناها في اللغة والاصطلاح.

فأقول في ذلك وبالله التوفيق: مادة "عَقَدَ" في اللغة: مَدَارُها على اللزوم والتأكد والاستيثاق؛ ففي القرآن الكريم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ﴾ [المائدة: 89]. وتعقيد الأيمان إنما يكون بقصد القلب وعزمه، بخلاف لغو اليمين التي تجري على اللسان بدون قصد. أما العقود الواردة في الآية السابقة، ﴿ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ﴾ معنى العقود أوثق العهود، ومنه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة: 1].

والعقيدة في الإسلام تقابل الشريعة؛ لأن الإسلام عقيدةٌ وشريعة، ونعني بالشريعة التكاليف العملية التي جاء بها الإسلام في العبادات والمعاملات، أما العقيدة؛ فهي ليست أمورًا عملية، وإنّما هي أمور علمية، يجبُ على المسلم أن يعتقدها في قلبه؛ لأن الله –تبارك وتعالى– أخبره بها بطريق كتابه، أو بطريق وحيه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

وأصول العقائد التي أمرنا الله باعتقادها هي التي حددها الرسول صلى الله عليه وسلم كما في حديث جبريل المشهور، ومن ذلك ما جاء فيه عن تعريف الإيمان بقوله صلى الله عليه وسلم: ((الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى)). إذًا العقيدة في الإسلام هي التي تدور حول قضايا معينة، وهذه القضايا أخبرنا الله -تبارك وتعالى- بها، أو أخبرنا بها رسوله صلى الله عليه وسلم.

وحتى تصبح هذه العقيدة لا بد أن نُصدِّق بها تصديقًا جازمًا لا ريب فيه، فإن كان: في العقيدة ريب أو شك كانت ظنًّا لا عقيدة، والدليل على ذلك ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:15]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: 9].

وقد ذَمّ الله -تبارك وتعالى- المُشركين المُرتابين فقال: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: 45]. ومن المُلاحظ أن المسائل التي يجب اعتقادها في علم الاعتقاد هي أمور غيبية، وليست مشاهدة أو منظورة، وهي التي عناها رب العالمين سبحانه وتعالى بقوله عندما مدح أهل الإيمان في افتتاح سورة البقرة؛ فقال جل في علاه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3].

ومن هنا أقول: إنّ مسائل العقيدة كلها غيب، فالله -تبارك وتعالى- غيبٌ والملائكة واليوم الآخر، أمّا الكتب والرسل؛ فقد يتبادر أنها تُشاهد وتُنظر، ولكن المُراد هو الإيمان بنسبتها إلى الله -تبارك وتعالى- أي: كون الرسل مبعوثين من عند الله سبحانه وتعالى وأن الكتب منزلة من عنده سبحانه، وهذا أمر غيبي.

وعليه أقول: إنّ مَسَائِل الإيمَانِ أو أركان الإيمان كلها من الغيب، وبعد هذا استطيعُ أن أقول في تعريف العقيدة ا صطلاحًا: بأنها هي مجموعة من ق ضايا الحق، البديهية الم سلمة بالعقل وال سمع والفطرة، يَعْقِدُ عليها الإن سان قلبه، ويُثني عليها صدره؛ جازمًا ب صحتها، قاطعًا بوجوبها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبدًا.

العنصر الثاني: محتوى العقيدة وحاجة الإنسان إليها

أ. محتويات العقيدة:

محتويات العقيدة كثيرة، وذلك كاعتقاد الإن سان بوجود خالقه، وعلمه به، وقُدرته عليه، أو لقائه بعد موته، ونهاية حياته، ومجازاته إيَّاه على كســـبه وفعله وعلمه، كاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه عن طريق كُتبه ور سله؛ طاعة تزكو بها نف سه، وتتهذب بها مشاعره، وتكمل بها أخلاقه، وتُنظَّم بها علاقته بين الخلق والحياة.

ومن محتويات العقيدة أيضًا: اعتقاد العبد أن ربه سبحانه وتعالى غني عن جميع خلقه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [فاطر: 15]، وأن يعتقد العبدُ أيضًا افتقار كل شيء إلى رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه- فما من مخلوق إلا وهو بحاجة ومفتقر إلى خالقه ومولاه، فبالله تعالى حياته، وعليه وحده توكله واعتماده؛ إذ هو محط رجائه إذا طمع، ومأمن خوفه إذا خاف، بحبه يُحب، وببغضه يُبغض، هذا هو مولاه الذي لا مولى للعبد غيره سبحانه، وهذا هو المعبود الذي لا معبود بحق سواه.

ولا يحل لرجل أو لمخلوق بحال من الأحوال، أو غير ذلك من المخلوقات المكلفة أن ترى أن غير الله -تبارك وتعالى- ربها، أو أن يعتقد الإنسان أن له إلهًا سوى الخالق المتفرِّد بالوحدانية والكمال.

إن العقيدة الإسلامية تشتمل في محتوياتها بإيجاز، على الإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره و شره. وهذه المسائل المجملة تحتها فروع وتفصيلات كثيرة للغاية.

إن العقيدة الإسلامية تتلخص في كلمة التوحيد، وهي: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم" قولًا وفقهًا واعتقادًا وعملًا بأركانها و شروطها، وواجباتها ومعناها، وإذا اعتقد العبدُ ذلك آمن بجميع ما جاءه عن ربه من أركان الإسلام؛ كما صَدّق أيضًا بِجَميعِ التّشريعاتِ الرّبانية التي جائت إليه من ربِّ البرية سبحانه وتعالى جلَّ في علاه.

ب. حاجة الإنسان إلى العقيدة:

الإنسانُ بِحَاجة مَاسّة إلى العَقيدة الصّحيحة، ودعوى استغناء الإنسان عن العقيدة دعوى باطلة؛ يُكَذّبها الواقع، ويُبطلها تاريخ البشرية الطويل، إذ واقع البشرية شاهدٌ على أن الإنسان حيثما كان، وفي أي ظرف وُجد، وعلى اختلاف أحواله وتباين ظروفه لا يخلو من عقيدة أبدًا.

و سواء كانت تلك العقيدة حقًّا أو باطلًا، صحيحة أو فاسدة، حَتّى أولئك الذين يدّعون اليوم أن العلم قد أغنى عن العقيدة وعن التديُّن، وأن الإنسان في عصر الذرة وغزو الفضاء، لم يصبح في حاجة إلى الإيمان بالله تعالى، وهؤلاء بالغوا في الكفر والإنكار؛ حتى قالوا: إن الإله لم يخلق الإنسان، وإنما الإنسان هو الذي خلق الإله، وهي عبارة كفرية ولكنها موجودة في قاموس الشيوعية الماركسية، التي هي عدوة لجميع الأديان، وهؤلاء يريدون بذلك أن الإنسان في الظروف الصعبة التي كان يعيشها، والمخاوفُ تنتابه من كل ما حوله من مظاهر الكون، إذ الإنسان يخاف المرض، ويخاف الفقر، ويخاف الرعد والبرق، والفيضان والسيول، والعواصف والزلازل، وحتى الحيوانات تخاف.

ومن هنا؛ ا ضطُّر الإن سان -كما يزعمون- إلى أن يُؤمِن بِقُوّة غَيْبِيّة ذاتِ قُدرة لا تعجز، و ُسلطان لا يُغلب ولا يُقهر؛ سماها إلهًا يفزع إليه عند ال شدائد، ويتقرب إليه بالعبادات؛ ليدفع عنه الشـــرور، ويَقيه من المهالك، ومن هنا قالوا: إنّ الإنســـانَ هو الذي خلق الإله، وليس الإله هو الذي خلق الإن سان. وهذا قول م ضحك وجهل فا ضح، وكفر صريح وكذب ممقوت، ومغالطة مكشوفة، وسخف عقول لا حدَّ له.

وتحرير هذه القضـــية الفاســـدة: هو أنهم إن كانوا يعنون بالإله الذي خلقه هو إله الوثنيين الذين اتخذوا أصـــنامًا آلهة؛ نحتوها بأيديهم، وعَبدوها بأهوائهم؛ فنعم، هذه الآلهة خلقها الإنسان، وليست هي التي خلقت الإنسانَ. وأما إن كانوا يعنون بالإله الذي خلق الإنسان، هو الله الذي خلق ال سماوات والأرض وما فيها وما بثَّ بينهما، وخلق الإن سان وكرمه، وأنزل عليه كتبه وبعث إليه ر سله، وعرفه بنفسه وبشرائعه، التي يتم كماله وتتحقق سعادته بها؛ فإن كانوا يعنون ذلك، فقولهم مغالطة وجهل و سخف وكذب؛ إذ الإن سان لم يخلق حتى نفسه فضلًا عن أن يخلق غيره، فكيف بالله خالق كل شيء وربه ومليكه، سبحان الله -تبارك وتعالى- عما يقولون وعما يصفه به الظالمون.

إنّ ادِّعاء بعض الب شرية ا ستغناء الإن سان اليوم عن الإيمان بالله تعالى؛ لأنه عرف الطبيعة، واكت شف أ سرار الكون؛ فما أ صبح يخاف المرض ولا الفقر، ولا الفيـ ضانات ول: الزلازل والجوائح، ولا العاهات ادِّعاء باطل لا وزن له ولا قيمة أبدًا؛ إذ الإن سان ما زال يخافُ من كل هذه، وجميعُ وَســـائله التي يملكها لِيَدفَعَ بها عن نفســـه، لم تؤمِّنه بعدُ، ولن تؤمنه أبدًا، وكيف والآلام التي يعانيها الإنســـان: اليوم جســـمانيًّا تزداد يومًا بعد يوم، وفي كل أنحاء الوجود البشري.

وأ صبحنا في الآونة الأخيرة نـ سمع عن أمراض مخيفة؛ كأمراض الـ سرطان والبرص والـ صرع وغير ذلك، وما زالت هذه الأمراض تفتك بالآلاف من الناس، وفي كل ســـنة؛ بل في كل

يوم نسمع شيئًا من ذلك. كذلك المجاعات تُهدِّد مناطق شاسعة من العالم، والفيضانات تجري بين الحين والآخر، وأحيانًا تحصد قرًى بأكملها، وتُشرّد الآلاف من البشر، ولم يستطع الإنسان الكافر بالله تعالى والذي يدَّعي أنه خلق الإله أن ينجو من هذه الويلات؛ فضلًا عن أن يضع لها حدًّا، أو أن يُوقف وجودها، بل ازدادت مصائبُ الإنسانِ ومِحنُه، وعَظُم الخطبُ واشتد عليه لما كفر بربه وكفر بدينه المنزَّل عليه.

فأصبح هذا الإنسان في تمزُّق شخصي، وهبوط نفسي، وسقوط خلقي، كاد يفقد طعم حياته ولذة وجوده، لقد غاض ماء الحياة من وجه كثير من الكفرة، الذين فعلوا ذلك، وأصبح الواحد منهم صفيقًا عربيدًا فاحشًا متفحشًا، وغار معين الكرامة الآدمية فيه، فصار لا غيرة له، ولا شهامة، ولا كرامة، ولا مروءة؛ ألف الكذب والغدر والخيانة، وتعوّد الجَريمة، ودخل في النفاق والتضليل والخداع.

ومن هُنا؛ ساءت المجتمعات البشرية، وهبطت الحياة عند هؤلاء الكفرة إلى أبعد حدود الهبوط والسقوط، حتى صاح العقلاء منهم منددين بهذا الكفر الذي هم عليه، والإلحاد الذي سلكوه، مُطالبين بالرجعة إلى الدين والإيمان، بل حتى كبار الملاحدة قد نكسوا على رءوسهم، وقالوا في وضوح: لا غِنى عن الدين، وطالبوا عُلماء النّفس والاجتماع أن يضعوا لهم دينًا، ولكن بدون الإيمان بالله، وذلك لأن الله يأمرُ بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وهم لا يُريدون عدلًا ولا معروفًا ولا إحسانًا، كما لا يريدون أن يتخلوا عن الظلم، ولا عن الفحش والمنكر.

ولذا فهم يريدون دينًا صناعيًّا؛ يُهذب نفس الإنسان، ويكمل أخلاقه، وبدون ذكر الله فيه ولا ذكر أمره تعالى أو نهيه. وهيهات هيهات أن ينفع دين صناعي في تقويم الأخلاق وإصلاح النفوس، وتهذيب المشاعر وتطهير الأرواح، إنّ هؤلاء القوم من الغرور بمكان، وهم

في الحقيقة مغرورون مخدوعون جُهَّال ضـــالون مضـــللون، لعنهم الله فأصـــمهم وأعمى أبصارهم.

والقصـــد من ذكر الذي ذكرته الآن هو: أنْ أُقرر حقيقة علمية ثابتة بكل القوانين العقلية والشـــرعية، وهي: أن الإنســـان دائمًا في حاجة إلى الإيمان والتدين والعقيدة، وأن الدّين ضرورة من ضرورات حياة الإنسان، وأن حاجة الإنسان إلى الدين أقرب وأولى عنده من حاجته إلى غيره، فلا غنى للإنسان عن الإيمان بربه، وعن عبادته بحال من الأحوال، ومن هُنا لم تخلُ أمّة وُجدت على وجه الأرض، ومنذ عهد الإنسان بالحياة من عقيدة ودين.

ومصـــداق ذلك ما جاء في قول الحق الكبير المتعال جل في علاه: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: 24]، والمراد من النذير نبي أو رسول، أو عالم وارث لعلم النبوة، يُنذر تلك الأمة عَاقِبة الكفر بالله -تبارك وتعالى- وبكتبه، ورســـله، وشـــرائعه، ويُحذرها من نتائج الـ شرك بربها، والمَع صية له ولر سله، وما يتبع ذلك من انحراف الـ سلوك بالظلم، والـ شر، والفساد.

إنّ الإنسان قد يَستغني عن أشياء كثيرة، وقد تكون من الأمور الضرورية عنده في حياته؛ إلا أنه لا يســـتغني عن عقيدة أو دين أبدًا، وهؤلاء الذين انحرفوا عن الحق هم في حقيقة أمرهم قد اعتقدوا عقيدة، ودانوا بدين، وإن كان: هذا الدين الذي هم عليه دين باطل، لا يُقوِّم نفـ ًسا، ولا يُهذِّب سلوكًا، ولذلك فإننا نُعلن للبـ شرية كلها أن ادخلوا في الدين كافة، وارجعوا إلى ما بُعث به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

إن الاعتقاد الـ صحيح في رب العالمين وما جاء من عنده سبحانه، هو الذي به: تـ ستريح النفس، ويسكن الضمير، وتسلم المجتمعات. ثم بعد ذلك المؤمن الذي دان بهذا الدين، يلقى ربه سبحانه وتعالى وهو مُستبشر بالخير الذي أعدَّه رب العالمين سبحانه لمن آمن به واتقاه.

ج. وجه ضرورة الدين للإنسان:

الإنسان منذ أن وُجد على هذه الأرض، بهبوط أبيه الأول آدم، وأمه حواء –عليهما السلام– من الجنة دار السلام، وهو في حاجة مَاسّة، ومُلِحّة أيضًا إلى قوانين ضابطة تُعدِّل من غرائزه، وتُنظم سلوكه، وتحدِّد اتجاهاته، وتهيئه للكمال الذي خُلق مستعدًّا له في كلتا حياتيه؛ الأولى هذه التي يقضيها قصيرًا على ظهر هذه الأرض، والثانية التي تتم له في عالم غير هذا العالم الأرضي الهابط، وإنما في عالم الطُّهر والصفاء، في الملكوت الأعلى كما أخبر بذلك ربه بواسطة كتبه التي أنزلها، وأنبيائه الذين أرسلهم.

غير أن تلك القوانين المطلوبة، لتعديل غرائز الإنسان وتنظيم سلوكه، وتحديد اتجاهاته في الحياة لا توجد، وهيهات هيهات أن توجد في تشريع غير رباني أو سماوي، لا دخل لأهل الأرض في وضعه وشرعه، إذ لا يعرف الإنسان بعواطفه وأشواقه، ولواعج نفسه وبأفكاره وآماله ومتطلعاته، ولا يَقوى على توفيته مطلوبه من ذلك كله، إلا ربه سبحانه وتعالى خالقه؛ فهو وحده الذي يحقّ له أن يضع له من القوانين، وأن يُشرِّع له من الشرائع.

ومن المعلوم: أنّ الأديان التي جاءت من عند رب العباد –سبحانه– هي التي تُكَمّل الإنسان، وتُعده للكمال والسعادة الأبدية الخالدة؛ لأنها من عند رب العالمين – سبحانه، والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق خلقه، وهو أعلم بما يُصلحهم كما قال سبحانه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: 14].

ولذا كان الدين ضروريًّا للإنسان بوضعه الخاص؛ فالإنسان يأكل ويشرب ويتوقى الحرّ والبرد، وعليه أن يعمل لإعداد ذلك لنفسه؛ فيوجدُ بالسنن التي وضعها ربه له طعامه وشرابه ولباسه، ودواءه وسكنه ومركوبه، وهذه حال تدعو إلى تعاون أفراده؛ لتوفير ما به تقوم حياتهم وتستمر إلى نهاية أجلها المسمى، والإنسان بفطرته يشعر بضعفه وحاجته إلى ربه في

إعانته وتوفيقه، ورعايته وحفظه؛ ولذا فهو يطلب التعرف إلى ربه، والتعرف إلى الله –تبارك وتعالى– يجبُ أن يكونَ بما يُحِبُّ الله سبحانه وتعالى من أنواع القُرَب و ضروب الطاعات والعبادات.

والإنسان بمواهبه وأفكاره ومشاعره وأحاسيسه هذا الإنسان يطلب دائمًا المزيد من السمو والرفعة في ذلك؛ حتى لا يقف عند حدٍّ أبدًا، فهو إذًا في أحواله كلها مفتقر إلى تشريع ديني إلهي، يُلائم فطرته وينظم له علاقته فيما بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه وبين أفراده.

والإنسان من المعلوم أنه لا يستغني عن التعاون مع أفراد مجتمعه، وذلك لتوفير أسباب حياته، وبقاء المجتمعات صالحة في هذا الوجود، وتوفير ما يحتاج الناس إليه من مطعم ومشرب وغير ذلك، إلى جانب أن بعضنا يمدُّ بعضًا بعلوم ومعارف، والله سبحانه وتعالى قد أرسل الأنبياء والمرسلين؛ ليُعلِّموا الناس ذلك، ويُبيِّنوا لهم الحقائق التي يحتاجون إليها، ولذلك نحنُ نجد بأن الأنبياء والمرسلين تحدثوا عن رب العالمين – سبحانه– وعن كيفية عبادته ودعائه، وذكره والتقرب إليه بفعل طاعته وإتيان محابِّه وترك مكارهه، واجتناب مساخطه جل في علاه.

ومع ذلك كان الله سبحانه وتعالى يَمُدّ أنبياءه ورُسله بِعُلومٍ عِلْمِيّة كاملة عن الحياة والكون؛ يَعرفُ الناس بها حقيقة الوجود، وعِلّة الكون والحياة، وأسباب السمو والكمال، والهُبوط والنقصان التي تطرأ على الإنسان في حياته الأولى والآخرة.

وبناءً على كل ما تقدم فضرورة الإنسان إلى دين إلهي صحيح، أشد من ضرورته إلى العناصر الأولية؛ لحفظ حياته من ماء وغذاء وهواء، ولا يُنكر هذه الحقيقة أو يُجادل فيها إلا معاند مكابر، لا يؤبه لعناده ولا يُلتفت إلى جداله. كما أن دعوى العقل في إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان إلى ما يصلحه ويسعده دعوى باطلة ساقطة، لا وزن لها ولا واقع، وذلك لأننا رأينا الكثير من الأمم والشعوب لما فقدت هداية الوحي الإلهي؛ لم تُغنِ عنها هداية العقول شيئًا، فضلت وهلكت.

ومما قاله القرآن الكريم في هذا الموضوع قول الحق -تبارك وتعالى- من سورة الأحقاف:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: 26].

وذلك؛ لأن العُقول لا تَهْتدي إلى معرفة كل ما ينفع الإنسان في حياتيه؛ ليأخذ به، ولا إلى معرفة كل ما يضر الإنسان في حياتيه كلتيهما ليتجنبه، وينجو مما يضرُّه إلا في ضوء الشرع الإلهي ونور وحيه؛ لأن العقول لا تعدو كونها آلة إدراك كحاسة العين لا تُبصر إلى في ضوء النور، والإنسان بعقله لا يستطيع أن يُدرك إلا على ضوء الشرع الإلهي، ونُور وحيه تعالى إلى أنبيائه ورسله. ومن رأى غير هذا؛ فإنه يُغالط نفسه، ويُكابر في شيء من الخطأ، ومن الضلال المكابرةُ فيه لكونه من المحسوس المشاهد.

كما أن دعوى الاكتفاء بالعلم عن الوحي الإلهي، الذي: تمثِّله الشرائع الإلهية الصحيحة السليمة من التحريف والزيادة والنقص والتبديل، كالدين الإسلامي دعوى باطلة قطعًا، ومن وجهين أيضًا:

الأول: أنّ ما عند الناس من بعض العلوم والمعارف في الفنون والأخلاق والآداب، إنما هو -بدون شك- مأخوذ من الوحي الإلهي، إمّا بالنّص اللفظي، أو بالاستنباط، وإنما نُسب إلى بعض الأشخاص مغالطة وتضليلًا لا غير.

والثاني: أنّ العلم المادي مقصور على نفع الإنسان في الجانب المادي منه، وهو الجسم ومتطلباته، وأما الجانب الروحي، وهو الأهم قطعًا؛ فإن العلم المادي لم يخدمه في شيء، ولم يقدم له أيَّ نفع البتة؛ لأنه لم يكن روحيًّا مجانسًا للروح؛ فيُقدم له ما هو في حاجة إليه، إنّ العلوم الإنسانية الخالية من الوحي الإلهي لم تعدوا الكشف عن بعض الظواهر الكونية المادية فقط، كما قال الله

-تبارك وتعالى- عن أربابها: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: 7]

فكيف إذًا تستطيعُ أن تُقَدّم أي خدمة للروح، وهي لم تكسر حجاب المادة بعدُ، ولم تعرف أي سـرٍّ عن حقائق الكون وعلله، وقد اعترف علماؤها بالعجز الكامل عن معرفة العلل والأسرار لأية ظاهرة من ظواهر هذا الكون، فقالوا: اسألونا بكيف لا بماذا، يعنون قولوا لنا: كيف وقع الشـيء الفلاني فإننا نجيبكم، أما لماذا وقع؟ فإننا لا نعرف الإجابة عنه ولا نملكها أبدًا، وذلك لحرمانهم من علوم الوحي الإلهي.

وشيء آخر أقوله لهؤلاء: أليست العلوم المادية قد بلغت الذروة في الكمال، بعد أن قطعت شوطًا بعيدًا في التطور والشمول في كل المجالات؟ ومع هذا الكمال فإن البشرية في شقاء دائم، ولم تخطو يومًا خطوة إلا إلى شـقاء آخر أكبر، والواقع يشـهد بذلك، وكفى بهذا شهيدًا. ولذا فإنه لا مناص من الاعتراف بالحقيقة والتسليم، وهي أن الدين الحق ضروري للإنسان لا غنًى له عنه بحال من الأحوال، وأن كمال الإنسان وسعادته مُتَوقّفَان عليه توقف المعلول على علّته، والمُسبَّب على سببه.

وليُعلم أخيرًا: أنّ الدين الذي نعني ضرورته للإنسان؛ لتوقف سعادته وكماله عليه في الدنيا والآخرة، إنّما هو الدين الإسلامي الحق الصحيح، الدِّين الذي شرعه الله سبحانه وتعالى، وصحَّت نسبته إلى الله -تبارك وتعالى. أما الأديان الباطلة المفتراة؛ كالبوذية والمجوسية والأديان المحرَّفة المُبدَّلة، كاليهودية والنصرانية؛ فإنها وإن سُميت أديانًا، فإنها خالية من الوحي الإلهي الذي يُمثِّل فيها شرعًا إلهيًّا متكاملًا، يُقَدّم للإنسان كل ما يحتاج إليه لإصلاح جسمه وروحه، وإسعادهما في الدنيا والآخرة.

والدليل الوا ضح في ذلك أن أوروبا المتدينة بالن صرانية لم تتقدَّم ح ضاريًّا إلا بعد التمرد والكفر بالدين الذي كانت تعيش عليه زمنًا طويلًا، وهو يُكبِّلها ويقيدها، حتى قام رجال منها وحاربوه، وخرجوا عن قيوده وكفروا بشرائعه.

وإن بحثت البشرية الرا شدة العاقلة عن دين إلهي صحيح سليم؛ فإنها واجدته قطعًا وبدون شك في الإ سلام، الذي هو دين البشرية العام، والذي تضمَّنه كتاب ربنا سبحانه وتعالى، وهذا الكتاب منذ أن نزل على النبي صلى الله عليه و سلم وأهل الإيمان يغترفون من معينه، وهو محفوظ بحفظ الله له؛ فلم ينقص منه حرف، منذ أن نزل، و لم يزد فيه آخر، و لم تُحرَّف فيه كلمة عن موضـــعها منه، و لم تخرج عبارة عن مدلولها قط؛ بالرغم من مرور أكثر من ألف وأربعمائة سنة عليه.

إنّ الدّين الإسلامي هو الدين الكفيل بإنقاذ البشرية اليوم، وهو الدين الكفيل بأن يُخرجها من محنتها، محنة المادية العاتية التي سلبته: -أو كادت- كل معاني الآدمية الكريمة والإنسانية الفاضلة؛ حتى صَيّرت الإنسان آلة لا فهم، ولا ذوق له، ولا تقدير ولا احترام. فإلى الإسلام يا عُقلاء العالم، فإنه الدواء لدائكم، والهداية لكم من ضلالاتكم، فاقبلوا عليه عقيدة وحكمًا ونظامًا؛ فإنه بلا شك سينجِّيكم ويُسعدكم.

العنصر الثالث: معنى الإسلام

الإسلام لغة: الاستسلام والانقياد.

والإ سلام في الشرع: إظهار الخضوع وإظهار الشريعة. والتزام ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، وبذلك يُحقن الدم، ويُستدفع المكروه.

يُقال: فلانٌ مسلم أي: هو المُستسلم لأمر الله، وهو المخلص لله العبادة، ويُقال أيضًا: سَلّم الشيء لفلان أي: خلصه، وسلم له الشيء أي: خلصه له، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال: ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده))، قال الأزهري -رحمه الله- في معنى هذا الحديث: "أنّ المُسلم هو الذي دخل في باب السلامة؛ حتى يسلم المؤمنون من بوائقه". وقد قال رب العالمين في كتابه: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ ﴾ [المائدة: 44] وقد فسر ثعلب هذه الكلمة فقال: "كل نبي بُعث بالإسلام غير أن الشرائع تختلف".

وقد قال رب العالمين سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة: 128] أراد مخلصين لك؛ فعدَّاه باللام إذ كان في معناه، وقال تعالى: ﴿ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: 208]، هذا أمر من الله -تبارك وتعالى- ومعنى القول ﴿ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ ﴾ يعني: في الإسلام وشرائعه كلها.

والإسلام هو دين الله -تبارك وتعالى- كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: 19]، ومن ثَمّ أرسل به جميع أنبيائه ورسله -عليهم الصلاة والسلام- من آدم عليه السلام حتى كانت الرسالة الخاتمة على يد النبي الأمي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وقد أكَّد القرآن الكريم هذا المعنى وأشار إليه بذكر نماذج له؛ ولأذكر بعض ذلك كما جاء في كتاب الله -تبارك وتعالى- فنوح عليه السلام قال: الله -تبارك وتعالى- عنه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 71، 72].

وأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام قال عنه القرآن أيضًا: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: 130، 131].

وقال الله –تبارك وتعالى– عن نبيه وكليمه موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ } [يونس: 84]، وقال عن عيسى عليه السلام وبيَّن القرآن أنه كان مسلمًا وداعيًا إلى الإسلام: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران 51، 52]. كما قال عنهم أيضًا: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: 111].

وبالتالي أقول: إنّ الرسالات السابقة جاءت بالإسلام، وكلها كانت تمهيدًا للرسالة الخاتمة كما قال رب العالمين: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ } [الأنبياء: 25]، وإن اختلفت الشرائع والمناهج لاختلاف الأزمنة والأمكنة، والمدارك والعقول؛ إلا أن الدين الإسلامي كان دين الأنبياء جميعًا، وهذا الدين الإسلامي هو دين الفطرة كما قال رب العالمين سُبحانه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [الروم: 30].

ونبينا صلى الله عليه و سلم أخبر في صحيح سنته ((أن كل مولود يُولد على الفطرة)) وقد روى ذلك الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه عن نبينا صلى الله عليه وسلم.

إن الإ سلام عُرف ببنائه الـشامخ، و صرحه العظيم في شمولية تامة وكمال وافٍ جميل، هذا، ونستطيع أن نُشبه الإ سلام بالبيت، وكل بيت له أ ساس وأعمدة وبناء ومؤيدات، فأ ساس الإ سلام وقاعدته تتمثَّل في عقيدته، وتتلخص في كلمة التوحيد "أ شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا ر سول الله صلى الله عليه و سلم". ثم تأتي أعمدته الأربع وهي: الـ صلاة، والزكاة، والصوم، والحج، ويُطلق على هذه الخمس أركان الإسلام. وقد بيَّن صلى الله عليه وسلم في حديثه الصحيح أنّ الإسلام قد بُني عليها.

أما الأمر الآخر الذي هو المؤيِّد لهذا الدين أيضًا وما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فهو ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم بعد ذلك من دعوة إلى الأخلاق والآداب والفضائل، وكل ذلك يُعبَّر عنه بالدين الذي بُعث به نبينا صلى الله عليه وسلم، إننا ندعو البشرية جمعاء إلى الرجوع إلى هذا الدين، وإلى التمسُّك بدين الإسلام؛ لأنه دين جميع الأنبياء والمرسلين.

الدرس الثاني: مفاهيم يجب الوقوف عندها

عناصر الدرس

العنصر الأول: معنى الإيمان لغة واصطلاحا

العنصر الثاني: مفهوم الكفر لغة واصطلاحًا

العنصر الأول: معنى الإيمان لغة واصطلاحا

أ. تعريف الإيمان لغةً:

اشتهر عند أهل اللغة تعريف الإيمان بالتصديق؛ حتى ادَّعى بعضهم الإجماع على ذلك، قال الأزهري –رحمه الله: "واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم؛ أن الإيمان معناه التصـــديق"، وبيَّن أن الأصـــل في الإيمان الدخول في صـــدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها؛ فإذا اعتقد التصديق بقلبه، كما صدق بلسانه؛ فقد أدَّى الأمانة وهو مؤمن، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه؛ فهو غير مُؤدٍّ للأمانة التي ائتمنه الله عليها، وهو منافق.

ومن أهل اللغة من فسّر الإيمان بما يتضمَّن عمل القلب، ولم يقصره على التصديق فحسب، وفي ذلك يقول ابن منظور –رحمه الله: "وحَدّ الزّجاجُ الإيمانَ فقال: الإيمانُ إظهار الخضوع، والقبول للشريعة، ولما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم واعتقاده وتصديقه بالقلب". وقال الفيروز آبادي في (القاموس المحيط): "والإيمان الثّقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة".

والقول بأن الإيمان هو التصديق فقط؛ ردّه شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تبارك وتعالى– من وجوه كثيرة حاصلها:

– أنّ لفظ التصديق يتعدى بنفسه دون لفظ الإيمان؛ فإنّه لا يَتعدّى إلا بالباء أو اللام؛ فيُقال للمُخبر إذا صدقته صدقه، ولا يُقال: آمنه وآمن به، بل يُقال: آمن له، كما قال الله –تبارك وتعالى– في كتابه: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت: 26]، وكما قال أيضًا: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ ﴾ [يونس: 83]

فهنا عُدِّي لفظ الإيمان باللام، وقال رب العالمين سبحانه وتعالى عن فرعون أنه قال لقومه: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه: 71]، كما قال قوم نوح لنوح عليه السلام: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: 111].

ثانيًا: أنه ليس مرادفًا للفظ التصـــديق في المعنى؛ فإنّ الإيمان لا يُســـتعمل إلا في الأمر الذي يؤتمن عليه المخبر، كالآمر الغائب بخلاف التـ صديق؛ فإنه يُ ستعمل في كل خبر، وهذا فرق آخر، فإنّ كُلّ مُخبر عن مشاهدة أو غيب، يُقال له في اللغة: صَدَقْتَ كما يُقال: "كذبت"، فمن قال: السماء فوقنا. قيل له: صدق كما يُقال: كذب.

وأما لفظ الإيمان فلا يُســـتعمل إلا في الخبر عن غائب، لم يوجد في الكلام أنّ من أخبر عن مشاهدة؛ كقوله: طلعت الشمس وغربت. أنه يقال: آمناه، كما يُقال: صدقناه، فإنّ الإيمان مـ شتق من الأمن، ولذا فهو يُ ستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر؛ فاللفظ متضـــمن معنى التصـــديق، ومعنى الائتمان والأمانة، كما يدل عليه الا ستعمال والا شتقاق. ولهذا قالوا: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يو سف:17] أي: لا تُقر خبر نا ولا تثق به ولا تطمئن إليه، ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوســـف:17]؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمنون على ذلك فلو صدقوا لم يأمن لهم.

أما الفرق الثالث الذي يُبين أن الإيمان ليس هو التصـــديق فحســـب كما ذهب إلى ذلك البعض: أنّ لفظ الإيمان في اللُّغة لم يُقابل بالتكذيب كلفظ التصديق؛ فإنه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يُقال له: صدقت أو كذبت. ويُقال: صدقناه أو كذبناه، ولا يُقال لكل مخبر: آمنا له أو كذبناه، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر، والكُفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صـــادق؛ لكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضـــك، وأخالفك ولا

أوافقك. لكان كفره أعظم. فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط؛ عُلم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط.

رابعًا: أنّ التصديق إنّما يعرض للخبر فقط. فأمّا الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبرٌ وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام، وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر.

وقد يقول قائل: إذا لم تُسلم بأن الإيمان في اللغة هو التصديق، وقد قال بذلك بعض علماء اللغة؛ فما هو الأقرب في تفسير الإيمان؟ أقول: الأقرب أن يُفسَّر الإيمان بالإقرار، وفي ذلك يقول أيضًا ابن تيمية –رحمه الله: "أولى ما يُفسَّر به الإيمان في اللغة أنه: الإقرار الذي يتضمن تصديق القلب وانقياده". ولذلك يُقال: آمن له. كما يُقال: أقررت له، فكان تفسير الإيمان بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق، مع أن بينهما فرقًا.

وقال أيضًا –رحمه الله: "ومعلوم أنّ الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضُمِّن قول القلب الذي هو التصديق، وعَمَل القَلْب الذي هو الانقياد، وقال أيضًا: والمقصود هنا أن لفظ الإيمان إنما يُستعمل في بعض الأخبار، وهو مأخوذ من الأمن؛ كما أن الإقرار مأخوذ من قَرّ، فالمؤمن صاحب أمنٍ كما أن المُقر صاحب إقرار، فلا بد في ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه، فإذا كان عالمًا بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول الله، ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه؛ بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه، فإن هذا ليس بمؤمن به، بل كافر به.

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله تبارك وتعالى: "ولهذا لو فُسِّر الإيمان بالإقرار؛ لكان أجود، فنقول: الإيمان الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق، فنقول: أَقَرّ به، كما نقول: آمن به، وأقر له كما نقول: آمن له، هذا في اللغة".

ب. تعريف الإيمان شرعًا:

الإيمان في الشرع: حَقيقةٌ مركبة من القول والعمل؛ قول القلب وقول اللسان، وعمل القلب وعمل الجوارح. قال الإمام ابن القيم –رحمه الله تبارك وتعالى: "وههنا أ صلٌ آخر، وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قســـمان: قول القلب وهو الاعتقاد، وقول الل سان وهو التكلُّم بكلمة الإ سلام. والعمل ق سمان: عمل القلب وهو نيته وإخلا صه، وعمل الجوارح".

وقال شيخ الإ سلام الإمام ابن تيمية –رحمه الله تبارك وتعالى: "ومن أ صول أهل ال سنة والجماعة: أن الدين والإيمان قول وعمل؛ قول القلب واللســـان، وعمل القلب واللســـان والجوارح". وقد حكى غير واحد إجماع أهل الســـنة على ذلك، وهذا الإجماع مُســـتنده عشرات النصوص من كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن أقوال أئمتنا في هذا: ما جاء عن الإمام الشـــافعي –رحمه الله تبارك وتعالى– أنه قال: "وكان الإجماع من الصـــحابة والتابعين ومن بعدهم، ومن أدركناهم يقولون: الإيمان قول، وعمل، ونية، لا يُجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر".

وقال الإمام البخاري –رحمه الله تبارك وتعالى: "لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم؛ أهل الحجاز ومكة، والمدينة، والكوفة، والبصرة، وواسط، وبغداد والشام، ومصر، لقيتهم كرات –يعني: مرات– قرنًا بعد قرن –أي: طبقة بعد طبقة– أدركتهم وهم متوافرون منذ أكثر من ست وأربعين سنة، أهل الشام ومصر والجزيرة مرتين، والبصرة أربع مرات في سنين ذوي عدد، وسرد أسماء خمسة وأربعين رجلًا، ثم قال: واكتفينا بتسمية هؤلاء كي يكون مختصرًا وألا يطول ذلك، فما رأيت واحدًا منهم يختلف في هذه الأشياء، أنّ الدّين قولٌ وعَمل،

وذلك لقول الله –تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: 5]".

وقال الإمام البخاري –رحمه الله تبارك وتعالى– أيضـــًا: "كتبتُ عن ألف نفر من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلا عمن قال: الإيمان قول وعمل، ولم أكتب عمن قال: الإيمان قول". ويُفهم من كلام الإمام البخاري هذا أن مجموعة كبيرة من العلماء يتجاوزون الألف، والإمام البخاري –رحمه الله– كان في خير القرون؛ في القرن الثالث الهجري، وجميع هؤلاء كانوا يقولون بأن الإيمان قول وعمل.

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام –رحمه الله تبارك وتعالى: "هذه تسمية من كان يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وسمى ثلاثة وثلاثين ومائة عالمًا"، ثم قال: "هؤلاء كلهم يقولون الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وهو قول أهل السُـــنَّة والمعمول به عندنا وبالله التوفيق".

وقال الإمام عالم المغرب –رحمه الله– الإمام ابن عبد البر قال: "أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان؛ إلا ما ذُكر عن أبي حنيفة وأصحابه، فإنّهم ذَهبوا إلى أن الطاعات لا تُســـمى إيمانًا، فقالوا: إنّ الإيمان التصـــديق والإقرار، ومنهم من زاد: والمعرفة".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله: "ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر السنة". وحكى غير واحد الإجماع على ذلك، وقد ذكرنا عن الإمام الشـــافعي –رحمه الله– ما ذكره من الإجماع على ذلك، ومن هذا ما قاله في كتابه (الأم)،

وقد سبق أن ذكرته، ولكن الإمام ابن تيمية أيضًا نقله في (مجموع الفتاوى) ثم قال: "وقد حكى غير واحد إجماع أهل السنة والحديث على أن الإيمان قول وعمل".

وقال: وروى أبو عمر الطلمنكي بإسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمَّال قال: "أملى علينا إسحاق بن راهويه: أنّ الإيمانَ قول وعمل"، يزيد وينقص لا شك أن ذلك كما وصفنا، وإنما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة، وآحاد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين، وهلمَّ جرًّا على ذلك. وكذلك بعض التابعين من أهل العلم على شيء واحد لا يختلفون فيه، وكذلك في عهد الأوزاعي بالشام، و سُفيان الثّوري بالعراق، ومالك بن أنس بالحجاز، ومعمر باليمن على ما فسرنا وبيَّنَّا أنّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص.

هذا ما أجمع عليه أهل السنة، وهو: "أنّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص" إلا أن منهم من أضاف ونية، أو واتباع للسنة، ومنهم من قال: "قول باللسان واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان". وليس في ذلك اختلاف معنوي، وإنما هو زيادة إيضاح وبيان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تبارك وتعالى: "والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين وجمهور السلف، وهو مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأنه يجوز الاستثناء فيه كما قال عمير بن حبيب الخطمي وغيره من الصحابة، الإيمان يزيد وينقص، فقيل له: وما زيادته ونقصانه؟ فقال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه؛ فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا، فذلك نقصانه فهذه الألفاظ المأثورة عن جمهورهم".

بهذه النقول يتبيَّن أن مفهوم الإيمان عند أهل السنة والجماعة أنه اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان، وأن من ذهب من أهل اللغة إلى أن الإيمان هو التصديق فحسب؛ فلم ينظر إلى أن الشارع الكريم قد ضمَّ إلى هذا التصديق ما جاء به نبينا

صلى الله عليه و سلم من شرائع. كما أن الإيمان في اللغة لا يُقال له التصديق فحسب. وأن أولى أو أقرب ما يُعرف به الإيمان في اللغة أنه هو الإقرار.

ج. ما بين الإيمان والإسلام من ترادف أو تغاير:

هل يُسمَّى المؤمن بالمسلم؟ وهل يُسمى المسلم بالمؤمن؟ وهل الإيمان والإسلام اسمان لمسمًّى واحد ومعنًى واحد، أو لمسميين ومعنيين مختلفين؟ هذا ما أودُّ أن أبينه، وهو معنى ما قلت: بأن الإيمان والإســـلام هل بينهما ترادف أو تغاير أم لا، لبيان هذه الحقيقة وتجليتها أذكر أقوال أهل العلم في ذلك:

قال الإمام أبو محمد بن حزم –رحمه الله تبارك وتعالى: :"ذَهب قوم إلى أن الإسلام والإيمان اسمان واقعان على معنيين، وأنه قد يكون مسلم غير مؤمن"، واحتجوا بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ ﴾ [الحجرات: 14]. وبالحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ قال له سعد: هل لك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم في فلان فإنه مؤمن. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أو مسلم)). وبالحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه جبريل في صورة فتًى ولم يعرفه أحد من الحاضرين إلا النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله عن الإسلام، فأجابه بأشياء في جملتها: أنه ((إقام الصلاة وإيتاء الزكاة)):، وأعمالٌ أخرى مذكورة في هذا الحديث الذي قد ثبت عن النبي صلى الله عليه و سلم، كما سأله أيضًا عن الإيمان فأجابه بأشياء من جملتها ((أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله)): إلى أخره.

وذهب آخرون: إلى أن الإيمان والإسلام لفظان مترادفان على معنًى واحد، واحتجَّ هؤلاء بقول الله –تبارك وتعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات 35، 36]. وبقوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: 17].

وبعد هذا العرض، قال الإمام ابن حزم –رحمه الله تعالى: "والذي نقول به وبالله تعالى التوفيق: أن الإيمان أصله في اللغة التصديق على الصفة التي ذكرنا من قبل، ثم أوقعه الله سبحانه وتعالى في الشريعة على جميع الطاعات واجتناب المعاصي، إذا قصد بكل ذلك من عملٍ أو تركٍ وجهَ رب العالمين جل في علاه، وأنّ الإسلام أصله في اللغة التبرُّؤ، تقول: أسلمت أمر كذا إلى فلانٍ إذا تبرأت إليه؛ فسُمي المسلم مسلمًا؛ لأنه تبرأ من كل شيء إلى الله سبحانه وتعالى".

ثم نقل الله –تعالى– اسم الإسلام أيضًا إلى جميع الطاعات، وأيضًا؛ فإن التبرؤ إلى الله من كل شيء هو معنى التصديق؛ لأنه لا يبرأ إلى الله تعالى من كل شيء حتى يُصدِّق به، فإذا أُريد بالاسم هذا المعنى الذي هو خلاف الكفر وخلاف الفسق؛ فهو والإيمان شيء واحد، كما قال الله تعالى: ﴿ لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: 17].

وقد يكونُ الإسلامُ أيضًا بمعنى: الاسْتِسلام، أي: أنه استسلم للملة خوف القتل، وهو غيرُ مُعتَقِد لَها؛ فإذا أُريد بالإسلام هذا المعنى؛ فهو غيرُ الإيمان، وهو الذي أراده الله تعالى في قوله: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: 14].

وبهذا تتآلف النصوص المذكورة من القرآن والسنة وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: 85]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مسلمة))، فهذا هو الإسلام الذي هو الإيمان؛ فصَحّ أن الإسلام لفظة مشتركة كما ذكرنا. هذا كلام الإمام ابن حزم –رحمه الله.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– الذي وضح هذه المسألة العظيمة في كتابه (الإيمان) في كلمات دقيقة، قال فيها: "في حديث جبريل جعل النبي صلى الله عليه وسلم الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليها الإسلام. فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم. وليس كل مؤمن محسنًا، ولا كل مسلم مؤمنًا".

هكذا قال. ثم ذكر حديثًا جاء فيه: ((أيُّ الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان، قال: ما الإيمان؟))، ثم ذكر الحديث بعد ذلك، وما ذكره في الحقيقة أمور فيها شيء من الأعمال. ثم ذكر الإمام –رحمه الله– بعد ذلك مجموعة من الأحاديث ومجموعة من الآيات التي ذُكر فيها اسم الإيمان مفردًا ومقرونًا باسم الإسلام، ومقرونًا بالأعمال الصالحة، ثم قال: فلما ذكر الله الإيمان مع الإسلام، جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة، وهي الشهادتان والصلاة، والزكاة، والصيام، والحَجّ، وجعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

فإذا ذُكر اسم الإيمان مجردًا دخل فيه الإسلام، كما تدخل فيه الأعمال الصالحة، كقوله صلى الله عليه وسلم في حَدِيثِ شُعب الإيمان: ((الإيمانُ بضع وسبعون درجة، أعلاها: قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق))، وهذه الشُّعب شعبٌ متفاوتة، منها: ما يَدخُل في الإيمان المراد به التصديق القلبي، ومنها ما يقوم به الإنسان بعمل قلبي أو بلسانه أو بجوارحه.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ذلك بأنه إيمان، فقال في أول الحديث: ((الإيمان بضع وسبعون درجة))، ثم ذكر من الإيمان: إماطة الأذى عن الطريق. وكذلك سائر الأحاديث التي يجعل فيها أعمال البر من الإيمان، وإذا ذُكر اسم الإسلام: مجردًا دخل فيه: الإيمان ضمنًا، فهما اسمان إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا. فعند اجتماعهما يكون معنى

الإيمان هو: التصديق الباطني، ومعنى الإ سلام هو: الانقياد الظّاهري. أما عند تفرُّقهما يعني: أن يُذكر كل واحد منهما مفردًا عن الآخر؛ فإنه في الحَقيقة يكون لكل واحد منهما معنى. ولكن أيهما يسبق الآخر؟ وأيهما أفضل من الآخر؟ إن قلنا: إن الإيمان يسبق الإسلام، فالآية تُخالف ذلك قال الله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات: 14]، وإن قلنا: الإ سلام يسبق الإيمان؛ فمعناه الامتثال الظاهري بدون الانقياد القلبي، وهذا هو النفاق؛ لأنه إظهار الإسلام مع عدم التصديق القلبي.

ولذلك فصَّل شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تبارك وتعالى– هذا الأمر فقال: لا تصح الطاعة من أحد إلا مع الإيمان؛ فيمتنعُ أن يكونَ أحدٌ فعل شيئًا من الإسلام إلا وهو مؤمن، ولو كان ذلك أدنى الطاعات، أو فعل واحدة منها، وذلك لا يصح كله إلا مع الإيمان، فلا بد وأن يسبق الإيمان الإسلام في صورته الأولى، المتمثِّلة في التصديق القلبي؛ فيكون بمثابة الدخول على الطاعات والأعمال الصالحة، والتشريعات الإسلامية، فهذا يُسمى مطلق الإيمان، فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا، وأُلزم الجسد بالقول الظاهر، والعمل بأحكام الإسلام؛ وصل إلى درجة الإيمان المطلق أو الإيمان الحق، كما قال رب العالمين سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال 2 : 4]".

فهذا هو الإيمان المطلق الذي نفاه الله سبحانه وتعالى عن الأعراب، وإن كانوا مسلمين معهم من الإيمان ما يُثابون عليه –أي: مطلق الإيمان، وهذا حال أكثر الداخلين في الإسلام ابتداءً، بل حال أكثر من لم يعرف حقائق الإيمان، إلى أن يصل إلى حقيقة الإيمان باجتهاده على نفسه في الطاعات، ويقينه الذي لا يعتريه شكٌّ أو ارتياب، مع المُجَاهدة في سبيل الله بالمال والنفس،

كما قال الله –تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:15].

وهذا الإيمان –أي: الإيمان المطلق– لا شكّ أنه أفضل من الإسلام، وهو بين الإسلام والإحسان، وهذا هو الذي قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله: "كل مؤمن مسلم، وكل محسن مؤمن، وليس كل مسلم مؤمنًا، ولا كل مؤمن محسنًا". وهذا الإيمان هو الذي نفاه الله سبحانه وتعالى عن الأعراب، ونفاه النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل كما في حديث سعد السابق: "هل لك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم في فلان فإنه مؤمن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أو مسلم))".

واسم الإسلام يتناولُ أيضًا ما هو أصل الإيمان، وهو التَّصديق ويتناول أصل الطاعات، فإن ذلك كله استسلام.

والحاصل: أنّ الإسلام والإيمان كلمتان إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، فإذا قيل: الإسلام؛ فلا بد أن يكون معه إيمان، فلا يوجد عمل يقوم به الإنسان بجوارحه، إلا إذا كان قد آمن وصدَّق بقلبه، كما أنه أيضًا لا يكون إيمان صحيح إلا بأعمال صحيحة، وإذا اجتمعا فُسِّر الإسلام بالأعمال الظاهرة؛ وفُسر الإيمان بالأعمال القلبية، كما وقع ذلك في حديث جبريل عليه السلام، وهذا أعتقد في غاية من الوضوح.

العنصر الثاني: مفهوم الكفر لغة واصطلاحًا

أ. تعريف الكفر لغةً: الكفر لغة: الســـتر والتغطية. قال أبو عبيد –رحمه الله تبارك وتعالى: "وأمّا الكافِرُ فيُقال –والله أعلم: إنما سُمي كافرًا؛ لأنه متكفرٌ به، كالمتكفر بالسلاح، وهو الذي قد أُلبسه السلاح حتى غطَّى كل شيء منه، وكذلك غطى الكفر قلب الكافر، ولهذا قيل لليل كافر لأنه أُلبس كل شـــيء، ويُقال: الكافر سُـــمِّي بذلك للجحود، كما يُقال: كافرني فلان حقي: إذا جحده حقه".

وقال الإمام ابن قتيبة –رحمه الله: "أما الكافر فهو من قولك: كفرت الشيء إذا غطيته، ومنه يُقال: تَكَفّر فُلانٌ في السلاح إذا لبسه"، وقال بعضهم: ومنه كافور النخل، وهو قشر الطلعة، تقديره فاعول، ومنه قيل: ليل كافر؛ لأنه يســـتر كل شـــيء. قال لبيد وقد ذكر الشمس:

حتى إذا ألقت يدًا في كافر * وأجنَّ عورات الثغور

قوله: "ألقت يدًا في كافري" أي: دخل أولها في الغور، وهو مِثلُ قول الآخر يصف ظليمًا أو نعامة:

فتذكرا ثقلًا رشيدًا بعدما * ألقت ذُكاء يمينها في كافر

وذُكاء هي الشمس، ومنه يُقال للصبح: ابن ذُكاء, لأن ضوءه من الشمس؛ فكأن الأصل في قولهم: كافر، أي: ساترٌ لنعم الله عليه. وكان بعض المحدثين يذهب في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تَرجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)) إلى التكفر في السلاح، يُريد ترجعوا بعد الولاية أعداء يتكفر بعضكم لبعض في الحرب.

وقال الأزهري –رحمه الله: "وقال الليث: يُقال إنما سُمي الكافر كافرًا؛ لأن الكفر غطَّى قلبه كله"، قال الأزهري –رحمه الله– معلقًا على قول الليث هذا: "قيل له كافر: لأن الكفر غطى قلبه، أو أن الكفر في اللغة معناه التغطية، والكافر ذو كفر أي: ذو تغطية لقلبه بكفره،

كما يُقال للابس السلاح كافر، وهو الذي غطاه السلاح، ومثله رجل كاسٍ ذو كسوةٍ، وماء دافق ذو دفق".

وفيه قول آخر وهو أحسن مما ذهب إليه الليث: وذلك أن الكافر لما دعاه الله سبحانه وتعالى إلى توحيده، فقد دعاه إلى نعمة يُنعم بها عليه إذا قبلها، فلما رَدّ ما دعاه الله -تبارك وتعالى- إليه من توحيده، كان كافرًا نعمة الله عليه أي: مغطيًا لها بإبائه حاجبًا لها عنه.

قال أيضًا الأزهري -رحمه الله: "وأخْبرني المُنذري عن الحراني، عن ابن السكيت أنه قال: إذا لبس الرجل فوق درعه ثوبًا؛ فهو كافر". وقد كفر فوق درعه قال: وكل ما غطى شـــيئًا، فقد كفره. ومنه قيل لليل كافر؛ لأنه ستر بظلمته كل شيء وغطاه، قال: ومنه سُمي الكافر كافرًا؛ لأنه ستر نعم الله عليه.

قال الأزهري -رحمه الله- معلقًا على كلام ابن السكيت هذا: "ونعم الله -جل وعز- آياته الدالة على توحيده، والعربُ تقول للزارع: كافر؛ لأنه يكفُر البذر المبذور في الأرض بتراب الأرض التي أثارها، ومنه قول الله - جل ذكره: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: 20] أي: أعجب الزُّراع نباته، ما علمهم به فهو غاية ما يُستحسن، والغيث ها هنا المطر". إذًا الكفر باختصار يأتي بمعنى الستر والتغطية وكلام أئمة اللغة تؤيد هذا القول.

ب. تعريف الكفر شرعًا:

الكفر شرعًا: ضدُّ الإيمان؛ فيكون أيضًا بناءً على ذلك قولًا وعملًا واعتقادًا وتركًا، كما أنّ الإيمان قول وعمل واعتقاد، كما بينتُ ذلك آنفًا، وهذا أيضـــًا مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، خلافًا لمن حصر الكفر في التكذيب أو الجحود بالقلب، أو بالقلب واللسان، ونفى أن يكون الكُفر بالعمل أو بالترك.

وفي ذلك يقول شيخ الإ سلام ابن تيمية –رحمه الله تبارك وتعالى: "الكفر عدم الإيمان بالله ور سوله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شكٌّ وريب، أو إعراض عن هذا حسدًا أو كبرًا، أو اتباعًا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة".

وقال الإمام ابن حزم –رحمه الله– أيضًا عن الكفر: "وهو في الدين صفة من جحد شيئًا مما افترض الله تعالى الإيمان به، بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه، بقلبه دون لســـانه، أو بلســـانه دون قلبه، أو بهما معًا، أو عَمِل عملًا جاء النص بأنه مخرِج له بذلك: عن اســـم الإيمان". وكلام الإمام ابن: حزم –رحمه الله– دقيق للغاية؛ إذ بيَّن أنّ الكفر كما يكون بالقلب يكون باللسان أيضًا، وبترك العمل.

وقال الإمام إسحاق بن راهويه –رحمه الله تبارك وتعالى: "ومما أجمعوا على تكفيره، وحكموا عليه كما حكموا على الجاحد؛ فالمؤمن الذي آمن بالله تعالى، وبما جاء من عنده سبحانه، ثم قتل نبيًّا، أو أعان على قتله، ويقول: قتل الأنبياء محرم فهو كافر. فلو جاء إنســـان مثلًا وقال: بأنني أؤمن بالله تعالى، وأؤمن بما جاء النبي صلى الله عليه و سلم، ولكني لو رأيت نبيًّا قتله، وأعنت على قتله، هل نعتبر ما قاله بلـ سانه، أو ما ظن أنه قام في قلبه أنه بهذا من أهل الإيمان؟ لا يُمكن أن يكون هذا أبدًا".

وقال البربهاري –رحمه الله: "ولا يخرجُ أحد من أهل القبلة من الإســـلام حتى يردَّ آية من كتاب الله سبحانه وتعالى، أو يردّ شيئًا من آثار ر سول الله صلى الله عليه و سلم، أو يذبحَ لغير الله، أو يُصـــلي لغير الله، وإذا فعل شـــيئًا من ذلك؛ فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام".

وقال شيخ الإ سلام ابن تيمية –رحمه الله: "فمن قال بلـ سانه كلمة الكفر من غير حاجة، عامدًا لها، عالمًا بأنها كلمة الكفر؛ فإنه يكفر بذلك ظاهرًا وباطنًا، ولا يجوز أن يُقال: إنه في الباطن يجوز أن يكون مؤمنًا، ومن قال ذلك فقد مرق من الإ سلام. وقال: إن سَبَّ الله أو

سب ر سوله صلى الله عليه و سلم كفر ظاهرًا وباطنًا، سواء كان الـساب يعتقد أن ذلك محرم، أو كان مـ ستحلًّا له، أو كان: ذاهلًا عن اعتقاده، وهذا مذهب الفقهاء و سائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل".

وقال أيـضًا: "فمن صدَّق الر سول صلى الله عليه و سلم وأبغـضه وعداه بقلبه وبدنه، فهو كافر قطعًا بالضرورة".

وقال الإمام ابن القيم –رحمه الله: "وكذلك شُعب الكفر القولية والفعلية؛ فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختيارًا، وهي شعبة من شعب الكفر؛ فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه، كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف؛ فهذا أصلٌ، ومع كل ذلك فأهل السنة والجماعة لا يُكفِّرون المؤمن المرتكب للكبيرة، مع إيمانه الصحيح"، وهذا له تفصيل آخر.

الدرس الثالث: تابع مفاهيم يجب الوقوف عندها

عناصر الدرس

العنصر الأول: أنواع الكفر وأقسامه

العنصر الثاني: خطورة التكفير وبيان أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان

العنصر الأول: أنواع الكفر وأقسامه

قد تكلمت عن بعض المفاهيم التي يجب على طالب العلم أن يعلمها، وهذا الدرس تابع لما سبق ذكره:

أ. أنواع الكفر الأكبر: لا شكّ أن الكفر ينقسم إلى قسمين كما هو معلوم: ينقسم إلى أكبر وإلى أ صغر: الكفر الأكبر ينق سم باعتبار بواعثه الدافعة إليه إلى خم سة أق سام؛ وقد بينها الإمام الحافظ ابن القيم –رحمه الله تبارك وتعالى– بقوله: "وأما الكفر الأكبر فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراضٍ وكفر شك، وكفر نفاق".

فأما كُفر التكذيب فهو: اعتقاد كذب الر سل، وهذا القـ سم قليل في الكفار؛ لأن الله –تبارك وتعالى– أيّد رُسله، وأعطاهم من البراهين والآيات الدالة على صدقهم ما أقام به الحجة، وأزال به المعذرة على أعدائهم، وفي ذلك يقول رب العالمين سبحانه وتعالى مخبرًا عن فِرْعَونَ وقومه، مُبينًا أنهم أدركوا صدق موسى عليه السلام ولكنّهم كذبوا برسالته قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14].

وقال الله سبحانه وتعالى أيـ ضًا في كتابه، موجهًا الخطاب إلى النبي صلى الله عليه و سلم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33]. وإن سُمي هذا كفر تكذيبًا أيضًا فصحيح؛ إذ هو تكذيب باللسان، فهم وان ا ستيقنت قلوبهم بصدق الر سل؛ إلا أنّهم صَرّحوا بألسنتهم بأن هؤلاء الذين أر سلهم رب العالمين كاذبون، وليسوا بصادقين.

أما النوع الثاني من أنواع الكفر الأكبر؛ فهو: كُفر الإباء والا ستكبار؛ وذلك ككفر إبليس، فإنه لم يجحد أمر الله –تبارك وتعالى– الموجه إليه، ولا قابل أمر الله بالإنكار، وإنما تَلقّاه بالإباء والا ستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الر سول صلى الله عليه و سلم وأنه جاء

بالحق من عند ربه سبحانه، إلا أنه لم ينقد له إباءً وا ستكبارًا. وهذا في الحقيقة هو الغالب على كفر أعداء الر سل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه أنهم قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون: 47].

كما قالت الأمم أيضًا لر سلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم: 10]، وقال سبحانه وتعالى عن قوم ثمود مبينًا كفر الإباء والا ستكبار عندهم: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾، وهو أيضـــًا عين كفر اليهود كما قال الله -تبارك وتعالى- عنهم: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ [البقرة: 89]، فهؤلاء أثبت القرآن الكريم لهم أنهم عرفوا صدق ر سالة النبي صلى الله عليه و سلم ولكن الا ستكبار والإباء كان هو النموذج الذي سلكوه، وقال الله أيضًا عنهم: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: 146].

فاليهود وأيضًا النصارى كذلك يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم معرفة سليمة صحيحة، لا توجد عندها شبهة أو شك؛ ومع ذلك فقد كفروا به، ومن هنا كان الكفر الواقع منهم هو كفر الإباء والاستكبار، وهو كفر أبي طالب أيضًا؛ لأن أبا طالب صَدّق النبي صلى الله عليه و سلم و لم يكن عنده شكٌّ في صدقه، ولكن أخذته الحمية وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر.

أما القـ سم الثالث من أقـ سام الكفر الأكبر، فهو: كفر الإعراض، وذلك أن يعرض بـ سمعه وقلبه عن الر سول صلى الله عليه و سلم لا يُـ صدّقه ولا يُكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يـ صغي إلى ما جاء به البتة كما قال أحد بني عبد يا ليل للنبي صلى الله عليه و سلم: "والله، أقول لك كلمة: إن كنت صادقًا فأنت أجلُّ في عيني من أردَّ عليك، وإن كنت كاذبًا فأنت

أحقر من أن أكلمك". فهؤلاء لم يُكلفوا أنفسهم أن ينظروا فيما جاء به النبي صلى الله عليه و سلم ولكنهم أعر ضوا بـ سمعهم وقلبهم عن تأمُّل ما جاء به، ومن هُنا أطلق على كفرهم كفر الإعراض.

أما النوع الرابع من أنواع الكفر: فهو كُفر الـ شّك، وذلك عندما يكون الإنـ سان غير جازم بـصدقه ولا بكذبه؛ بل يقعُ منه الشك في أمره، وغالب هؤلاء أن الشك لا يستمر عندهم، إلا إذا ألزم الواحد منهم نفسه: الإعراض عن النظر في آيات صدق الر سول صلى الله عليه و سلم جملة؛ فلا يَ سمعُها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها، ونظره فيها؛ فإنه لا يبقى معه شكٌّ؛ لأنها مـستلزمة للـصدق، ولا سيما بمجموعها؛ فإن دلالتها على الـصدق كدلالة الشـــمس على النهار، وأما كفر النِّفاق فهو أن يُظهر بلســـانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب؛ فهذا هو النفاق الأكبر. وسيأتي عنه حديث إن شاء الله –تبارك وتعالى.

كما ذكر الإمام ابن القيم أيـ ًضا –رحمه الله تبارك وتعالى– كلامًا حول هذا قال فيه: "وقد بيَّن القرآن الكريم أن الكفر أقسام:

أحدها: كُفرٌ صادر عن جهل وضلال، وتقليد الأسلاف، وهو كفر أكثر الأتباع والعوام.

الثاني: كُفر جحود وعناد، وقـ صد مُخالفة الحقّ كَكُفر من تقدم ذكره، وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في قومه من الكفار، أو رياسة سلطانية، أو من له مأكل وأموال في قومه؛ فيخاف هذا على ريا سته، وهذا على ماله ومأكله، فيؤثر الكفر عن الإيمان عمدًا، وهذا قد وقع كثيرًا في التاريخ الإنساني، أن خاف بعض الناس على ما يأتي إليهم من أموالٍ، أو خاف الواحد منهم على ما عنده من زعامة ورياســـة، ومن هنا جحد وعاند وخالف الحق.

قال في الثالث: كُفر إعراض محض، وهذا هو الذي لا ينظر فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يحبه ولا يبغضه، ولا يواليه ولا يعاديه، بل هو معرض عن متابعته ومعاداته، وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونهما، ولا يثبتون من الكفر إلا الأول.

ويجعلون الثاني والثالث كفرًا؛ لدلالته على الأول، لا لأنه في ذاته كفر؛ فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل، ومن تَأمّل القُرآن والسّنة، و سِيرَ الأنبياءِ في أممهم ودعوتهم لهم، وما جَرى لهم معهم؛ جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه، وعلم أن عامة كفر الأمم عن تيقن وعلم، ومعرفة بصدق أنبيائهم وصحة دعواهم، وما جاءوا به، وهذا القرآن الكريم مملوء من الإخبار عن المشركين عُبَّاد الأصنام، أنهم كانوا يقرون بالله، وأنه هو وحده ربهم وخالقهم، وأن الأرض وما فيها له وحده، وأنه رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، وأنه بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وأنه هو الذي سخر الشمس والقمر، وأنزل المطر وأخرج النبات.

والقرآن الكريم منادٍ عليهم بذلك؛ محتجٌّ بما أقروا به من ذلك على صحة ما دعتهم إليه رسله؛ فكيف يقال بعد هذا: إنّ القَومَ لم يكونوا مقرين قط بأن لهم ربًّا وخالقًا، وهذا بهتان عظيم؛ فالكفر أمر وراء مُجَرّد الجهل، بل الكفر الأغلظ هو ما أنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر". وهذا الكلام من الإمام رحمه الله -تبارك وتعالى- هو بمثابة التوضيح للأقسام الخمسة التي سبق ذكرها، ولا يتعارض ما ذكرته هنا من كلام أخير له، مع ما سبق من قاله؛ ولكنه توضيح لما سبق أن قرره -رحمه الله تبارك وتعالى-.

ضابطُ الكفر الأصغر:

تعريفُ الكفر الأصغر: هو كل ذنب سَمّاه الشّارِعُ كفرًا مع ثبوت إسلام فاعله بالنص أو بالإجماع؛ وذلك كارتكاب الكبائر، التي أطلق الشارع عليها اسم الكفر، غير أنها لا تخرج

صاحبها -إن كان من أهل الإسلام، ودخل الإسلام قلبه بيقين- إلى الكفر، ومن ذلك مثلًا: ما جاء في قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال؛ وإلا رجعت عليه)). فنُلاحظ هُنا أن الله -تبارك وتعالى- سَمّاه أخًا للقائل حين القول، وقد أخبر أنّ أحدهما باء بها؛ فلو خرج أحدهما عن الإ سلام بالكلية لم يكن أخاه، بل فيه كفرٌ غير أن هذا الكفر لا شك كما سبق أن قلت: من الكفر الأصغر وليس من الكفر الأكبر.

ومن ألفاظ الكفر أيضًا: التي وردتْ على بعض المعاصي والكبائر، التي لا يخرج من فعلها من الإ سلام: الطّعنُ في الأنساب، والنّياحة على الميت، وقِتَالُ المُسلم للمسلم، والحلف بغير الله -تبارك وتعالى- فقد ورد مثلًا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت))، وقال صلى الله عليه وسلم: ((سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر))، وقال صلى الله عليه و سلم: ((لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض))، وقال أيضًا: ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)).

فلفظُ الكفر الوارد في هذه الأحاديث محمولٌ -كما ذهب أهل السنة إلى ذلك- على الكفر الأصغر، ومما يَدُلّ على ذلك في شأن الطعن في الأنساب، والنّياحة على الميت: ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنّ النّبي صلى الله عليه و سلم قال: ((أربعٌ في أُمّتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخرُ في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة))، وقال: ((النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب)) ورواه الترمذي بلفظ ((لن يدعهن الناس)). وعند أحمد: ((ليسوا بتاركيهن)).

فإخباره صلى الله عليه وسلم بأنّ هذه الأعمال باقية في أمته لا يتركونها، دليل على أنها من الكفر الذي لا يُخرج عن الملة، ولا يسلبُ فاعلها شرف انتسابه إلى أمة النبي صلى الله عليه و سلم لقوله صلى الله عليه وسلم: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية)).

وأيضًا فالنبي صلى الله عليه و سلم ثبت عنه أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه، وهو صحابي جليل من صحابة صلى الله عليه و سلم، قال له صلى الله عليه و سلم: ((إنك امرؤ فيكَ جَاهِلِيّة)) وكونُه فيه جاهلية لا يَخْرُج بذلك عن الإســـلام؛ بل هو من خيارٍ أهل الإيمان رضي الله عنه. كما دَلّ الدليل أيضًا من كتاب الله سبحانه وتعالى على أن قتال المسلم للمسلم لا يُخرج من الملة، رغم أن النبي صلى الله عليه و سلم قال:((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)). فلفظ الكفر هنا مراد به الكفر الأصغر، الذي لا يخرج الإنسان به من الملة إن: وقع في شيء من ذلك.

وقد دلَّ القرآن الكريم على هذا كما في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: 9]، وقال جل في عُلاه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 178]. فأثبت هنا الأخوة الإيمانية للمُتَقاتِلين؛ فَدَلّ على أن القتل والقتال ليسا من الكفر الذي ينقل عن الملة؛ لأن الله -تبارك وتعالى- في الآية الأولى قال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾ فأطلق عليهم أسم الإيمان مع أنهم قد وقعا في الاقتتال؛ كما أنه سبحانه وتعالى في الآية الثانية قال: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ

شَيْءٌ ﴾ فسمى القاتل أخ للمقتول، ولا شك أن المراد بذلك هو أخوة الدين بلا ريب؛ فدل ذلك على أن الاقتتال الواقع بين أهل الإيمان لا يُخرج من الملة، وتُحمل الأحاديث التي ورد فيها إطلاق لفظ الكفر على أنه هو الكفر الأصغر.

أما في شأن الحَلِف بغير الله الذي سبق أن ذكرت حديثه، وهو في الترمذي، والذي قال فيه النبي صلى الله عليه و سلم: ((من حلف بغير الله؛ فقد كفر أو أ شرك)) هذا الحديث أخرجه الترمذي، وقال رحمه الله –تبارك وتعالى– في سننه بعد ذكره لهذا الحديث: قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وفُسّر هذا الحديث عند بعض أهل العلم أنّ قوله صلى الله عليه و سلم: ((فقد كفر، أو أ شرك)) على التغليظ، والحُجّة في ذلك: حديثُ ابن عمر أن النبي صلى الله عليه و سلم سَمِعَ عُمر بن الخطاب ر ضي الله عنه يقول: وأبي وأمي؛ فقال صلى الله عليه وسلم: ((ألا إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم)).

وحديث أبي هريرة ر ضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: ((من قال في حلفه: واللآت والعزى فليقل: لا إله إلا الله)). قال أبو عيسى –رحمه الله– هذا مثل ما روي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: ((إن الرياء شرك))، ومعلوم أن يسير الرياء الذي هو من الشرك، لا يخرج العبد به من الإسلام؛ فكذلك لا يَخرجُ بالحَلِفِ بغير الله؛ وإن كان كبيرة من الكبائر لا يخرج به عن الإيمان.

وقَد بَيّن هذا المعنى الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام –رحمه الله تبارك وتعالى– فقال: "وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك، ووجوهما بالمعاصي؛ فإن معناها عندنا ليست تُثبت على أهلها كفرًا ولا شركًا، يُزيلان الإيمان عن صاحبه؛ إنما وجوهها أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون". ثم قال –رحمه الله: "والأصل الذي اعتمده أهلُ السُّنة في هذا الباب: أنّ الرَّجُل قد يَجْتَمِعُ فيه كفر وإيمان، وشركٌ وتوحيد، وتقوى وفجور،

ونفاق وإيمان، وهذا من أعظم أصـــول أهل الســـنة، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية".

ومسألة خروج أهل الكبائر من النار، وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل، وأعتقد أن هذا واضح غاية الوضوح، وفي هذا أيضًا يقول الإمام الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين –رحمه الله تبارك وتعالى– في شـــرحه لحديث: ((اثنتان في الناس هما بهما كفر)) قال رحمه الله: في قوله: ((كفر)) "أي: هاتان الخصـــلتان كفر، ولا يلزمُ من وجود خصـــلتين من الكفر في المؤمن أن يكون كافرًا، كما لا يلزم من وجود خصـــلتين في الكافر من خصـــال الإيمان: كالحياء، والشجاعة، والكرم أن يكون مؤمنًا".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تبارك وتعالى– في تعريفه للشرك الأصغر، ونحن نستفيد منه هنا قال: "كل عمل قولي أو فعلي، أطلق عليه الشرع وصف الشرك، ولكنه لا يُخرج من الملة، وذلك كالحلف بغير الله –تبارك وتعالى".

وليُعلم: أنّ ما سبقت الإشارة إليه من صور، سواء كانت من الشرك الأكبر أو الأصغر، كما جاء في الحديث أنّ الحَلِف بالله من الشرك الأصغر، قد يصير في بعض الحالات إلى لون من ألوان الكفر الأكبر، أو الشرك الأكبر، كما قال ابن عثيمين –رحمه الله–: "والحلِفُ بغير الله شرك أكبر، إذا اعتقد أن المحلوف به مساوٍ لله تعالى في التعظيم والعظمة، وإلا فهو شرك أصغر".

تنبيه: الأصل أن تُحمل ألفاظ الكفر والشرك الواردة في الكتاب والسنة، وخاصة التي عُرّف منها ما عُرّف بحرف الـــ على حقيقتها المطلقة، ومُسمَّاها المطلق، وذلك كونها مُخرجة من المِلّة حتى يجيء ما يمنع ذلك، ويقتضي الحمل على الكفر الأصغر أو الشرك الأصغر.

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن –رحمه الله تبارك وتعالى: "ولفظ الظُّلم، والمعصية، والفسوق، والفجور، والموالاة، والمعاداة، والركون، والشرك، ونحو ذلك من

الألفاظ الواردة في الكتاب والـ سنة، قد يُراد م سماها المطلق وحقيقتها المطلقة، وقد يُراد بها مطلق الحقيقة، والأول هو الأ صل عند الأ صوليين، والثاني لا يُحمل الكلام عليه إلا بقرينة لفظية أو معنوية، وإنّما يُعرف ذلك بالبيان النبوي، وتفسير السنة قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: 4]".

العنصر الثاني: خطورة التكفير وبيان أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان

أ. التكفير وخطورة الإسراع فيه:

إنّ التّكفيرَ أمرٌ خطير: وهو أنْ نُخرِجَ المُسْلِمَ من الإيمَان، ونُطلِقَ عليه كلمة الكفر، ومن هنا وجَبَ التّحذير منه، وبيانُ خطورته، والتحذير من الإ سراع فيه، والتكفير هو: الحكم على الإنـ سان بالكفر، وهذا الحُكم خطير لخطورة آثاره، ولذلك نهى الإ سلامُ عن التّعجيل به، وعن تقريره إلا بعد التّأكُدِ من وُجود أسبابه تأكيدًا ليس فيه أدنى شبهة، ولأن يخطئ الإنسان في العفو، خيرٌ من أن يُخطئ في العقوبة.

والكافر إذا أفلت من عقوبة الدنيا؛ فلن يُفلت بفـ ضل الله سبحانه وتعالى وقدرته وقوته من عقوبة الآخرة؛ فينبغي أن يُعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام، ودُخوله في الكفر، لا يجوزُ لمـ سلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان وا ضح أو ضح من شمس النهار. فقد ثبت في الأحاديث الـ صحيحة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: ((من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما))، وفي الصحيح: ((من دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدوَّ الله، وليس كذلك إلا حار عليه)). أي: رجع عليه.

ففي هذه الأحاديث وما شـــَابَهها أعظم زاجرٍ: عن الشـــروع في التكفير قال الله –تبارك وتعالى: ﴿ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا ﴾ [النحل: 106] ومعنى ذلك: أنّه لا بد من شرح الصدر بالكفر، ولا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد المشركين، ولا سيما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسلام، ولا اعتبار بصدور فعل كفري لم يُرد به فاعله قصد الكفر، أو الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفر، وذلك أن الإيمان والكفر مَحلُّهما القلب، ولا يَطّلع على ما في القلوب إلا رب العالمين سبحانه وتعالى، وليست كل القرائن الظاهرة تدل على ما في القلب، فأكثر دلالتها ظنيّة.

والإسلام نهى عن اتّباعِ الظنّ في أكثر من نصٍّ في القرآن الكريم، والسنة النبوية المُطهرة، وطلب الحُجة والبرهان على الدعوى وبخاصة في مسائل الاعتقاد وتطبيقًا لذلك: "نعى النّبيُّ صلى الله عليه وسلم على أسامة بن زيد قتله الرجل الذي ألقى إليه السلام"، وأمر الله –تبارك وتعالى– بالتبيّن في ذلك فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [النساء: 94]

فقد كرر الله سبحانه وتعالى في الآية الأمر بالتبيين لأهميته، ولم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم اعتذار أسامة، وقال له: ((هَلّا شَقَقت عن قلبه))، ولقد تأثر أسامة رضي الله عنه من هذا الفعل الذي فعله، وخاصة بعد أن بيَّن له النبي صلى الله عليه وسلم جُرم ما فعل، كما أنه صلى الله عليه وسلم غَضِبَ بهذا التصرف ولم يرضَ به.

ولِهذا أقولُ: يَنْبَغِي أنْ يُعلم أنّ الكَافِرَ الحَقِيقيّ هو الذي انعقد قلبه على الكفر واقتنع به، ولا شبهة: له كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أي: اقتنع به وا ستراح له؛ فحتم على كل مسلم ألا يُطلق كلمة الكفر إلا على من شرح به صدره.

وقد قال الإمام القرطبي –رحمه الله– في تف سيره ل سورة الحجرات عند قول الحق –تبارك وت عالى– ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: 2]، قال: "بمو جب أن يكفر الإنسان، وهو لا يعلم فكما أن الكافر لا يكون مؤمنًا إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافرًا من حيث لا يقصد الكفر ولا يختاره بالإجماع".

والذي يَنْبغي أن نُؤصله: هنا: أنّ الحُكم بالكفر على إنسان ما، حكمٌ جدٌّ خطير؛ لما يترتب عليه من آثار هي غاية في الخطر، ومنها: أنه لا يحل لزوجته البقاء معه، أو يجب أن يفرَّق بينها وبينه؛ لأن المسلمة لا يصحُّ أن تكون زوجة لكافر بالإجماع المتيقن.

وأيـ ًضا يترتبُ على ذلك أنّ أولاده لا يجوز: أن يبقوا تحت سلطانه؛ لأنه لا يُؤمَن عليهم، ويُخشى أن يؤثر عليهم بكفره، وبخاصة أن عودهم لين، وهم أمانة في عُنق المجتمع الإسلامي كله، كما أنه فقد حق الولاية والنصرة على المجتمع الإسلامي بعد أن مرق منه، وخرج عليه بالكفر الصريح والرّدة البواح، ولهذا يجب أن يقاطع، ويُفرض عليه حصار أدبي من المجتمع؛ حتى يفيق لنفسه، ويثوب إلى رشده، وأنّه يجب أن يُحاكم أمام القضاء الإسلامي؛ لينفُذ فيه حكم المرتدِّ بعد أن يستتيبه، ويزيل من ذهنه الشبهات، ويقيم عليه الحجة.

وأنه إذا مات لا تجري عليه أحكام الم سلمين: فلا يُغ سل، ولا يُ صلّى عليه، ولا يُدفن في مقابر المســـلمين، ولا يُورَث، كما أنه لا يرث إذا مات وارث له، وأنه إذا مات على حاله من الكفر، يستوجبُ لعنة الله وطرد الله سبحانه وتعالى له من رحمته، كما يستوجبُ الخلود

الأبدي في نار جهنم –والعياذ بالله تبارك وتعالى، وهذه الأحكام الخطيرة تُوجب على من يتصدَّى للحكم بالتكفير أن يتريَّث مرات ومرات قبل أن يقول ما يقول.

وإذًا؛ فليحذر الواهمون الذين يوزعون الكفر على المسلمين من غير بينة، ويتهمونهم بالخروج على الإيمان من غير دليل، سِيّما بعد أن شهدوا شهادة الحق، ونطقوا بكلمة التوحيد، كما يَجِبُ التّفْرِقةُ بين كفر النوع والشخص المعين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تبارك وتعالى–: "إنّ القول قد يكون كفرًا، فيطلق القول بتكفير صاحبه، ويُقال: من قال كذا فهو كافر"، لكن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره؛ حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، وهذا كما في نصوص الوعيد فإن الله –تبارك وتعالى– يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: 10]

فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق، لكن الشّخص المُعين لا يُشهد عليه بالوعيد؛ فلا يُشهد لمعينٍ من أهل القبلة بالنار، لجواز ألا يلحقه لفوات شـــرط أو ثبوت مانع، فقد لا يكون التحريمُ بلغه، وقد يتوب من فعل المُحرم، وقد تكون له حسنات عظيمة، تمحو عقوبة ذلك الأمر المُحرم الذي وقع فيه، وقد يُبتلى بمصائب تُكَفّر عنه ذنوبه وسيئاته، وقد يَشفَعُ فيه شفيع مطاع؛ فيقبل الله –تبارك وتعالى– منه الشفاعة.

وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها بها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد يكون عنده هذه النصوص، ولكنها لم تثبت عنده، أو لم يتمكَّن من فهمها، وقد يكون عرضتْ له شُبهات يعذره الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهدًا في طلب الحق، وأخطأ فيه؛ فإن الله –تبارك وتعالى– يغفر له خطأه كائنًا ما كان، سواء كان هذا في المسائل النظرية أو العملية، وهذا هو الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجماهير أمة الإسلام.

ولهذا، فإنني أؤكد في هذا المقام على التفرقة بين تكفير معين، وإطلاق التكفير على من فعل شيئًا من الذنوب والمعاصي وهكذا. فمن فعل شيئًا من الكبائر، أو حتى من الأمور التي يرى الإنســـان أن فاعلها يخرج بفعله إيَّاها من الإيمان إلى الكفر، على الإنســـان أن يتريَّث هذا الفاعل، وألا يُطلق عليه لفظ الكفر إلا بعد إقامة الحجة عليه التي يـ صير بها كافرًا، أو ظالمًا، أو فاسقًا. على حسب ما وصل إليه الأمر من ذلك.

فإطلاق كلمة الكفر عمومًا على هذه المعا صي لا تُلزم أحدًا أن يخرج أحدًا من الملة إذا فعل شيئًا من هذه الموبقات؛ لأننا لا نعلم بتحقق الـ شروط فيه، أو وجود مانعٍ: يمنع من لحوق الوعيد به، ونحن نقول: بأن هذه من آيات الوعيد بلا شـــك، إلا أننا لا نُرتب التكفير على فاعلها إلّا بعد أن نتبين في ذلك غاية التبين؛ لأن الأمر كما ذكرتُ قد لا يكون التحريم للفعل الذي فعله الفاعل، قد و صل إليه، أو أنه قد يكون وقع فيه بعد أن و صل إليه؛ ولكنه تاب منه ورجع، وتاب الله –تبارك وتعالى– عليه.

وحا صل القول: أن المـ سألة خطيرة للغاية؛ فلا ينبغي لمُـ سلم أن يُقدم على ألفاظ التكفير إلا بعد أن يتبيَّن غاية التبين، وألا يَنطق بكلمة الكفر على أحد، إلا إذا تحققت فيه الشـــروط، وانتفت عنه الموانع، وليســـلم المؤمن من أن يرمي أخاه المؤمن بهذه الألفاظ حتى لا يرجع شيءٌ: منها إليه.

بيان أن الرجل قد يجتمع فيه كفرٌ وإيمان:

لا بد من بيان ذلك، لأن البَعض قد يرى إنســـان ما يقع في الكفر فيقول: بأنه ليس عنده شيء من الإيمان، وهذا خطأ بيِّن؛ فالإنسان قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وفي هذا يقول الإمام ابن القيم –رحمه الله تبارك وتعالى–: "الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشـــركٌ وتوحيد،

وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان، وهذا من أعظم أ صول أهل ال سنة، وخالفهم فيه أهل البدع كالخوارج والمعتزلة، والقدرية". ومسألة خروج أهل الكبائر من النار، وعدم تخليدهم فيها مبنية على هذا الأ صل، وقد دلَّ عليه القرآن الكريم، وال سنة المطهرة، والفِطرةُ ال ّسليمة وإجماع الصـــحا بة، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: 106].

فأثبت لهم إيمانًا به سبحانه مع ال شرك به، يعني: أن الله أثبت لهم الإيمان في قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ ﴾ إلا أنه أخبر أنّه مع هذا الإيمان، وقع منهم لون من ألوان الشرك.

وقال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات: 14]، فأثبت رَبُّ العالمين سبحانه وتعالى لهم في الآية إ سلامًا وطاعة لله ولر سوله صلى الله عليه وسلم مع نفي الإيمان عنهم، وهو الإيمانُ المطلق الذي يستحقُّ اسمه بإطلاق.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: 15] وهؤلاء ليســـوا منافقين في أ صح القولين، بل هم م سلمون بما معهم من طاعة الله وطاعة ر سوله صلى الله عليه و سلم، وليسُوا مؤمنين، وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفر والكفار، والعياذ بالله تعالى.

قال الإمام الرباني أحمد بن حنبل -رحمه الله تبارك وتعالى: "من أتى هذه الأربعة أو مثلهن، أو فوقهن -يُريد: الزنا، والسرقة، و شرب الخمر، والانتهاب- فهو م سلم ولا أسميه مؤمنًا، ومن أتى دون ذلك -يريد دون هذه الكبائر- سميته مؤمنًا ناقص الإيمان، وقد دَلّ على هذا

قوله – صلى الله عليه وآله سلم: ((فمن كانت فيه خ صلة منهن؛ كانت فيه خ صلة من النفاق)).

هذه الجملة من كلامه صلى الله عليه و سلم تدل على أنه يجتمع في الرجل نفاق وإ سلام، وكذلك الرياء شرك، فإذا راء الرجل في شيء من عمله؛ اجتمع فيه الشرك والإ سلام، وإذا حكم بغير ما أنزل الله –تبارك وتعالى– أو فعل ما سماه الر سول صلى الله عليه و سلم كفرًا، وهو مُلتزم للإ سلام و شرائعه؛ فقد قام به كفر وإسلام، والمعا صي شعب الكفر، والطاعاتُ شعبُ الإيمان". انتهى كلام الإمام ابن القيم رحمه الله –تبارك وتعالى– وهذا الكلام موجود في كتاب الصلاة له.

كما قال أيضًا –رحمه الله تبارك وتعالى– موضحًا أكثر هذه المسألة الدقيقة التي خفيت على كثيرين قال: "من كان فيه ُشعبة من الإيمان لا يـ صير بها مؤمنًا، ومن كان فيه شعبة من شعب الكفر لا يصير بها كافرً:، وإن كان ما قام به كفرًا، كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يُسمى عالمًا، ولا من معرفة بعض المسائل في الفقه والطب أن يُسمَّى فقيهًا ولا طبيبًا، ولا يمنعُ ذلك أن تسمى شعب الإيمان إيمانًا، و شُعب النفاق نفاقًا، و شعب الكفر كفرًا.

وقد يُطلق على الفعل كفر، كقوله صلى الله عليه و سلم: ((من تركها فقد كفر)). و((من حلف بغير الله فقد كفر)). فمن صدر منه خلة من خلال الكفر؛ فلا يـ ستحقُّ ا سم كافرٍ على الإطلاق، حتى ولو أُطلقت كلمة الكُفر على الفعل الذي فعله. وكذا يُقال لمن ارتكب محرمًا: أنه فعل فـ سوقًا لا أنه فـ سقَ بذلك المحرم، ولا يلزمه ا سم فا سق إلا بغلبة ذلك عليه، وهكذا ا سم الزاني والسارق، والمنهب، لا يسمى مؤمنًا وإن كان معه إيمان، كما لا يُسمى كافرًا، وإن كان ما أتى به من خـ صال الكفر؛ إذ المعا صي كلها من شُعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شُعب الإيمان".

ولذلك أهل الـ سنة والجماعة –رحمهم الله تبارك وتعالى– يُطلقون على مرتكب الكبائر من الإيمان بأنه مسلم عاصٍ، أو مؤمنًا بإيمانه، مرتكب لكبيرة عظيمة ارتكبها، ولذلك قالوا عنه: بإنه فاسق بكبيرته.

وبناءً على ما تقدم بيانه أذكر هنا قاعدة عظيمة على طالب العِلم أن يفقهها وهي: "أنّ أَهلَ الـ سُّنة والجماعة –رحمهم الله تبارك وتعالى– ذهبوا إلى أن المؤمن قد يقع: مع إيمانه في بعض شعب الجاهلية أو النفاق، ولا يخرجُ بذلك عن الإيمان"، وقد تَرجم الإمام البخاري –رحمه الله تبارك وتعالى– لهذه المسألة في صحيحه، ترجم لها بباب قال فيه: "باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها إلا بارتكابها إلا الـ شرك". لقول النبي صلى الله عليه و سلم: ((إنك امرؤ فيك جاهلية)).

وقد قال الإمام الحافظ ابن حجر –رحمه الله تبارك وتعالى– في شـــرحه لهذا الحديث، ولهذا الباب كما في (فتح الباري): "إنّ كُلّ معصية تُؤخذ من ترك واجب، أو فعل محرم؛ فهي من أخلاق الجاهلية، والشرك أكبر المعاصي ولهذا استثناه".

وأما قصة أبي ذر رضي الله عنه فإنما ذُكرت ليُستدل بها على أن من بقيت فيه خصلة من خصال الجاهلية سوى الشرك لا يَخرجُ عن الإيمان بها، سواء كان من الصغائر أم من الكبائر، ثم قال –رحمه الله: "وهذا واضح".

وقال الإمام ابن تيمية –رحمه الله تبارك وتعالى– في سياق بيانه لهذه المسألة: العظيمة: "وتمام هذا أنّ الإنسانَ قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان، وشعبة من شعب النفاق، وقد يكون مسلمًا وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الإسلام بالكلية، كما قال الصحابة رضي الله عنهم كابن عباس وغيره: كفر دون كفر". وهذا قول عامة السلف.

وطوائف أهل الأهواء من الخوارج والمعتزلة والجهمية والمرجئة، يقولون: "إنه لا يجتمع في العبد إيمان ونفاق، بل الخوارج والمعتزلة طردوا هذا الأصل الفاسد، وقالوا: لا يَجْتَمعُ في

الشّخص الواحد طاعة يستحق بها الثواب، ومعصية يستحق بها العقاب، ولا يكون الشّخصُ الواحد محمودًا من وجه، مذمومًا من وجه، ولا محبوبًا مدعوًّ: له من وجه، مسخوطًا ملعونًا من وجه، ولا يتصوَّر أن الشخص الواحد يدخل الجنة والنار جمعيًا عندهم، بل من دخل إحداهما لم يدخل الأخرى عندهم، ولهذا أنكروا خروج أحد من النار، أو الشفاعة في أحد من أهل النار".

وأما أهل السنة والجماعة، والصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر طوائف المسلمين من أهل الحديث والفقهاء، وأهل الكلام من مرجئة الفقهاء، والكرامية والكُلابية، والأشعرية والشيعة، مرجئهم وغير مرجئهم، فيقولون: "إنّ الشخص الواحد قد يُعذبه الله بالنار، ثم يُدخله الجنة، كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم"، وعلى هذا الأصل فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر، ومعه إيمان أيضًا، وعلى هذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في تسمية كثير من الذنوب كفرًا، مع أن صاحبها قد يكون معه أكثر من مثقال ذرة من إيمان، فلا يُخلد في النار.

وخلاصة القول في ذلك: أن التّكفير في غاية من الخطورة، وأن إطلاقه على بعض الناس قد يعود على المطلق بشيء من الإثم –والعياذ بالله تبارك وتعالى، إلى جانب ما قرَّره أهل السنة في ذلك: أن الإنسان لا يَسلمُ من معاصي الجاهلية، وبعض الأمور التي يرتكبها، ويُطلق عليها بأنها من الكبائر، إلا أنه لا يخرج بها عن الإسلام؛ لأن عنده إيمان، وارتكاب الكبائر تكون من الشيطان، كما هو معلوم، فإذا تاب الإنسان ورجع منها غفر الله له، إن قبل توبته، وإلا فأمره بين يدي الله سبحانه وتعالى، وإن شاء غفر له، وإن شاء عذبه بذنبه.

الدرس الرابع: كلمة التوحيد: فضلها، وشروطها، ومعناها – وما يضاد التوحيد (1)

عناصر الدرس

العنصر الأول: فضل كلمة التوحيد وذكر شروطها

العنصر الثاني: توضيح معنى كلمة التوحيد

العنصر الثالث: ذكر ما يُضاد كلمة التوحيد " الأول الكفر"

العنصر الأول: فضل كلمة التوحيد وذكر شروطها

أ. فضل كلمة التوحيد:

كلمة التوحيد هي: "لا إله إلا الله"، هذه الكلمة المباركة هذه الكلمة العظيمة، فضـــلها عميم، فضلها عظيم، فضلها كبير، وبيان ذلك في هذه النقاط.

أولًا: أنه من أجلها خلق الله سبحانه وتعالى الخلق كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56]، ومن أجلها أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل كما قال في كتابه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: 36]، فالله سبحانه وتعالى كما أخبر أرسل في كل أمة رسولًا؛ من أجل هذه الكلمة العظيمة التي تُبيِّن انفرَاد الله سبحانه وتعالى بالإلوهية والوحدانية، وأنه لا يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى جلَّ في علاه.

وقد جاءت آية في كتاب الله سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء تنصُّ على هذه الكلمة بعينها، وتُبيِّن أن جميع المُر سلين الذين: أر سلهم رب العالمين سبحانه وتعالى أر سلهم وأوحى إليهم بوجوب أن يتحدثوا، وأن يُخبروا، وأن يدعوا إلى: هذه الكلمة: "لا إله إلا الله"، كما قال تـ عالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 25]، و"لا إله إلا الله" وكلمة التوحيد هي ق ضية الق ضايا، والأ ساس الأول في الدين، ومن هنا قال رب العالمين: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: 23].

ق ضى رب العالمين سبحانه وتعالى وبيَّن، وأراد دينًا و شرعًا أن يُعبد وحده دون سواه، ولذلك أمر في آيات كثيرة بتحقيق التوحيد، وذلك يكون بعبادته وحده مُظهرًا هذا العابد أنه "لا إله إلا الله"، فقال –تبارك وتعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾ [النساء: 36]، وكلمة "لا إله إلا الله" هي حق الله على العباد، كما في الحديث الذي جاء عن معاذ بن جبل ر ضي الله عنه قال: "كنت رديف النبي صلى الله عليه و سلم على حمار فقال لي: ((يا معاذ، أتدري: ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يـ شركوا به شيئًا، وحق العِباد على الله ألا يُعذب من لا يُشرك به شيئًا؛ قلت: يا ر سول الله صلى الله عليه و سلم أفلا أبـشر الناس؟ قال: لا تُبشرهم فيتَّكلوا)).

وهذا من فضلها وكفى به فضلًا أن يكون إذا قام العابد لربه سبحانه وتعالى ومولاه بتحقيق هذه الكلمة العظيمة، أن يَغفِرَ اللهُ له، وأن يُدخله جنَّته، كما قال رَبُّ العالمين سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 48].

فقد بيَّنت هذه الآية الكريمة فضل هذه الكلمة العظيمة، وأنّ أهلَ التّوحيد يدخلون تحت م شيئة رب العالمين – سبحانه، وذلك لو ارتكبوا ما ارتكبوا من المعا صي والآثام، أما من خرج على هذه الكلمة و لم يحققها، و لم يأت بها؛ فليس له عند ربه عهد ولا غفران لذنب، فالله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه أنه لا يغفر لـ شرك أبدًا، لم يُحقق التوحيد لرب العالمين سبحانه. وخالف هذه الكلمة العظيمة لا إله إلا الله.

كما أن الله سبحانه وتعالى كتب الأمن والسلامة والأمان لمن قال هذه الكلمة العظيمة؛ فقال في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]. المراد بكلمة "بظلم" هنا أي: بشرك، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ في الآخرة، ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ في الدنيا؛ فمن جاء بلا إله إلا الله، ولم يقع في الشرك؛ فهو الآمن في الآخرة الذي قد هُدي في هذه الحياة الدنيا.

كما جاء في فضل هذه الكلمة العظيمة أنها السبيل إلى الجنة، الطريق إلى الجنة، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ شَهِدَ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأنّ عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنّار حَقّ؛ أدخله الله الجنة، على ما كان من العمل)).

فقد بيَّن هذا الحديث العظيم أيضًا شيئًا من فضائل هذه الكلمة، وأنها هي الطريق إلى الجنة؛ لأن من شهد لله سبحانه وتعالى بها، وأتى بمقتضاها من الإيمان والشهادة بالنبوة للنبي صلى الله عليه وسلم، كما شهد أن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وأيقن بأن الجنة حق، وأن النار حق؛ أدخله الله -تبارك وتعالى- الجنة على ما كان من عمل عنده وقع فيه، أو تقصير قصّرَ فيه.

كما أنه من فضل هذه الكلمة العظيمة: أنّ صاحبها يُحرَّم على النار، كما في حديث عتبان، وهو في البُخَارِيّ ومسلم: "أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله حرَّم على النار، من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)).

ومِمّا ورد في فضل كلمة التوحيد، ما جاء عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه، عن رَسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((قال موسى عليه السلام لربه: يا رب، علمني شيئًا

أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موســـى: لا إله إلا الله، قال: يا رب، كل عبادك يقولون هذا؛ فقال الله له: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهنَّ غيري، والأراضين السبع في كفَّة، ولا إله إلا الله في كفَّة، مالت بهنّ لا إله إلا الله)).

وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي –رحمه الله تبارك وتعالى، عن أنس ر ضي الله عنه قال: "سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((قال الله تعالى: يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تـ شرك بي؛ لأتيتك بقرابها مغفرة))، وعن جابر ر ضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن لقي الله لا يُشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يُشرك به شيئًا دخل النار، وكل ذنب دون الشرك يهون)).

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أتاني جبريل؛ فبشَّرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا؛ دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق! قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق! قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق! قال: وإن زنى وإن سرق، و شرب الخمر)) يعني: كررها النبي صلى الله عليه و سلم ثلاث، مرات وفي رواية لأبي ذر ر ضي الله عنه: ((وإن زنى وإن سرق رغم أنف أبي ذر)).

فكان أبو ذر يقول ذلك بعد تمام الحديث، وهذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

كمَا قال صلى الله عليه و سلم مبينًا فضل هذه الكلمة العظمية، ومكانتها قال: ((أ شهدُ أن لا إله إلا الله، وأني: ر سول الله صلى الله عليه و سلم لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ، فيحجب عن الجنة)). وقال صلى الله عليه و سلم: ((من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حرمه الله على النار)).

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة يطول ذكرها، وأحاديث هذا الباب نوعان:

أحدهما: ما فيه أنّ من أتى بالشهادتين دخل الجنة، و لم يُحجب عنها، وهذا ظاهر، فإن النار لا يُخلّد فيها أحدٌ من أهل التوحيد الخالص، وقد يدخل الجنة، ولا يُحجب عنها إذا طهر من ذنوبه بالنار. وحديث أبي ذر الغفاري ر ضي الله عنه معناه: أن الزنى وال سرقة لا يمنعان دخول الجنة مع التوحيد، وهذا حقٌّ لا مرية فيه، وليس فيه أنه لا يُعذب عليهما مع التوحيد، فهذه معاصٍ وذنوب قد يُعذب فاعلها بارتكابها، إلا أنه إذا عذَّبه الله و لم يغفر له ابتداءً، وأدخله: النّار إلا أنه ينجو، ويخرج منها بما معه من إيمان، وعلى رأس ذلك هذه الكلمة العظيمة لا إله إلا الله.

أما النوع الآخر الذي بينته هذه الأحاديث: ما جاء فيه أنه يُحَرّم على النّار، وقد حمله بعضـــهم على الخلود فيها، أو على ما يُخَلّد فيها أهلها، وهي ما عدا الدرك الأعلى، فإن الدرك الأعلى يدخله كثير من الموحدين من عُصاهم بذنوبهم، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين، وبرحمة أرحم الراحمين سبحانه.

وفي ال صحيحين: أن الله تعالى يقول: ((وعزَّتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي، لأُخرجنَّ منها -أي: من النار- من قال: لا إله إلا الله)). و قالت طائفة من العلماء: المراد من هذه الأحاديث: أنّ "لا إله إلا الله" ســـببٌ لدخول الجنة، والنجاة من النار، ومقتضٍ: لذلك، ولكنّ المُقت ضي لا يعمل عمله إلا با ستجماع شروطه، وانتفاء موانعه؛ فقد يتخلّفُ عنه مقت ضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع، وهذا قول الح سن، ووهب بن منبه، وهو الأظهر.

وقال الح سن بن أبي الح سن الب صري للفرزدق، وهو يدفن امرأته: "ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة لا إله إلا الله منذ سبعين سنة، قال: الحسن نعم العُدة، لكن للإله إلا الله إلا الله

شروطًا؛ فإيَّاك وقذف المحصنات". وقيل للحسن: "إن أناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة، فقال الحسن: من قال: لا إله إلا الله، فأدَّى حقها وفرضها؛ دخل الجنة"، وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس مُفتاح الجنة: لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان؛ فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك".

هذا، ومن فضائل كلمة "لا إله إلا الله"، وفضائلها كثيرة عظيمة لا يُمكن هنا أن نستقصيها أنها هي "كلمة التقوى"، وأنها هي كلمة الإخلاص، وهي شهادة الحق، وهي دعوة الحق، وهي براءة من الشرك، ونجاة هذا الأمر؛ ولأجلها خلق الله سبحانه وتعالى الخلق؛ ولأجلها أُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، وهي من أفضل النعم؛ ولأجلها أُعدت دار الثواب، ودار العقاب، ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد، فمن قالها عصم ماله ودمه، ومن أباها فماله ودمه حلال، وهي مفتاح الجنة، ومفتاح دعوة الأنبياء والمرسلين؛ فما من نبي ورسول جاء إلى قومه إلا أمرهم بهذه الكلمة العظيمة، وبها كلّم الله -تبارك وتعالى- موسى كفاحًا.

وينبغي أن يُعلم، وأن أبشر إخواني وأمتي عن فضل هذه الكلمة بكلمة عظيمة أقول فيها: "إنّ من كانت آخر كلامه "لا إله إلا الله" دخل الجنة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من كان آخرُ كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة))، وهي أيضًا نجاة: من النار، وهي تُوجب المغفرة، وهي أحسن الحسنات، وهي تمحو الذنوب والخطايا، وهي تجدِّد ما درس من الإيمان في القلب، وهي التي لا يُعادلها شيء في الوزن والخطايا؛ فلو وُزنت بالسماوات والأرض لرجحت بهنَّ.

وكذلك هي التي ترجح في صحائف الذنوب، كما في حديث السجلات والبطاقة، والذي جاء فيه: ((يُصاح برجل من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة؛ فيُنشر له تسعة وتسعون سجلًّا: كل سجل منها مدَّ البصر، ثم يُقال لهذا الرجل: أتنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا، فيقال له: أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول له: لا؛ فيخشى الرجل على نفسه، ثم يقول الله

له: إنه لا ظُلم عليك اليوم، إن لك عندنا حسنة؛ فتأتي بطاقة فيها "لا إله إلا الله"، وتوضع في الكفة الأخرى في الميزان؛ فتثقل البطاقة التي فيها "لا إله إلا الله، وتطيش سائر السجلات، ثم يقول صلى الله عليه وسلم: ولا يثقل مع اسم الله -تبارك وتعالى- شيء)). فدل هذا بوضوح على فضل هذه الكلمة، وأنه لا يعادلها شيء.

ب. شروط كلمة التوحيد:

هذه الكلمة العظيمة لا بد أن أُبين الشـــروط التي ذكرها أهل العلم؛ حتى ينتفع بها قائلها، لأنه لا بد من الالتزام بشروط كلمة "لا إله إلا الله"؛ حتى يستفيد منها صاحبها، وحتى ينال الفضل الذي سبق أن ذكرته قبل قليل، وقد ذكر العلماء -رحمهم الله تبارك وتعالى- أنّ لها شروطًا سبعة؛ لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط.

وأقول أولًا: ينبغي أن نعلم أنه ليس المراد من هذا عدُّ ألفاظها، يعني: عد ألفاظ هذه الشروط فكم من عامي اجتمعت فيه هذه الشروط، والتزمه: ولو قيل له: اعددها لم يحسن ذلك، وكم من حافظٍ: لألفاظها، عارف لها، يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيرًا فيما يناقضها، والتوفيق بيد الله -تبارك وتعالى، وقد ســـبق أن ذكرت ما قاله وهب بن منبه -رحمه الله- عمن يقول: "لا إله إلا الله" وأنها مفتاح الجنة، وقد ذكر أن لكل مفتاح أســـنان، فلا بد أن يأتي الإنسان بأسنان هذه المفاتيح؛ حتى تُفتح له الجنة، وأسنان هذا المفتاح: " شروط لا إله إلا الله" وهي كما يلي:

الشرط الأول: العِلْمُ بمعناها:

المُراد منها نفيًا وإثباتًا، المُنافي للجهل بذلك، قال الله –تبارك وتعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: 19]. وهذه كلمة عظمية، وأمر كريم من الله سبحانه وتعالى للنبي صلى الله عليه و سلم وأمته تَبَع له في ذلك؛ ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، ولذلك قد أحسن الإمام البخاري –رحمه الله تبارك وتعالى– عندما عقد في جامعه الصحيح بابًا لهذه الآية عَنْوَنَ له بقوله: " باب العلم قبل القول والعمل" ثم قال: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ فدلَّ ذلك على أن العلم على رأس هذه الشروط، العلم بمعنى هذه الكلمة، العلم بمراد هذه الكلمة، وبما تقتضيه نفيًا وإثباتًا؛ حتى يكون العمل صحيحًا.

وقد قال الله –تبارك وتعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 18]، وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ((من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله؛ دخل الجنة)) قال: ((من مات وهو يعلم)) فلا بد من العلم، ((دخل الجنة)). كما أخبر رسول الهدى صلى الله عليه وسلم، وخبره حق وصدق.

الشرط الثاني: اليَقينُ المنافي للشكّ:

ومعنى ذلك: أن يكون قائلها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة، يقينًا جازمًا، لا يكون عنده أدنى شك في هذا اليقين؛ فإن الإيمانَ لا يُغني فيه إلا العلم، وعلمُ اليقين على وجه التحديد لا علم الظن، قال الله –تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ

وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: 15].

ولعلنا نلاحظ في هذه الآية أنّ الله سبحانه وتعالى حصر المؤمنين فيمن آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم لم يكن عنده شك أو ارتياب في هذا الإيمان، هذا هو الذي ينفعه إيمانه، وتنفعه كلمة "لا إله إلا الله"، وقد اشترط هذا الشرط نبي الهدى والرحمة صلى الله عليه وسلم، اشترط في قائل هذه الكلمة اليقين المنافي للشك؛ ففي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما؛ إلا دخل الجنة)).

الشرط الثالث: القبولُ لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه:

وقد قصَّ الله سبحانه وتعالى علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها، وانتقامه: سبحانه وتعالى ممن ردّها وأباها، فالأنبياء والمرسلون، وعباد الله الصالحين لما قبلوا هذه الكلمة نجَّاهم رب العالمين سبحانه.

ومثال يسير جاء في القرآن الكريم لذلك، وهو عن ذا النون عليه السلام لما قال: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 87] استجاب الله –تبارك وتعالى– له دعوته؛ عندما قال هذه الكلمة، مظهرًا فقره واحتياجه، وقبوله لها؛ معظمًا ربّ العالمين سبحانه وتعالى بها، نجاه الله سبحانه وتعالى بها. كما أهلك الله سبحانه وتعالى من لم يقبلها وردَّها كفرعون، وكأبي جهل، وغيرهما من عُتاة المشركين والكفار.

الشرط الرابع: الانقياد لما دلَّت عليه هذه الكلمة:

ومعنى الانقياد لما دلَّت عليه هذه الكلمة: أن يترك الإنسان ما يُنافي هذه الكلمة، قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر: 54]، ومعنى الإنابه الانقياد والتسليم المطلق:، لكل ما جاء عن رب العالمين سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ [النساء: 125]، وفي الحديث الشريف الصحيح: ((لا يُؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به)) فهنا ينفي النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان عمن لم يَنْقَدْ له، ولما جاء به صلى الله عليه وسلم، ويُحذر أن يكون للإنسان ميلٌ: أو هوًى يُخالف ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

الشرطُ الخَامس: الصدق المنافي للكذب:

وهو أن يقولها صدقًا من قلبه، ويواطئ قلبه لسانه في ذلك؛ حتى لا يكون من المنافقين، قال الله سبحانه وتعالى ذاكرًا شيئًا من صفات المنافقين: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: 8].

فنفى الله سبحانه وتعالى عنهم: الإيمان هنا؛ لأنهم ليسوا بصادقين في هذه الكلمة العظيمة. وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه الحاكم، وغيره: "أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا يُصدِّق لسانه قلبه)).

الشرط السادس: الإخلاص:

والإخلاص هو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك، لربِّ العالمين سبحانه وتعالى جلَّ في علاه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: 3]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: 5]، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: ((أسعدُ الناس بشفاعتي من قال: "لا إله إلا الله" خالصًا من قلبه)). فالإخلاص إذًا شرط ضروري في العبادة؛ حتى تكون العبادة لله وحده دون سواه.

ولأن عدم الإخلاص يُوقع العبد في الشرك -والعياذ بالله تبارك وتعالى- فتصفية العمل، والتوجه إلى رب العالمين سبحانه وتعالى بالكلِّيَّة، وعدم ملاحظة غير الله سبحانه وتعالى أمر مهم للغاية، وهو شرط من شروط كلمة التوحيد، يُعَبّر عنه بالإخلاص.

الشرط السابع والأخير: هو المحبة لهذه الكلمة العظيمة:

والمحبة لما اقتضته هذه الكلمة، ولما دلت عليه ولأهلها العاملين بها، الملتزمين بشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ } [البقرة: 165]، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما، وأن يُحِبّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعودَ في الكفر كما يكرهُ أن يُقذف في النار)).

وعليه فمحبة أهل الإيمان، وأولياء الله سبحانه وتعالى مِن شروط هذه الكلمة العظيمة، ولهذا فليحذر العبد أن يبغض شيئًا مما جاء عن الله، أو عن رسول الله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، أو أن يكره شيئًا من هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

العنصر الثاني: توضيح معنى كلمة التوحيد

كلمة التوحيد: الشهادتان وهما أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعنى هاتان الشهادتان: أنّ كلمة "أشهد" في اللغة تأتي على ثلاث معانٍ، وقد استعملها القرآن بكلٍّ من المعاني الثلاثة؛ فهي تأتي أولًا بمعنى المشاهدة، أي: الرؤية، وهي قلبية أو بصرية أو علمية، قد تكون الرؤية بالقلب أو بالبصر -يعني: بالعين- أي: بالعلم. يعني: يقوم الأمر في ذهن الإنسان وعقله.

وقد استعملها القرآن الكريم بهذا المعنى؛ فقال تعالى: ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: 21]، والمعنى: أن الإنسان يرى بقلبه أن كل شيء له آية؛ تدل على أنه هو الواحد، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: 190-191].

وتأتي أيضًا بمعنى الشهادة، وتكون باللسان إقرارًا واعترافًا، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ [الطلاق: 2]، فأنت تقول: شهدتُ لفلانٍ، أو شهدت على فلان، وهذا هو دور اللسان، وقد يصدق الإنسان أو يكذب في هذا

الإقرار والاعتراف، والذي يحدد ماهية الأمر صدقه أم كذبه، إذًا المعنى الثاني لكلمة أشهد: الشهادة، وتكون باللسان. أما المعنى الثالث فتأتي بمعنى: الحلف واليقين؛ فكأنه إذا قال مثلًا: أشهد كأنه قال: أقسم وأوقن. وقد استعملها القرآن الكريم بهذا المعنى كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: 1- 2].

فاعتبر الله سبحانه وتعالى كلمتهم "نشهدُ" يمينًا، وإن كانوا قد كذبوا في ذلك، ولكن الله – تبارك وتعالى– شهد له يقينًا و صدقًا وعلمًا؛ وكفَى بالله شهيدًا، وقال فقهاء الحنفية: من قال: "أشهدُ" فقد حلف؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى شاهدًا لنفسه بهذه الكلمة العظيمة عندما لم يشهد بها المنافقون بصدق، قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾، وهذه المعاني الثلاث بينها ترابط تام؛ فالإنسان يحلف إذا شهد، ويشهد إذا شَاهَد.

وفي الحَديث ((على مثل الشمس فاشهد أو دَعْ)):؛ فهو يُشاهدُ بقلبه، ثم يشهد بلسانه، ثم يُوقن بذلك فيتمثَّل بجوارحه الأوامر، وينتهي عن النواهي، ومن هنا قال العلماء: "الشهادة إقرار بالجنان –ومعنى الجنان: القلب– وتلفظ باللسان، وعمل بالأركان". وعلى هذا؛ فشهادة الإنسان أنه "لا إله إلا الله" لا تُعتبر إلا باستجماع هذه المعاني جميعًا؛ هذا فيما عند الله سبحانه وتعالى يعني: أن تكون قائمة في قلب الإنسان، وأن يَنطِقَ بها بلسانه، وأن يتمثل ويقوم بأداء ما افترض رب العالمين سبحانه وتعالى عليه.

وأن يترك ما نهى الله –تبارك وتعالى– عنه، وإن ارتكب شيئًا من الآثام والمعاصي والمنكرات؛ فجزاؤه بمثل ما قدم، إلا أنه لا يخرج من الإيمان كما ذكرت، هذا عند الله. أما عند الناس: فإن مُجرد النُّطق بها يُحكم لصاحبها بالإسلام بناءً على الظاهر، يعني: لو أن إنسانًا نطق

أمامنا الآن بلا إله إلا الله حكمنا بإسلامه، ووكلنا سريرته إلى رب العالمين سبحانه، ولكن من قال هذه الكلمة بلسانه، لا تنفعه عند الله إلا إذا أقرَّ بقلبه، ونطق بها أيضًا : بلسانه، ولذلك إذا أيقن الإنسان بقلبه، ولم يُقرّ بلسانه؛ فلا ينفعه يقينه هذا، إلا إذا اتبعه بإقرار اللسان، وإلا فهو كمن قال الله فيهم: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: 14].

وهذا يُبين منهج المرجئة، أو غلاه المرجئة الفاسد الذين يقولون: بأن الإيمان ما قام في القلب، حتى ولو لم ينطق به الإنسان، فأهل الكتاب مثلًا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم ويعلمونه، ولكنهم يُنكرونه، ولم ينطقوا بلسانهم بالإيمان به؛ فلم ينفعهم هذه المعرفة التي قامت بقلوبهم، وقد قال الله عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 146]، فلن تغني عنهم معرفتهم، ولا عن أولئك يقينهم؛ حتى يتمَّ ذلك بالإقرار والشهادة باللسان، مُعْلَنَةً أمام الناس؛ حتّى يُحكم لهم بالإسلام.

وأما الّذي أقرّ بلسانِهِ، ولم يُؤمن بقلبه؛ فالشّهادة لا تنفعه كذلك؛ لأنه فيما عند الله يكون منافقًا يُظهر الإيمان، ويُبطل الكفر، وهذا أسوأ حالًا عند الله سبحانه وتعالى من الكافر الأصلي، ومن هنا قال الله -تبارك وتعالى- في المنافقين نفاقًا اعتقاديًّا: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: 145]، وصفاتهم كما بينها الله في القرآن الكريم في سورة "البقرة"، و"النساء" و"المائدة" و"التوبة" على وجه الخصوص والتفصيل، وفي غير هذه الصور على وجه العموم والإجمال.

أما عندنا: فنعامله معاملة المسلمين، كما كان فعله صلى الله عليه و سلم وفعل أصحابه أيضًا؛ حيث كانوا يأخذون من الناس الظاهر، ويكلون تولي السرائر إلى رب العباد جلَّ في علاه. وأما الذي آمن بقلبه وأقرَّ بلسانه، و لم يعمل بالأركان؛ فهو إما إنه تارك لها، غيرُ مقر بها، أو جاحدٌ لها أو مستهزئ بها، أو كاره لشيء منها، أو مؤمنٌ بشيء منها دون شيء، أو منكر لمعلوم من الدين بالضرورة، وأمثال هذا، فإنه لا تنفعه شهادته، ويكون حكمه بعد إقامة الحجة عليه أنه كفر بعد إيمانه، وارتدَّ بعد إسلامه.

هذا فيمن قال بأنه قام في قلبه هذا الإقرار، ثم أقرَّ بلسانه به، ولكنه جاحد أو مستهزئ، أو كاره. هذا لا يُعَدّ من أهل الإيمان، وهو لم يأتِ بِكَلمَة التوحيد على وجه الحقيقة، وأمّا إنْ كَان تاركًا لهذه الكلمة، مع الإقرار بجميعها والاعتراف بها، إلا أنه انشغل عنها، أو تكاسل في أداء الأعمال؛ لحدُوث إسلامه، أو نشوئه في البادية، أو جَهله أو عصيانه، أو نحو ذلك؛ فهو على الصحيح لا يكفر بترك شيء من هذا، أعني: بِترك شيء من الأعمال، مع الإقرار والاعتراف به في أرجح الأقوال؛ إلا أن أهل العلم اختلفوا فيمن ترك الصلاة، وكثير من أهل العلم يرون أنه من الكفار، ولكن هذه المسألة مسألة عظيمة، وفيها تفصيل وخلاف بين أهل العلم، سيأتي ذكره فيما بعدُ إن شاء الله –تبارك وتعالى.

العنصر الثالث: ذكر ما يُضاد كلمة التوحيد " الأول الكفر"

أ. المراد بما يضاد التوحيد:

نعني: بما يضاد التوحيد أسباب الخروج من الإسلام، بعد الدخول فيه، وذلك حسب القاعدة الجامعة، التي اتفق عليها أهل السنة والجماعة، وفي الحقيقة أختار في التعبير هنا عن هذه الكلمات، ما قاله الإمام الطحاوي –رحمه الله تبارك وتعالى– في (العقيدة الطحاوية):

"ونُسَمّي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما دَاموا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين".

فنحن نُسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، إذا اعترفوا وأقرُّوا بصدق نبينا صلى الله عليه وسلم، وبصدق ما جاء به، وهؤلاء من أهل الإسلام ولا يخرجون، ولا نُكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقولُ: لا يَضُرّ مع الإيمان ذنب لمن عمله، ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفوا الله -تبارك وتعالى- عنهم، ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولا نقنِّطهم.

والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام: الأمن من مكر الله يجعل الإنسان يخوضُ في معاصي الله، ولا يعرفُ قدر ربه ومولاه، ويَخْرُج من كل ذلك؛ فينتقل عن ملة الإسلام، كَذلِك اليأس من رحمة ربي العالمين؛ فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: 87]. وسبيلُ الحَقّ بينهما لأهل القبلة، بين الأمن وبين الإياس، ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه.

هذه قاعدة عظيمة جدًّا ذكرها الإمام الطحاوي -رحمه الله تبارك وتعالى- تُبيِّن من هم أهل الإيمان؟ وما حكم مرتكب الكبيرة من أهل الإيمان، وما هو الشيء الذي يناقض الإيمان، ويناقض كلمة التوحيد؟ وقد شرح ذلك الإمام ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله تبارك وتعالى- فقال: بيان هذه القاعدة: "أنّ الشّارِعَ الحكيم قد جعل للإيمان والإسلام مدخلًا وبابًا يُدخل منه، وهو كما علمتُ: الإقرار والتصديق بالشهادتين".

فمن ولج إلى الإسلام من هذا الباب؛ فإنّه لا يَخْرُج منه: إلا أن يصدر عنه قول أو عمل أو اعتقاد يُناقض إقراره السابق، وتصديقه بالشهادتين. فما كان مناقضًا لمعنى الشهادتين -أي: مضادًا لتوحيد الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته وأفعاله وتوحيده في ألوهيته- وعدم توجه

الإنسان بالعبادة له سبحانه، أو مكذبًا بشيء مما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم من الشـــرائع، ومن أمور الغيب أو غير ذلك؛ فهذا يكون مناقضـــًا لما أقر به، واعترف به من الشهادتين.

فمن كَذّب بشيء مما جاء به النبي صلى الله عليه و سلم أو كذب بشيء من أمور الغيب مثلًا؛ أو ناقض توحيده هذا بأمر يُخالف ما جاء من عند رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه؛ فيَكُون بهذا قد نقض بما اعتقده ما قاله بلسانه إن كان قال كلمة التوحيد بلسانه.

ب. الأول: وهو الكفر:

الكفر هو مما يضاد التوحيد، وينبغي أن نعلم: أنّ تكفير من يُجاهر بالكفر دون استحياء، لا بُدّ أن يُكفر، إلا أننا لا بد أن نَكُفّ عمن ظاهره الإسلام.

بعض أصـــناف الكفرة الذي كُفرهم يضـــاد كلمة التوحيد هنا: ومن هؤلاء الشـــيوعيون المصرون على الشيوعية؛ الذين يؤمنون بها فلسفة ونظام حياة، رغم مناقضتها الصريحة لعقيدة الإسلام وشريعته وقيمه، والذين يؤمنون بأن الدين أفيون الشعوب، ويُعادون الأديان عامه، ويَخُصون الإسلام بمزيد من العدواة والنقمة؛ لأنه عقيدة ونظام وحضارة كاملة، هؤلاء لا شك أنهم كفار، وليس هناك ما يعرف بمسلم شيوعي، كما يزعم البعض، وذلك لاختلاف الإسلام في كل شيء عن الشيوعية.

ولذلك أقول: من رضي بنظام الشيوعية في الاقتصاد؛ فقد كره ما جاء في الإسلام، وهذا وحده يكفي في كفره ومروقه من الإسلام.

كذلك أيضًا من أصناف الكفرة: العلمانيون الذين يرفضون جهره شرع رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه، وينادون بأنّ الدولة يجب أن تنفصل عن الدين، وإذا دُعوا إلى

حكم الله، وحكم رسوله: صلى الله عليه وسلم أَبوا وامتنعوا، وأكثر من ذلك أنهم يُحاربون من يَدعون إلى تحكيم شريعة الله، والعودة إلى الإسلام.

هذا ومُحاولة فصل الدين عن الدولة هي أقصر طريق إلى الكفر، وفيه إعلان الحرب على الله، وإنكار أكبر معالم الدين، ويستثنى من ذلك العامة الذين لا يعرفون مقاصد العلمانية، ويُزين لهم الباطل وهم جهال، فيقبلونه.

أيضًا من أصناف الكفرة الذين مرقوا من الدين، وناقض كفرهم توحيد رب العالمين، من أصنافهم: أصحاب النحل التي مرقت من الإسلام مروقًا ظاهرًا، وذلك كالدرزية، والنصيرية، والإسماعيلية. وأمثالهم من الفرق الباطلة، الذين قال عنهم الإمام الغزالي -رحمه الله تبارك وتعالى: "ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض".

وقال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله: "إنهم أكفر من اليهود والنصارى؛ وذلك لإنكارهم قطعيات في الإسلام وأساسات فيه، وما عُلم منه بالضرورة، ومثلهم في عصرنا الحاضر: البابية، والبهائية، والقديانية. وهذه أديان جديدة قائمة برأسها تناقض دين الإسلام، وكل ذلك من الكفر الذين يُناقض كلمة التوحيد.

ويُلحق بهذه الأصناف ما ذكرته من أنواع، وهو: كفر التكذيب، وكفر الإباء والاستكبار، وكفر الإعراض، وكفر الشك، وكفر النفاق. استودعكم الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الخامس: تابع ما يضاد التوحيد (2)

عناصر الدرس

العنصر الأول: الثاني الشركُ الأكبر

العنصر الثاني: الثالث النفاق الأكبر

العنصر الأول: مما يضاد التوحيد الشركُ الأكبر

أ. تعريف الشرك الأكبر وبيان حكمه:

قد يقول قائل: وأين الشرك الأصغر؟ أقول: بأن الشرك الأصغر لا يخرج العبد به من التوحيد والإيمان، إلا إذا اعتقد شيئًا يؤدي به إلى الشرك الأكبر. أما الشرك الأصغر كيسير الرياء، أو الشرك في الألفاظ كالحلف بالمخلوق، وما شابه ذلك، فهذا ليس مما يضاد التوحيد، بل هو من منق صات التوحيد. ويـ ضاد التوحيد- هي التي إذا وجدت عند العبد خرج من دين الله بالكلية، كالكفر الأكبر كما تقدم ذكره، وكالشرك الأكبر.

الشرك الأكبر هو أن يتخذ العبد لله ندًّا يسوِّيه بالله سبحانه وتعالى في ربوبيته أو إلوهيته أو أسمائه وصفاته، هذا هو الشرك الأكبر، أن يجعل العبد لله -تبارك وتعالى- شبيهًا ومثيلًا وندًّا يتوجه إليه، وغير ذلك.

بعد أن عرفت الشرك الأكبر، أود أن أبين حكمه:

إن الـ شرك الأكبر من أعظمِ الذنوب على الإطلاق، بل هو أعظمُ ذنبٍ عُ صِيَ الله به، فهو أكبر الكبائر وأعظم الظلم؛ لأن الـ شرك صرفُ خالصِ حق الله تعالى، وهو العبادة لغير الله -تبارك وتعالى، أو وصف أحدٍ من خلق الله سبحانه وتعالى بشيء من صفاته التي اختصَّ بها -عز جل، ولذلك بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- جُرم الشـــرك فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: 13].

ولذلك رتَّب الـ شرع عليه آثارًا، وعقوبات عظيمة، أهمها أن الله لا يغفره إذا مات صاحبه ولم يتب منه، وهذا هو صـــريح قول الحق -تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 116]. أيضًا من عقوبات الشرك الأكبر، أن صاحبه خارج عن ملةِ الإسلامِ حلال الدم والمال، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: 5].

والله -تبارك وتعالى- لا يقبل من المشرك عملًا، وما عمله من أعمال سابقة تكون هباءً منثورًا، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: 65].

ومن عقوباته أيضًا: أنه يحرم على هذا المشرك أن يتزوج بمسلمة، كما يحرم أن يتزوج المسلم بمشركة، الشارع استثنى من ذلك على الراجح أهل الكتاب، قال الله سبحانه وتعالى في بيان عدم جواز، أن يتزوج المشرك بمسلمة، أو أن يتزوج المسلم مشركة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: 221].

وإذا مات هذا المشرك فلا يُغسل، ولا يُكفن، ولا يُصلى عليه، ولا يُدْفَن في مقابر المسلمين، وإنما يُحفرُ له حفرةً بعيدةً عن الناس، ويُدفن فيها؛ لئلا يؤذي الناس برائحته الكريهة.

وآخر أمر أُبينه هنا من آثار وعقوبات الشرك الأكبر الخطيرة العظيمة: أن دخول الجنة حرام على المشرك، وهو مخلَّد أبد الآباد في نار الجحيم كما قال -تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ

﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: 72].

ب. أقسام الشرك الأكبر:

القسم الأول: الشرك في الربوبية:

ومعناه أن يجعل العبد لغير الله -تبارك وتعالى- مع الله نصيبًا من الملك أو التدبير، أو الخلق أو الرزق الاستقلالي، وهذا النوع من الشرك، أو القسم من الشرك له صور عديدة منها:

شرك النصارى: الذين يقولون الله ثالث ثلاثة، و شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وهو عندهم الإله المحمود، وحوادث الشر إلى الظلمة. ومن صور هذا الشرك أيضًا، وأعني به الشرك الواقع في الربوبية: شرك القدرية: الذين يزعمُونَ أن الإنسان يخلقُ أفعالَهُ، ويقولون: لا قدر والأمر أُنُف، أي: مستأنف، لا يعلمه الله -عز جل- إلا بعد وقوعِهِ، وهذا شرك في الربوبية.

ومنه أيضًا: شرك كثير من غلاة الصوفية والرافضة: من عُباد القبور، الذين يعتقدون أن أرواح الأموات تَتَصَرَّفُ بعد الموت، فتقضي الحاجات، وتفرج الكربات، أو يعتقدون أن بعض مشايخهم يتصرف في الكون، أو يغيث من استغاث به، ولو مع غيبته عنه.

ومن صور هذا الشرك أيضًا الاستسقاء بالنجوم: وذلك باعتقاد أنها مصدر السقيا، وأنها التي تُنزِّل الغيث بدون مشيئة الله وتعالى، وأعظم من ذلك أن يُعتقد أنها تتصرف في الكون بالخلق أو الرزق أو الإحياء، أو الإماتة، أو بالشفاء، أو المرض، أو الربح، أو الخسارة، فهذا كله من الشرك الأكبر، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: 82]، والمعنى: تجعلون شكركم لله على ما رزقكم الله من الغيث والمطر ﴿أَنَّكُمْ

تُكَذِّبُونَ} أي: تنسبونه إلى غيرِهِ، وقال النبي صلى الله عليه و سلم: ((أربعٌ من أُمتي من أمر الجاهلية لا يتركونَهُنَّ، الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة))، وهذا حديث صحيح، أخرجه الإمام مسلم.

القسم الثاني: من أقسام الشرك الأكبر، الشرك في الأسماء والصفات:

وهو أن يجعل العبدُ لله تعالى، مماثلًا في شيء من الأسماء أو الصفات، أو يصف الله تعالى بشيء من صفات خلقه، فمن سمى غير الله باسمٍ من أسماءِ اللهِ تعالى، معتقدًا اتِّصَاف هذا المخلوق بما دلَّ عليه هذا الاسم، مما اختصَّ الله تعالى به، أو وصفَهُ بصفةٍ من صفات الله تعالى الخاصةِ به، فهو مشرك في الأسماء والصفات، وكذلك من وصَفَ الله تعالى بشيءٍ من صفات المخلوقين، فهو مشرك في الصفات.

ومن صور هذا الشرك: الشرك بدعوى علم الغيب، أو باعتقاد أن غير الله تعالى يعلم الغيب، فكل ما لم يطَّلِعُ عليه الخلق، ولم يعلموا به بأحد الحواس الخمس، التي هي السمع والبصر، والشم، واللمس، والذوق، فمن سمع شيئًا، أو أخبره مخبرٌ من الجن أو الإنس بشيء رآه أو سمعه؛ فقد علمه بطريق السمع، إما بنفسه، أو عن طريق سماع كلام هذا الذي رآه أو سمعه، وهكذا بقية الحواس.

وليس من ادِّعاء علم الغيب، ما يعرف من نتائج بعض الأمور من النظر في مقدماتها، ولا الإخبار عن المسببات من النظر في أسبابها، كما يحصل في علم الطب، من معرفة شفاء المرض بعلاج معين ونحو ذلك، وكما يحصل في علم الفلك من رصده هبوب الرياح أو معرفة وقت الكسوف، ونحو ذلك على تفصيل لا يتسع المقام له.

وقد ذكر شيخنا محمد بن صالح بن عثيمين –رحمه الله تبارك وتعالى– في كتابه القيم (القول المفيد): "أن الإخبار عن أحوال الطقس في أربع وعشرين ساعة ونحوها، ليس من ادِّعاء علم

الغيب؛ لأنه يستند إلى أمور حسية، وهي تكيف الجو؛ لأن الجو يتكيف على صفةٍ معينةٍ، تُعرف بالموازين الدقيقة عندهم، فيكون صالحًا بأن يمطر، أو لا يمطر، بإذن الله -تبارك وتعالى.

ولذلك أقول: بأنني أقصدُ بهذه الصورة من الشرك، وأعني وقوع الشرك بدعوى علم الغيب ادِّعَاء علم الغيب دون أن يكون هناك دليل صحيح، يرشد إلى أمر يمكن أن يعلمه الإنسان، إما بجانب علمي أو بجانب تجاربي، أو غير ذلك من الجوانب.

وعلم الغيبِ أمرٌ اختص الله سبحانه وتعالى به وحده دون سواه، كما قال -تبارك وتعالى- عن نفسه: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ [النمل: 65]، وقال -جل شأنه: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ ﴾ [يونس: 20]، وقال سبحانه وتعالى ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: 59]، وقال لنبيه وحبيبه ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ [الأعراف: 188]، وقال لنبيِّه صلى الله عليه وسلم أيضًا: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ [الأنعام: 50].

فمن ادَّعى بعد ذلك أن أحدًا من الخلق يعلم الغيب، فقد وقع في الشرك الأكبر المخرج من الملة؛ لأن في ذلك ادِّعاء مشاركةِ اللهِ تَعَالَى، في صفة من صفاته الخاصة به وهي علم الغيب، ومن أمثلة الشرك بدعوى علم الغيب ما يلي:

أ. اعتقاد أن الأنبياء، أو أن بعض الأولياء والصالحين يعلمون الغيب: وهذا الاعتقاد يوجد عند غُلاة الرافضة، ولذلك تجدهم يستغيثون بالأنبياء والصالحين الميتين، وهم بعيدون عن

قبورهم، و يدعون بعض الأحياء وهم غائبون عنهم، ويعتقدون أنهم جميعًا يعلمون بحالهم، وأنهم يسمعون كلامهم، وهذا كله شرك أكبر مُخرج من الملة.

ب. الكهانة: والكاهن هو الذي يدعي أنه يعلم الغيب، مثله أو قريب منه العراف، الذي يدعي أنه يعرف الأمور في المستقبل، أو الرمال ونحو هؤلاء. فكل من ادَّعى أنه يعرف علم ما غاب عنه، دون أن يخبره به مخبر، أو زعم أنه يعرف ما سيقع قبل وقوعه، فهو مشرك شركًا أكبر، سواء ادعى أنه يعرف ذلك عن طريق الطرق بالحصى، أم عن طريق حروف أبا جاد، أم عن طريق الخط في الأرض، أم عن طريق قراءة الكفّ، أم عن طريق النظر في الفنجان، أم غير ذلك. كل هذا من الشرك، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ليس منا من تطيَّر أو تُطيِّر له، أو تكهَّن أو تُكُهِّن له، أو سحَر أو سُحِرَ له، ومن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمدصلى الله عليه وسلم)).

ج. اعتقاد بعض العامة أن السحرة أو الكهان يعلمون الغيب، أو أن يصدق أحد من الناس هؤلاء في دعواهم معرفة ما سيقع في المستقبل: فمن اعتقد ذلك أو صدَّقهم فيه؛ فقد وقع في الشرك المخرج من الملة، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((من أتى كاهنًا أو عرافًا، فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم)) والكفر يقع على هؤلاء، إن اعتقدوا أن هؤلاء السحرة والكهان يعلمون الغيب استقلالًا، وأنه بيدهم أمور يتصرفون بها في الكون وغير ذلك.

د. التنجيم: وتعريف التنجيم: الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية المستقبلة، وذلك أن المُنجم يدَّعي من خلالِ النظرِ في النجوم معرفةَ ما سيقعُ في الأرض من نصرٍ لقوم،

أو هزيمة لآخرين، أو خسارة لرجل أو ربح لآخر، ونحو ذلك، وهذا لا شك من دعوى علم الغيب فهو شرك بالله تعالى، ومما يفعله كثير من المشعوذين والدَّجَاجِلة، أن يدَّعي أن لكل نجم تأثيرًا معينًا على من وُلد فيه، فيقول مثلًا: فلان وُلد في برج كذا فسيكون سعيدًا، وفلان ولد في برج كذا فستكون حياته شقاء، ونحو ذلك، وهذا كله كذب، ولا يصدقه إلا جهلة الناس و سفهاؤهم. قال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله: "فهذا اتخذ تعلم النجوم و سيلة لادعاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج من الملة".

القسم الثالث من أقسام الشرك الأكبر: الشرك في الألوهية:

وهو اعتقاد أن غير الله تعالى يستحقّ أن يُعبد، أو صرف شيء من العبادة لغير الله، وأنواع هذا الشرك في الألوهية ثلاثة هي:

الأول: اعتقاد شريك لله تعالى في الألوهية: فمن اعتقد أن غير الله تعالى يستحق العبادة مع الله، أو يستحق أن يُصرف له أي: نوع من أنواع العبادة، فهو مشرك في الألوهية، ويدخل في هذا النوع من يُسمي ولده، أو يتسمَّى باسم يدل على التعبُّد لغير الله تعالى، كمن يتسمَّى بعبد الرسول، أو بعبد الحسين، أو غير ذلك، فمن سمى ولده أو تسمى بشيء من هذه الأسماء، التي فيها التعبد للمخلوق، معتقدًا أن هذا المخلوق يستحق أن يُعبد؛ فهو مشرك بالله تعالى.

أما النوع الثاني من أنواع الشرك في الألوهية: فهو صرف شيء من العبادات المحضة لغير الله: فالعبادات المحضة بأنواعها القلبية والقولية العملية والمالية، حقٌّ لله تعالى، لا يجوز أن تُصرف لغيره، فمن صرف شيئًا منها لغير الله؛ فقد وقع في الشرك الأكبر.

والشرك بصرف شيء من العبادة لغير الله له صورٌ كثيرة، يُمكن حصرها في الأمرين التاليين:

الأمر الأول: الشرك في دعاء المسألة:

ودعاء المسألة: هو أن يطلب العبد من ربه جلب مرغوب أو دفع مرهوب، ويدخل في دعاء المسألة الاستعانة والاستغاثة والاستعاذة والاستجارة، قال الخطابي –رحمه الله تبارك وتعالى: "ومعنى الدعاء ا ستدعاء العبد ربه سبحانه وتعالى العناية، وا ستمداده إيَّاه المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إلى الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله سبحانه، وإضافة الجود والكرم إليه".

والدعاء من أهم أنواع العبادة، فيجب صرفه لله تعالى، ولا يجوز لأحد أن يدعو غيره كائنًا من كان، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: 60]. و قال –تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: 18].

وثبت عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: ((الدعاءُ هو العبادة))، وقال صلى الله عليه و سلم في و صيته لابن عباس: ((إذا سألت فا سأل الله، وإذا ا ستعنت فا ستعن بالله))، فمن دعا غير الله؛ فقد وقع في الشرك الأكبر.

ومن أمثلة الشرك في دعاء المسألة ما يلي:

– أن يطلب من المخلوق ما لا يقدر عليه إلا الخالق، سواء أكان هذا المخلوق حيًّا أم ميتًا، نبيًّا أم وليًّا، أم ملكًا أم جنيًّا أم غيرهم، كأن يطلب منه شفاء مريضه، أو نصره على الأعداء، أو كشف كربة، أو أن يغيثه، أو أن يعيذه، وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله،

فهذا كله شرك أكبر، مخرج من الملة بإجماع المسلمين؛ لأنه دعا غير الله تعالى واستغاث به واستعاذ به، وهذا كله عبادة، لا يجوز أن تُصرف لغير الله بإجماع المسلمين، وصرفها لغيره الله شرك، ولأنه اعتقد في هذا المخلوق ما لا يقدر عليه إلا سبحانه وتعالى.

ومن أمثلته أيضًا دعاء الموتى ودعاء الغائبين الذين لا يسمعون:

فمن دعا غائبًا أو دعا ميتًا وهو بعيد عن قبره، وهو يعتقد أن هذا المدعو، يسمع كلامه أو يعلم بحاله، حتى ولو كان قريبًا من هذا القبر وقد مات، فهو لا يعلم شيئًا عنه. ومن فعل ذلك؛ فقد وقع في الشرك الأكبر، سواء أكان هذا المدعوُّ نبيًّا أم وليًّا أم عبدًا صالحًا أم غيرهم، وسواء طلب من هذا المدعو ما لا يقدر عليه إلا الله، أم طلب منه أن يدعو الله تعالى له، ويشفع له عنده. فهذا كله شرك بالله تعالى مخرج من الملة، لما فيه من دعاء غير الله، ولما فيه من اعتقاد أن المخلوق يعلم الغيب، ولما فيه من اعتقاد إحاطة سمعه بالأصوات، وهذا كله من صفات الله تعالى التي اختصَّ الله بها، فاعتقاد وجودها في غيره، شرك مخرج من الملة.

- ومن أمثلته أيضًا أن يجعل العبد بينه وبين الله تعالى واسطة في الدعاء:

ثم يعتقد أن الله تعالى لا يجيب دعاء من دعاه مباشرة، بل لا بد من واسطة بين الخلق وبين الله تعالى في الدعاء، فهذه شفاعة شركية مخرجة من الملة، واتخاذ الوسطاء والشفعاء هو أصل شرك العرب، فهم كانوا يزعمون أن الأصنام تماثيل لقوم صالحين، فيتقربون إليهم طالبين منهم الشفاعة، كما قال سبحانه: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: 3].

الأمر الثاني: الشرك في دعاء العبادة:

ودعاء العبادة: هو عبادة الله تعالى بأنواع العبادات القلبية والقولية والفعلية، كالمحبة، والخوف، والرجاء، والصلاة، والصيام، والذبح، وقراءة القرآن، وذكر الله تعالى، وغير ذلك. وسُمي هذا النوع دعاء باعتبار أن العابد لله بهذه العبادات، طالب وسائل لله في المعنى؛ لأنه إنما فعل هذه العبادات؛ رجاءً لثوابِهِ، وخوفًا من عقابِهِ، وإن لم يكن في ذلك صيغةُ سؤالٍ وطلب، فهو داعٍ لله تعالى بلسان حاله لا بلسان مقاله.

ومن أمثلة الشرك في هذا النوع:

أ. الشرك في الخوف: الخوف الشركي: هو أن يخاف من مخلوق خوفًا مقترنًا بالتعظيم، والخضوع والمحبة، ومن ذلك الخوف من صنم مثلًا، أو من ميت خوفًا مقرونًا بتعظيم ومحبة، فيخاف أن يصيبه بمكروه بمشيئته وقدرته؛ كأن يخاف أن يصيبه بمرض، أو بآفة في ماله، أو يخاف أن يغضب عليه فيسلبه نعمه، فهذا من الشر الأكبر؛ لأنه صرف عبادة الخوف والتعظيم لغير الله، ولما في ذلك من اعتقاد النفع والضر في غير الله تعالى، قال الله –جل جلاله: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة: 18]، ومن الخوف الشركي أن يخاف من مخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

ب. الشرك في المحبة: المحبة الشركية هي أن يُحب مخلوقًا محبةً مقترنةً بالخضوع والتعظيم. وهذه هي محبة العبودية التي لا يجوز صرفها لغير الله، فمن صرفها لغيره؛ فقد وقع في الشرك الأكبر،

قال الله –تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: 165].

ج. الشرك في الرجاء، وهو من أمثلة هذا النوع من الشرك: ومعنى الشرك في الرجاء أن يرجو من مخلوق، ما لا يقدر عليه إلا الله. كمن يرجو من مخلوق أن يرزقه ولدًا، أو يرجو من مخلوق أن يشفيه بإرادته وقدرته، فهذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة.

د. الشرك في الصلاة والسجود والركوع: فمن صلى أو سجد أو ركع، أو انحنى لمخلوق، محبةً وخضوعًا له، وتقربًا إليه؛ فقد وقع في الشرك الأكبر بإجماع أهل العلم، قال الله تعالى ناهيًا عن ذلك: ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: 37]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ [الأنعام: 162، 163].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما سجد له: ((لا تفعل، فإني لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله، لأمرتُ المرأةَ أن تسجد لزوجها))، وقال صلى الله عليه وسلم: ((ما ينبغي لأحد أن يسجد لأحد))، ولأنه قد صرف شيئًا من العبادة لغير الله سبحانه وتعالى، وصرف العبادة لغيره شرك بإجماع أهل العلم.

هـ. الشرك في الذبح: وهو الذبح تقربًا إلى مخلوق، وتعظيمًا له وخضوعًا: والذبح عبادة ولا يجوز التقرب به إلى غير الله أبدًا، فمن ذبح تقربًا إلى مخلوق وتعظيمًا له؛ فقد وقع في الشرك

الأكبر، وذبيحته محرمة لا يجوز أكلها؛ سواء أكان هذا المخلوق من الأنس، أم من الجن، أم من الملائكة، أم كان قبرًا، أم غيره، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ }، وقال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر: 2]، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لعن الله من ذبح لغير الله)).

و. الشرك في النذر والزكاة والصدقة: النذر هو إلزام مكلف مختار نفسه عبادة لله تعالى، ليست واجبة عليه بأصل الشرع، كأن يقول مثلًا: لله علي نذر أن أفعل كذا، أو لله علي أن أصلي، أو أصوم كذا، أو أتصدق بكذا، أو ما أشبه ذلك. والنذر عبادة من العبادات لا يجوز أن يُصرف لغير الله تعالى، فمن نذر لمخلوق كأن يقول: لفلانٍ عليَّ نذرٌ أن أصوم يومًا، أو لقبر فلان علي أن أتصدق بكذا، أو إن شُفِيَ مريضي، أو جاء غائبي للشيخ فلان؛ عليَّ أن أتصدق بكذا، أو لقبره؛ عليَّ أن أتصدق بكذا. فقد أجمع أهل العلم على أن نذره محرم وباطل، وعلى أن من فعل ذلك، فقد أشرك بالله تعالى الشرك الأكبر المُخرج من الملة؛ لأنه صرف عبادة النذر لغير الله، ولأنه يعتقد أن الميت ينفع ويضر من دون الله، وهذا كله شرك.

ومثله إخراج زكاة المال، وتقديم الهدايا والصدقات، إلى قبر ميت تقربًا إليه، أو تقديمها إلى سدنة القبر تقربًا إلى الميت، أو تقديمها إلى الفقراء الذين يذهبون إلى القبر، وكان يفعل ذلك تقربًا إلى الميت، أو تقديمها إلى الفقراء الذين يذهبون إلى قوم يعكفون عندهم بحجة أن البركة تحل في مكان كذا أو كذا، أو أن هذه البقعة لها شـــرف على غيرها من البقاع، ويجلسون عندها متبرِّكين بشرف البقعة، متوجهين بكليتهم إليها دون رب العالمين –سبحانه

جل في علاه. فهذا كله من الـ شرك الأكبر أيـ ًضا، لما فيه من عبادة غير الله، ومن اعتقاد أن هذا الميت ينفع أو يضر من دون الله سبحانه وتعالى.

وما قلته في النذر والزكاة والـ صدقة، وكل ذلك عبادة، يقال في الـ صيام والحج والطواف وغير هذا، فالـ صيام والحج من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله، فمن صام وقـ صد بـ صومه ميتًا أو غائبًا يرجو نفعه وغير ذلك؛ فقد أ شرك مع الله، كذلك الذي يحج إلى غير الكعبة، أو يحج إلى الكعبة تقربًا إلى وليٍّ أو ميت، أو غير ذلك من المخلوقين، أو يحج تقربًا إلى صاحبه؛ فهذا كله من الشرك الأكبر المخرج من الملة.

والطواف عبادة بدنية، لا يجوز أن تُصـــرف إلا لله تعالى، ولا يجوز أن يُطاف إلا بالكعبة المـ شرفة، وهذا كله مجمع عليه؛ بل إن الطواف هو العبادة الوحيدة، التي لا يُمكن أن يفعلها الإنـ سان إلا في مكة وحول الكعبة، فالإنـ سان يـ صلي في أيِّ مكان وجد ويـ صوم كذلك، ولكنه لا يطوف إلا بالكعبة الموجودة في بيت الله الحرام في مكة المكرمة.

وهكذا بقية العبادات كالتوكل والتبرك، والتعظيم البالغ، والخضـــوع، وقراءة القرآن، والذكر، والآذان، والتوبة، والإنابة، فهذه كلها عبادات لا يجوز أن تُصرف لغير الله.

النوع الثالث من أنواع الشرك في الألوهية: الشرك في الحكم والطاعة:

ومن صور هذا الشرك، أن يعتقد أحد أن حكم غير الله أفضل من حكم الله أو مثله، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة؛ لأنه مكذب للقرآن، فهو مكذب لقول الله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 50]، وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين: 8]، وهذا استفهام تقريري، أي: أن الله تعالى أحكم الحاكمين، فليس حكم أحد غيره أحسن من حكمه ولا مثله.

أو أن يعتقد إنسان جواز الحكم بغير ما أنزل الله، فهذا شرك أيضًا من أكبر؛ لأنه اعتقد خلاف ما دلت عليه النصوص القطعية من الكتاب والسنة المحمدية، أو أن يضع تشريعًا أو قانونًا، مخالفًا لما جاء في كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويحكم به معتقدًا جواز الحكم بهذا القانون، أو معتقدًا أن هذا القانون خير من حكم الله، أو أنه كحكم الله سبحانه وتعالى، والذين يحكمون بعادات الآباء الأجداد، وهم يعلمون أنها مخالفة لحكم الله، إذا حكموا بها معتقدين أنها أفضل من حكم الله، أو أنها مثل حكمه سبحانه؛ فلا شك أن هذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

العنصر الثاني: مما يضاد التوحيد النفاق الأكبر

أ. تعريف النفاق الأكبر وبيان حكمه:

النفاق في اللغة: إخفاء الشيء وإغماضه.

وفي الاصطلاح: أن يُظهر الإنسان الإيمان بالله، وملائكته، كتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويُبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وذلك بأن يكون في الظاهر أمام الناس يدَّعي الإسلام، ويُظهر لهم أنه مسلم، وربما يعمل أمامهم بعض العبادات، كالصلاة، والصيام، والحج وغيرها، ولكن قلبه –والعياذ بالله تعالى– لا يؤمن بتفرد الله تعالى بالألوهية، أو بالربوبية، أو لا يؤمن برسالةِ النبي صلى الله عليه وسلم أو يُبغضه، أو لا يؤمن بكتب الله المنزلة، أو لا يؤمن بعذاب القبر، أو لا يؤمن بالبعث، أو يعتقد أن دين النصارى أو دين اليهود، أو دين غيرهم من الكفار حقٌّ أو خيرٌ من الإسلام، أو يعتقد أن الإسلام دين ناقص، أو لا يصلح للتطبيق في هذا العصر، أو يعتقد أن فيه ظلمًا لبعض فئات المجتمع، أو فيه ظلم للنساء، أو أن بعض تشريعاته فيها ظلم.

أما حكم المنافق: فهو حكم المشرك شركًا أكبر، وكذلك حكمه حكم الكافر كفرًا أكبر؛ لأن المنافقين في الحقيقةِ كفار، وإن كانوا أسوء حالًا من سائر الكفار؛ لأنهم زادوا على الكفر الكذب والمراوغة والخداع، وضررهم على المسلمين أشدُّ؛ لأنهم يندسُّون بين المسلمين، ويُظهرون أنهم منهم، ويحاربون الإسلام باسم الإصلاح، ولذلك فهم أشدُّ عذابًا في الآخرة من سائر الكفار، كما قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: 145].

ب. أعمال المنافقين الكفرية:

للمنافقين أعمال كفرية يُستدل بها على ما يُبطنون من النفاق، وقد بينها الله تعالى في كتابه كما في سورة التوبة التي تُسمى الفاضحة؛ لأن الله تعالى فضحَ فيها المنافقين، ببيانِ أعمَالِهِم الكفرية، كما بينها أيضًا في سور أخرى كثيرة.

ومن هذه الأعمال: الاستهزاء بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة65: 66].

ومن أعمال المنافقين الكفرية: سبُّ الله تعالى، أو سب رسوله صلى الله عليه وسلم، أو تكذيبهما، قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: 58]، أي: ومن المنافقين من يعيبك في تفريق الصدقات، فيتهمونك بعدم العدل، وأصل اللمز الإشارة بالعين ونحوها.

ومن أعمالهم أيضًا: الإعراض عن دين الإسلام وعيبه، والعمل على إبعاد الناس عنه، وعلى عدم التحاكم إليه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: 61]. ومن أعمالهم التحاكم إلى الكفار، والحرص على تطبيق قوانينهم، تفضيلًا لها على حكم الله، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: 60].

ومن أعمالهم أيضًا: وهو في الحقيقة خطيرٌ في العصر الراهن والحاضر، اعتقاد صحة المذاهب الهدَّامة، والدعوة إليها مع معرفةِ حقيقتِهَا، ومن هذه المذاهب ما جدَّ في هذا العصر من مذاهب هي في حقيقتها حرب للإسلام، ودعوة للاجتماع على غير هديه كالقومية والوطنية، فكثير من المنافقين في هذا العصر ممن يسمون علمانيين أو حداثيين أو قوميين، يعرفون حقيقة هذه المذاهب، ويدعون إلى الاجتماع على هذه الروابط الجاهلية، ويدعون إلى نبذ رابطة الإيمان والإسلام، التي ذكرها ربنا –جل وعلا– بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: 10].

وأعمال هؤلاء المنافقين الذين كفروا بها كثيرة، أذكر آخر عمل هنا وأختم به، وهو مناصرة الكفار، ومعاونتهم على المسلمين؛ لأن المنافقين في حقيقتهم كفار، فهم يُناصرون إخوتهم من الكفار على المسلمين، قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة 51: 52].

الدرس السادس: مما يضاد التوحيد (3)

عناصر الدرس

العنصر الأول: مما يضاد التوحيد الرِّدَّة

العنصر الثاني: الصلاة منزلتها في الإسلام، وحكم تاركها

العنصر الأول: مما يضاد التوحيد الرِّدَّة

أ. تعريف الردة:

ما هي الردة؟

الردة هي الكفر بعد الإيمان، فمن قال الكفر أو فعله أو ر ضي به مختارًا؛ كفر وإن كان مع ذلك يبغض هذا بقلبه. وبهذا قال علماء الســـنة والحديث، وذكروا ذلك في كتبهم، فقالوا: "إن المرتد هو الذي يكفر بعد إ سلامه، إما نطقًا وإما فعلًا وإما اعتقادًا"، وقرَّروا أن من قال الكفر كفر، وإن لم يعتقده و لم يعمل به، إذا لم يكن مكرهًا، و كذلك إذا فعل الكفر كفر، وإن لم يعتقده ولا نطق به، وكذلك إذا شرح بالكفر صدرًا أي: فتحه وو سعه، وإن لم ينطق بذلك و لم يعمل به. وهذا معلوم قطعًا من كتبهم، ومن له ممار سة في العلم؛ فلا بد أن يكون قد بلغ طائفة من ذ لك، ولقد اهتم العلماء -رحمهم الله- بخطورة الردة؛ اهتموا بالحديث عنها، وذكر العقوبات المترتبة على هذه الردة، وا شتملت كتب العقائد على هذا الكلام، أو هذا النوع من أنواع مما يضاد التوحيد، ألا وهي الرِّدَّة.

ب. بعض صور ومظاهر الرّدَّة: لهذه الردة صور ومظاهر متنوعة ومتعددة، أذكر منها شيئًا كما يلي:

أ. من لم يُكفِّر المشركين أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم؛ كفر إجماعًا، وهذا معناه الر ضا بالكفر، أو عدم الر ضا بالإ سلام، وكلاهما كفر، فمن قال مثلًا لمن أنكر الشهادتين: "صدقت، أو قال لمن نطق بالشهادتين: كذبت؛ لا شك أنه لا يشك أحد في كفر هذا حتى وإن كان القول الأول مجاملة للقائل، وهناك أ ساليب مختلفة من الأقوال الأعمال والأحوال لا تقلُّ في دلالتها في عرف الشارع، وفي عرف الناس، وعرف اللغة، عن قول صدقت لمن كفر، أو كذبت لمن أ سلم، فمن صدر منه هذه الكلمات؛ خرج من دين الإ سلام، على تفصـــيل في ذلك القول. ومما أذكره هنا هو وجوب الاحتياط في الحكم على المُعيَّن، بمعنى:

أنه لو حصل ما ذكرت آنفًا، لا بد من إقامة الحجة على هذا المتحدث، مع تحقق الشروط وانتفاء الموانع عنه، حتى يُمكن أن نلحق به الكفر أو الردة.

ب. من اعتقد أن غير هدي النبي صلى الله عليه و سلم أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يُفضلون حكم الطواغيت على حكم الإسلام، فهذا كفر.

فتنحية شريعة الله عن مجرى الحياة، واستيراد قوانين البشر القاصرة؛ ردة جديدة برزت في القرون الأخيرة في حياة المسلمين. و سبب الردة هي تفضيل هذه القوانين على حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه و سلم، والرضا بها، واعتقاد أنها أفضل مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء في الحقيقة يكفرون بذلك، والله -تبارك وتعالى- يقول في كتابه: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: 44]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 50].

ج. من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو عمل به؛ كفر إجماعًا:

والدليل على ذلك ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [محمد- 9]، و سواء أكانت تلك الكراهية نابعة من نفسه ومن إملاء هواه، أم كانت تابعة للغير موافقة لهواهم، كما قال الله -تبارك وتعالى- عن فريق من هؤلاء الكفار: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد- 26]، فالله سبحانه وتعالى جعلهم في العاقبة سواء، وهو إحباطهم عملهم، وذلك حال الكفار، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: 23].

وبُغض ما أنزل الله سبحانه وتعالى لا يعدو إلا أن يكون استهزاء به، أو جحودًا له، وكلاهُمَا كُفْرٌ، فمن استهزأ بشيء من دينِ اللهِ، أو بثوابِهِ أو عقابِهِ، أو بالرسول صلى الله عليه وسلم، أو بالقرآن، أو بالمؤمنين بسبب إيمانهم ونحو ذلك، فهذا ضرب من الكفر، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: 65، 66].

إن هذا أيضًا من أعمال المنافقين وصفاتهم، ومن جحد شيئًا من الدين كان كمن جحد بالدين كله، قال الله –تبارك وتعالى– ناعيًا على من يقع منه ذلك: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 85].

وظهور الكراهية والغضب عند ذكر الله، أو عند ذكر رسوله صلى الله عليه وسلم، أو عند ذكر شـــيءٍ من أمور الدين المعروفة أو الدعوة إليه، كل ذلك مظاهر للبُغض أو الإنكار أو الاستهزاء.

ولا شك أنها أمارة على الردة، فمن أعلن إسلامه ثم وقع في شيء من ذلك؛ فلا شك أنه خرج من الإسلام مرتدًّا، قال الله –تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحج: 72].

أيضًا من مظاهر وصور الردة والعياذ بالله -تبارك وتعالى، مظاهرة المشركين، والولاء لهم، ومعاونتهم على المسلمين لقول الله -تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: 51]، ولقوله -تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: 57].

فلا بد أن يحدد المسلم موقفه من أعداء الله وأعداء دينه، من الكفار والمشركين والمرتدين، ولا بد من أن يتبيَّن الحد الذي يجب أن يقف عنده المسلم، ولا يتجاوزه من أجل الحفاظ على دينه وإيمانه في معاملتهم وبناء العلاقات معهم، وهو الحد الذي لا يُفهم من الوقوف عنده الموافقة على دينهم، والرضا عن كفرهم. فإذا تخطَّى المسلم هذا الحد ودخل في طاعة الكفار، وأظهر الموافقة على دينهم الباطل، وأعانهم عليه بالنصرة والمال ووالاهم، وقطع الموالاة مع المسلمين، ورفع علاقته معهم على علاقته مع المسلمين، وضحَّى بالثانية من أجل الأولى؛ فهذا شأنه أنه قد صار منهم، وارتدَّ عن دينه، وكان كافرًا من أشد الناس عداوة لله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم. ولا يستثنى من ذلك إلا المكره، وهو الذي يقع تحت سلطان الكفار، فيأمرونه بطاعتهم في باطلهم، ويهددونه بالقتل، أو يشرعون في تعذيبه؛ فيجوز له عندئذ فقط، الموافقة باللسان مع طمأنينة القلب بالإيمان؛ لأن من فعل ذلك برغبته، دلَّ ذلك على عدم إسلامه بخلاف المُكره.

قال الله سبحانه وتعالى مبينًا حقيقة الموالاة والمعاداة مع الكافرين: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: 28]، والولاية في لغة العرب تطلق على النصر والتأييد

والإعانة، يقال: فلان وليٌّ لفلان، وموالٍ أي: مؤيد ناصر ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: 257] ناصرهم ومُؤيدهم ومُعينهم. وأولياء الله -تبارك وتعالى- هم الذين يقومون بنصره سبحانه وتعالى كما قال سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد- 7].

وعلى هذا المعنى يكون اتخاذ أعداء الله أولياء، يعني: اتخاذهم أنصـــارًا ومؤيِّدين مع التقرب إليهم، وإظهار الودِّ لهم، واتباع أهوائهم، وطاعتهم فيما يأمرون به ويُ شيرون به، والركون إليهم، و مداهنتهم، و مجاملتهم على حســـاب الدين، واتخاذهم بطا نةً من دون المؤمنين، ومعاونتهم على ظلمهم ونصـــرتهم، والتشـــبُّه بهم في العقائد والعادات، والأخذ بقوانينهم ومناهجهم في حكم الأمة، وتربية أبنائها.

والواجبُ على المسلم إعلانه عن الالتزام بالإ سلام كله، وإعلان البراءة من الكافرين، وعدم إعانة الكافر على المسلم، أو اتخاذهم بطانة وحاشية، أو حبهم، ولكن يُستثنى من البراءة هذه ولا ينقض أصـــلها أمور، منها: اللين عند عرض الدعوة، أو حِلُّ الزواج بالكتابية، وأكل ذبيحة الكتابي، أو المجاملة والإح سان والدعاء لهم بالهداية، أو الإهداء لهم، وقبول هداياهم، أو عيادة مرضاهم، أو التصدق عليهم والإحسان لهم.

وهذه إ شارات إلى معنى الولاء والبراءة الذي ساء البعض فهمه ومعناه، ولذلك أقول: بأن اللين في عرض الدعوة مثلًا، أو معاونة هؤلاء وم ساعدتهم في أمور حياتهم ومعي شتهم بما لا يرجع بسببه ضرر إلى لإسلام والمسلمين، هذا من باب الإحسان، الذي لم ينهَ عنه الإسلام، كما قال رب العالمين سبحانه: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ ... ﴾ [الممتحنة: 8]، أما أن يواليهم المسلم على المسلمين،

ويتقرَّب إليهم وينـ صرهم ويميل إليهم بقلبه، فهذا لا شكَّ أمر خطير، يكون صاحبه إن اعتقده مفضِّلًا هؤلاءِ عَلَى المسلمينَ مرتدًّا.

وخلا صة هذا الأمر: هو أن الم سلمين أمةٌ واحدةٌ، يكون ولاء كل م سلم لها، وقلبه معها، ويده ولسانه وسلاحه معها، ولا يجوز أن يصرف شيئًا من ذلك لأعداء الإسلام، فمن فعل؛ فقد انتقل من معسكر الإسلام إلى معسكر الكفر شاء أم أبى.

ومن صور ومظاهر الردة أيـ ًضا: الاعتراض على التـ شريع: إذ هو اعتراض على وا ضعه ومنزله، وهو رب العالمين سبحانه وتعالى وهذا كفر؛ لأن التـ شريع حق الله وحده، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يو سف: 67]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ} [الأعراف: 54]، فكما أن الخلق خلقه فالأمر سبحانه وتعالى أمره، ولذلك نعى الله سبحانه وتعالى عن من يـ شرع، ويـ ضع تـ شريعًا وقانونًا يُخالف به شريعة رب العالمين، قال سـبـ حا نه: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الـ شورى: 21]، ومن نفى الحكمة عن جزئية واحدة من تـ شريع الله سبحانه وتعالى أو اعترض على هذه الجزئية؛ فلا شك أنه قد اعترض على الم شرع سبحانه، وهذا يؤدي إلى الكفر والردة، والعياذ بالله تعالى.

وقد فشا اليوم في أو ساط المسلمين، ترديد شُبه أعداء الإ سلام، فنقلوا واعتقدوا ما بثُّوه من اعتراض على تـ شريع الله، حتى لا يكاد اليوم يخلو حكم شرعي من أحكام الإ سلام، إلا ونـ سمع الاعتراض عليه، ومن أظهر ذلك تعدُّد الزوجات، والطلاق، والرق، وحدُّ الـ سرقة، وحكم القصاص، وحدُّ الزنا، وغير ذلك من الإساءة إلى الإسلام، واعتبار أحكامه وحشية.

ومن أعجب ما سمعت في هذا الزمان، أن ذبح الحيوان وتزكيته بالطريقة الـ شرعية وحـ شية عند بعض هؤلاء، ولذلك فبعض بلاد الكفر لا يذبحون، ولا يُزكون بالطريقة الإسـلامية،

فبعضهم يصعق بالكهرباء، أو يُطلق على الشيء الذي يذبحه رصاصة من نارٍ، وغير ذلك. ولو علموا جمال الإسلام الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحدَّ أحدكم شفرته، وَلْيُرِحْ ذبيحته))، فلا يمكن لعاقل بعد هذا أن يعترض على شيء من شريعة الإسلام. وترديد من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو رسول رب العالمين، سبحانه وتعالى جل في علاه، ترديد هؤلاء لمثل هذه الاعتراضات، دون فهم ووعي لحكم ذلك؛ لهذا أمر خطير، وكذلك اعتقاد انتفاء الحكمة من هذه الشرائع والأحكام والحدود، إن اعتقد ذلك، وأذعن له وأقر به؛ فقد كفر بالله تعالى، ومثل هؤلاء من يُنكر الشريعةَ جملةً، ويرى: أنها لا تساير نظام حياة الناس، ولا تُناسب رقيهم وتطورهم المادي، فهؤلاء خارجون عن الإسلام، سواءٌ أكانوا مسلمين قبلًا، أم لم يسبقْ لهم إيمان وشهادة.

ولكن أرجو أن يُعلم حتى لا يفهم إنسانًا خطأ، وحتى لا ينسحب حكم هذا الكفر أو الرِّدَّة على كل إنسان ولو كان جاهلًا أو غير قاصد، ولهذا أقول: أرجو أن يُعْلَمَ، أن الاعتراض قد يصدر أحيانًا من مسلم يُفاجئه الحكم، ولا يرى الحكمة فيه مباشرة، ولا يخرج بهذا عن الإسلام، إلا بعد أن يُبيَّن له الحكمة فلا يرجع إلى الله، ولا يفيء إلى أمره -عز جل- بل يظل مُصِرًّا على اعتراضِهِ، هذا في الحقيقة هو الذي يكفر. أما الذي يصدر حكمًا؛ لأنه فوجئ بأمر من الأمور، أو حكمًا من الأحكام، فيدهش أو يتوقف، أو يقول كلمة في هذا الحكم، لا يكون بهذا مرتدًّا، إن كان مقتنعًا راضيًا خاضعًا لهذه الأحكام، كالحادثة التي صدرت ووقعت من سعد بن عبادة رضي الله عنه عندما سمع قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: 4]، قال سعد رضي الله عنه لما سمع هذه الآية، وكان غيورًا شديد الغيرة: "أهكذا

أنزلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟ فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تَلُمْهُ، فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا، وما طلق امرأة قط، فاجترأ منا أحد أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأعلم بأنها لَحَقٌّ، وإنها من الله، ولكن قد تعجبت أني لو وجدت لكاعًا قد تفخَّذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه، حتى آتي بأربعة شهداء، فو الله إني لآتي بهم حتى يقضي حاجته، ثم أنزل الله -تبارك وتعالى- بعد ذلك ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [النور: 6] إلى آخر ما جاء في هذا الحكم الرباني الكريم.

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

والشاهد في سوق هذا الحديث، أنه يحصل للمسلم أحيانًا الاستفسار في صورة الاعتراض على حكم الله، ولا يكون هذا مخرجًا له عن الإسلام، وهذا الحكم أيضًا ينطبق على الجاهل، الذي لا يعرف الحكم، فيُصدر إنكارًا له دون معنى ما يعرف، فهو جاهل، فلا يُحكم عليه حتى يُعلَّم ويتبين، وكذلك الذي لا يقصد فهو معذور.

وخلاصة الأمر: أن موقف المسلم من تشريع الله سبحانه وتعالى هو الرضا والتسليم، وعلى المسلم أن يقول: سمعنا وأطعنا، وهذا هو شعار المسلم دائمًا، ولا بأس أن يسأل عن الحكمة وأن يتلمَّسها؛ لأن ظهور حكمة التشريع تزيد المؤمن إيمانًا، وتقوِّي صلته بربه -جل وعلا، وشتان بين أن يكون هناك تلمس لحكمة التشريع، وبين أن يكون هناك اعتراض على حكمة التشريع.

وهناك نواقض أخرى للإيمان، وذلك كالـ سحر ومزاولته، أو تعلُّمه والر ضا به، أو اعتقاد البعض من الناس، أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم كما وسع الخضر الخروج عن شريعة مو سى عليه الـ سلام، أو ادِّعاء أن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، وأن باطنه يُخالف الظاهر، وأن هذا الباطن مخ صوص بالبعض دون البعض، وفِرَق الباطنية مع اختلاف طوائفها على ذلك.

وهذا الكلام يـ شمل حتى الفرق الحديثة من الباطنية، كالبابية والبهائية والقديانية، ومن قبل ذلك النصيرية والدرزية، والإسماعيلية، وغير هؤلاء، كذلك من أعرض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ [الـ سجدة: 22]، أو يرضى الإنسان بفشوِّ المنكر وانتشاره، والعمل على ترويجه في الأمة المسلمة، لا شك أن هذا ردَّة، ولكني أود أن أبين وأؤكد- أن الذي يرتد به الإنسان في هذه الحالة، هو الرضا بفشوِّ المنكر، وانتشاره، والعمل على ترويجه، ويلاحظ أنني أقول: الرضا؛ وذلك لأن من غلبته الـ شهوة فوقع في منكر مثلًا، أو كبيرة من الكبائر بـ سبب الـ شيطان، فهذا عاصٍ للرحمن -تبارك وتعالى.

ومن صور ومظاهر الردة أيـ ضًا سبُّ الدين أو الملة: والذي يـ سب في هذه الحالة يقـ صد الشريعة المطهرة والأحكام التي شرعها الله لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، فمن سبَّ الدين أو الملة على هذا المعنى؛ لا شك أنه مرتد كافر.

كما أنه أيضًا إذا لم يعترف الإنسان بأن كل نعمة هو فيها ظاهرة وباطنة حسية أو معنوية، هي من فضـــل الله، وأنها لولا الله ما كانت، فلو لم يعتقد ذلك؛ لا شـــك انه كافر برب العالمين سبحانه، وإعطاء غير الله أيـ ضًا إعطاؤه حق الأمر والنهي، وحق التحليل والتحريم، وحق التشـــريع وحق الحاكمية، أو الحكم بغير ما أنزل الله، أو الاحتكام إلى غيره -جل

وعلا، أو ا ستحباب الحياة الدنيا على الآخرة، وكل هؤلاء يطمئنون، وير ضون بما يفعلون، ويفضلون التحليل والتحريم الواقع من غير الله على حكم غير الله، لا شك أن هذا من أنواع الرِّدَّة، وقد بينت هذا بتفصيل أيضًا فيما مضى.

ومن هذا سوء الأدب مع ر سول الله صلى الله عليه و سلم قا صدًا إهانة النبي صلى الله عليه وسلم، أو الاستخفاف به صلى الله عليه وسلم.

العنصر الثاني: الصلاة منزلتها في الإسلام، وحكم تاركها

الصلاة ومنزلتها في الإسلام:

للصلاة في الإسلام منزلة لا تعدلها منزلة، فهي عماد الدين، وأعني بمنزلتها بين العبادات، هي عماد الدين الذي لا يقوم إلا به، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((رأس الأمر الإ سلام، وعموده ا لصلاة، وذِروة سنامه الجهاد في سبيل الله))، وهي أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات، وقد تولَّى الله إيجابها بمخاطبة ر سوله صلى الله عليه و سلم ليلة المعراج من غير واسطة، قال أنس رضي الله عنه: ((فُرضت الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم ليلة أُ سري به خم سين، ثم نق صت حتى جُعلت خم سًا، ثم نُودي يا محمد إنه لا يُبدل القول لدي، وإن لك بهذه الخمس خمسين))، رواه أحمد والنسائي والترمذي وصححه.

والصلاة أول ما يُحا سب عليه العبد يوم القيامة، فقد جاء ((إن أول ما يُحا سب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت؛ صلح سائر عمله، وإن فسدت؛ فسد سائر عمله))، وهي آخر وصية وصَّى بها رسول الله صلى الله عليه و سلم أمته عند مفارقة الدنيا؛ إذ جعل يقول صلى الله عليه و سلم وهو يلفظ أنفا سه الأخيرة: ((الصلاةَ الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم))، وهي آخر ما يُفقد من الدين، فإن ضاعت؛ ضا ع الدين كله.

والمتتبِّع لآيات القرآن الكريم يرى أن الله سبحانه وتعالى يذكر الصلاة ويقرنها بالذكر تارة، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: 45]، وقال -تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى 14: 15]، وقال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: 14]، وتارة يُقرنها بالزكاة كما في قوله ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: 110]، ومرة بالصبر كقوله سبحانه ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: 45]، ومرة أخرى بالنسك { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: 2]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام 162: 163]، وأحيانًا يفتتح بها أعمال البر ويختتمها بها كما في سورة المعارج، وفي أول سورة المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون 1: 2] إلى قوله سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون 9: 11].

وقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة، أن أمر بالمحافظة عليها في الحضر والسفر والأمن والخوف، فقال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة 238: 239]، وقال تعالى مبينًا كيفيتها في السفر والحرب والأمن:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء 101: 103].

وقد شدَّد الله سبحانه وتعالى النكير على من يُفرط فيها، وهدَّد ربنا سبحانه وتعالى الذين يضيعونها، فقال –جل شأنه: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: 59]، وقال سبحانه: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ } [الماعون 4: 5]، ولأن الصلاة من الأمور الكبرى، التي تحتاج إلى هداية خا صة، سأل إبراهيم عليه ال سلام ربه أن يجعله هو وذريته مقيمًا لها فقال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ [إبراهيم: 40].

بعد هذه الكلمة التي بينت فيها منزلة الصلاة في الإسلام، أقول في حكم تارك الصلاة:

لقد جاءت الأحاديث الصحاح، تنفي الإسلام على من ضيع الصلاة، كحديث ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة))، من تركها فقد كفر، أو تنفي الإسلام عن من ضيَّع الصوم أو الزكاة أو تركهما، أو أنكر الحج، أو رفض أداءه مع القدرة عليه؛ فدل هذا على أنه لا يُكتفَ بالتلفُّظ بلا إله إلا الله، ودلَّ على أنه لا بد من الحد الأدنى للإسلام، فأقول في بيان ذلك:

أولًا: إذا ورد الحكمُ في فريضةٍ بعينها، فلا يجوز سحب هذا الحكم على كل الفرائض، فحكم فريضة يختلف عن الأخرى، فليس حكم تارك الصلاة، كحكم تارك الصيام، أو الحج؛ فضلًا عن حكم تارك الآمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما شاكل ذلك.

ثانيًا: يجب ألا نخلط في الأحكام، وأن نُفرق بين المنكر والتارك، فلا يجوز التسوية بحالٍ في الحكمِ بين الجاحد والتارك؛ فالإنكار والجحود أو الاستهزاء بأيِّ فريضةٍ في الدين كفر، ولا خلاف في ذلك كما سبق بيانه وتوضيحه. أما الترك الكامل فهذا لم يقل أحد بكفر صاحبه في أيِّ فريضةٍ عدا الصلاة التي اختلفوا في حكم من تركها تكاسلًا، على نحو سأفصل القول فيه الآن.

وفي هذا يقول ابن القيم –رحمه الله– في كتابه (الصلاة وحكم تاركها): "لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس، وأخذ الأموال، ومن إثم الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وأنه متعرِّض لعقوبة الله وسخطه، وخزيه في الدنيا والآخرة".

ثم اختلفوا في قتله، وفي كيفية قتله وفي كفره: وقد أفتى أئمة الإسلام من السلف –رحمهم الله تعالى– بعد أن اختلفوا في كيفية قتله، هل سيكون بالسيف ضربًا أو نخسًا أو بالخشب، وقال البعض: يُحبس، واختلفوا في حكم استتابته قبل قتله، هل يُستتاب أم لا؟ على أقوال

كثيرة، الراجح منها: أنه يـ ستتاب، فهذا قُتِلَ لترك واجب ُشرعت له الا ستتابة، فكانت واجبةً كقتل الردة، واختلفوا هل يُقتل تارك الـ صلاة حدًّا أم كفرًا، هذا كلام الإمام –رحمه الله.

ثم سرد أدلة الذين لا يُكفرون تارك الـصلاة، وهي أدلة من القوة بمكان، ثم أورد أدلة الذين قالوا بكفر تارك الـصلاة من القرآن والسنة، وإجماع الـصحابة، وحَمَلَ المانعون من التكفير، أعني: الذين لا يُكفرون تارك الصلاة، حملوا الأحاديث الواردة على كفر تارك الصلاة، على كفر النعمة دون كفر الجحود.

ثم قال –رحمه الله: "معرفة الـصواب في هذه المسألة، مبني على معرفةِ حقيقةِ الإيمان والكفر، ثم يصـــح النفي والإثبات بعد ذلك، فالكفر والإيمان متقابلان إذا زال أحدهما خَلَفَهُ الآخر، ولما كان الإيمان أصلًا له شعب متعددة، وكلُّ شعبة منها تُسمى إيمانًا؛ فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج، والـ صيام، والأعمال الباطنة كالحياء، والتوكل، والخـ شية من الله، والإنابة إليه؛ حتى تنتهي هذه الـ شعب إلى إماطة الأذى عن الطريق، فإنه شعبة من شعب الإيمان.

وهذه الـ شعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كـ شعبة الـ شهادة، وهذا إجماع بين أهل العلم، فمن لم يعتقد بقلبه وينطق بلسانه بالشهادتين، لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لا شك أنه ليس بمسلم، ومنها ما لا يزول بزوالها، كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، منها ما يُلحق بـ شعبة الـ شهادة، ويكون إليها أقرب، ومنها ما يُلحق بشعبة إماطة الأذى عن الطريق، ويكون إليها أقرب.

وكذلك الكفر ذو أصل وشعب، فكما أن شعب الإيمانِ إيمانٌ، فشعبُ الكفرِ كفرٌ، والحياء شعبة من الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر، والـصلاة والزكاة والحج والـصيام من شعب الإيمان، وتركها من شعب الكفر، والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم

بغير ما أنزل الله من شعب الكفر، والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان".

ثم قال –رحمه الله: "الكفر نوعان: كفرُ عمل، وكفر جحود، وعناد، فكفر الجحود أن نكفر بما عُلم أن الر سول صلى الله عليه و سلم جاء به من عند الله –تبارك وتعالى– جحودًا وعنادًا، وذلك كأسماء الرب و صفاته وأفعاله وأحكامه، وهذا الكفر يُ ضادّ الإيمان من كل وجه، وأما كفر العمل: فينق سم إلى ما يـ ضاد الإيمان وإلى ما لا يُ ضاده، فال سجود لل صنم والا ستهانة بالمصحف، وقتل النبي صلى الله عليه وسلم وسبه يضاد الإيمان.

وأما الحكم بغير ما أنزل الله وترك ال صلاة، فهو من الكفر العملي قطعًا، ولا يمكن أن يُنفى عنه اســـم الكفر بعد أن أطلقه الله ورســـوله عليه؛ فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر، وتارك ال صلاة كافر، بنص حديث ر سول الله صلى الله عليه و سلم، ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد، وهذه طريقة مثلى، وقول وسط عند أهل السنة والجماعة، ومذهبهم في هذا مذهب صحيح؛ لأنهم يُق سمون الكفر والنفاق وال شرك إلى ق سمين، فيقولون: أكبر وأ صغر، ولا يلزم من قيامِ شعبةٍ من شعب الإيمان بالعبد، أن يُسمى مؤمنًا، وإن كان ما قام به إيمانًا، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر، أن يُسمى كافرًا، وإن كان ما قام به كفرًا".

وخلا صة القول في ذلك: أن تارك ال صلاة أمره خطير، وقد أطلق عليه النبي صلى الله عليه و سلم في بعض أحاديثه، وكذلك كثير من الصحابة أطلقوا كلمة الكفر على تارك الصلاة، إلا أننا من باب الاحتياط إن كان مقرًّا بوجوبها، م صدقًا بها، معتقدًا لذلك؛ فكفره في هذه الحالة من الكفر العملي (كفر النعمة) وليس من الكفر الاعتقادي.

غير أن بعض أهل العلم ك شيخ الإ سلام ابن تيمية –رحمه الله– يقول: "بأنه لا يُت صوَّر أن يوجد إن سان يقوم الإيمان بقلبه، ويـ شهد لله –تبارك وتعالى– بالوحدانية، ولنبيه صلى الله عليه و سلم بالنبوة والر سالة، ثم لا يركع لله ركعة، ولا يـ سجد لله سجدة، هذا لا يتـ صور

أبدًا، أن يقع ممن اعتقد الإيمان وقام في قلبه، بل يتصـــور أن يكون هذا زنديق"، والمســـألة خلافية بين أهل العلم كما ذكرت، ولكني أوثر أن يكون الكفر هنا كفرًا عمليًّا، وهو كفرٌ دونَ كُفْرٍ.

وختام القول في ذلك: أن أذكر مناظرة وردت بين الإمامين أحمد والشافعي، وقد ذكرها السبكي –رحمه الله– في (طبقات الشافعية): "أن الشافعي وأحمد رحمهما الله تناظرَا في تارك الصلاة، فقال الشافعي: يا أحمد أتقول: إنه يكفر؟ قال: نعم، قال: إذا كان كافرًا فبما يسلم؟ قال: يقول: لا الله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الشافعي: فالرجل مستديم لهذا القول لم يتركه، قال: يُسلم بأن يصلي، قال: صلاة الكافر لا تصح، ولا يُحكم له بالإسلام بها، فسكت الإمام أحمد –رحمهما الله تبارك وتعالى".

الدرس السابع: كلمة التوحيد تشتمل على الكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله

عناصر الدرس

العنصر الأول: ذكر معنى الطاغوت ومعنى الكفر به

العنصر الثاني: ذكر نماذج من الأرباب الباطلة والآلهة المزيفة

العنصر الأول: ذكر معنى الطاغوت ومعنى الكفر به

أ. معنى الطاغوت:

الطاغوت في اللغة: من الطُّغيان، وهو: كل ما زاد عن الحد المقرر له، وكانت العرب تُطلق ا سم الطاغوت أيضًا على كل ما عُبد من دون الله -تبارك وتعالى- وفي ذلك يقول الإمام القرطبي رحمه الله: "والطاغوت مؤنثه من طغى يطغو، إذا جاوز الحَدّ بِزيادة عليه".

وقيل: أصلُ طاغوت في اللغة: مأخوذٌ من الطُّغيان وهو يؤدي معناه من غير اشتقاق.

قال الجوهري -رحمه الله: والطاغوت الكاهن، وال شيطان، وكل رأس في ال ضلال، والجمع طواغية، وعلى ذلك، فإن الطاغوت قد يكون وثنًا، أو الصنم أو الشخص، وقد يكون ذات ال شريعة الزائدة عن حد الله -تبارك وتعالى، ولقد أحسَن من عرَّف الطاغوت بقوله: "كل ما تجاوز به العبد حدَّه من متبوع أو مطاع، وكل من تجاوز الحد في اتباع غير الله -تبارك وتعالى، أو طاعته، أو عبد غير الله -تبارك وتعالى- فيكون قد جعل هذا المتخذ -أعني: المعبود أو المطاع- طاغوتًا من دون الله -تبارك وتعالى.

ويهمنا هنا أن نعرف الكلمات والآيات التي ورد فيها لفظ الطاغوت في القرآن الكريم، ولقد ورَد لَفظُ الطّاغُوت في القرآن الكريم ثماني مرات.

المرة الأولى في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ [البقرة: 256] وهذه الآية وردت في سورة البقرة، ومعنى الطاغوت الوارد في هذه الآية: الأصنام أو الشيطان.

أما المرة الثانية: ففي قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة: 257] ومعنى الطاغوت أيضًا في هذه الآية الأصنام، أو الشيطان.

أما المرة الثالثة التي وَرَد فيها لفظ الطاغوت في القرآن: فقد جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: 51] والجبت والطاغوت ذَكر بعض العلماء أنهما صنمان لقريش ؛ وقيل: المُراد بالطاغوت هناالكاهن أو الشيطان.

أما المرة الرابعة: فقد جاءت في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ ﴾ [النساء: 60] والمراد بالذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، قيل بأن المراد بالطاغوت هنا: كثير من الطغيان، والمقصـــود به كعب بن الأشرف، اليهودي.

أما المرة الخامســـة: وهي ما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: 76]والمراد بالطاغوت هنا الشيطان.

أما المرة الـ ساد سة: وهي بمعنى الـ شيطان أيـ ًضا فقد وردت في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [المائدة: 60].

أما المرة الســـابعة: فقد جاءت في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: 36]. والمراد بالطاغوت هنا الأوثان، فالله سبحانه وتعالى يأمر كل أمة أرسل إليها رسول، أو جاء إليها نبي ويبين أن الله سبحانه وتعالى عندما أر سل النبي أو الر سول أمرهم بعبادة الله –تبارك وتعالى– وحده واجتناب الطاغوت.

أما المرة الثامنة والأخيرة التي ورد فيها لفظ الطاغوت في القرآن الكريم: فهي ما جاء في قول الحق تـ بارك و تـ عالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر: 17] والمراد بالطاغوت هنا أيضًا الأوثان.

وبعد ذكري لما ورد في القرآن الكريم من لفظ الـطاغوت، أقول: بأ نه يظهر بأن معنى الطاغوت في هذه الآيات، هو ما عُبد من دون الله سبحانه وتعالى من أ صنام أو مخلوقات أخرى.

وإذا ذُكر الإيمانُ مع الطّاغُوت وعبادة الله، والكُفر بالطّاغوت؛ وَجَبَ إذًا أن نُؤمن بالله ســـبحانه وتعالى وأن نُحقق العبادة له ســـبحانه وتعالى جل في علاه– مع ضـــرورة الكفر بالطاغوت، فإذا عبد إنـ سان ما أحدًا من دون الله سبحانه وتعالى، أو عبد أحدًا مع الله – تبارك وتعالى– كان ذلك كفر وشرك وعبادة للطاغوت، واستجابة للشيطان.

وإذا فُتن بعض الناس ببعض من يُعبد من دون الله –تبارك وتعالى– كان ذلك أيضًا لون من ألوان العصيان أو الفسوق، كالذي يفتنه الشيطان، أو السلطان، أو المال، أو المرأة، أو الذّهب، أو غير ذلك عن عبادة الله سبحانه وتعالى، ويفتنه فتنة تُلهيه عما وجب عليه، وتغويه بالسوء. وقد يُطلق عليه أنه يعبده، فالذي يفتن بمثل ما ذكرت آنفًا يمكن أن يطلق على أنه عابد لما افتتن به؛ فالذي يُفتن بالشيطان، أو السلطان، أو بالمال، أو بالمرأة، أو الذهب، أو غير ذلك؛ فقد يُطلق عليه أنه عبد كل ما ذُكر.

ومعنى هذا أنه أحبه حبًّا شديدًا، ويُمكنه أن يستجيب له، وأن يُطيعه طاعة عمياء؛ يُخالِفُ بهذه الطاعة طاعة الله، وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك ورد في الحديث: ((تِعسَ عَبدُ الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة؛ إن أعطي رضي، وإن لم يعطَ سخط)). فنلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم سمى من افتُتن بالدينار والدرهم. وغير ذلك عبدًا للدينار وللدرهم.

ب. معنى الكفر بالطاغوت: معنى الكفر بالطاغوت: أن نجحده، وأن ننكره، وأن نجتنب اتباعه، أو أن نعتقد أن له طاعة واجبة؛ بل يجبُ علينا ألا نطيعه بالفعل، وأن نُكذِّب بدعوته الخارجة عن حَدّ الله –تبارك وتعالى، والكُفر بالطاغوت يقتضي التخلي عن كل رب باطل، والكفر بكل إله زائف، هذا هو المقصود من قول: بأنه يجب علينا أن نكفر بالطاغوت، يعني: أن نترك كل ما عُبد من دون الله سبحانه وتعالى، فالرب أو الإله واحد، وأن نكفر بكل إله زائف كما ذكرت، والله –تبارك وتعالى– في كتابه يقول: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39].

ومقتضى ذلك: أنْ يَعْرِفَ العَبدُ، وأن يُقِرّ بـــ"لا إله إلا الله"؛ لأن الكفر بالطاغوت يلزم منه ذلك، و"لا إله إلا الله" هي قاعدة الدين، وأساس الإسلام، وهي التي يقومُ عليها بناء العقيدة الإ سلامية، وترتكز عليها التكاليف والفرائض، وبها تصحُّ العبادات، وتَستَمِدُّ منها الحقوق والواجبات.

القاعدة التي يجب أن نَفهمها، وأن نقومَ بها أولًا قبل الدخول في الأوامر والنواهي، وقبل الدخول في التكاليف والفرائض، وقبل الدخول في الأو ضاع والنظام، أو الـ شرائع والأحكام، هذه القاعدة التي يجب أن نعرفها ابتداءً، أن نعترف بربوبية الله -تبارك وتعالى- وحده، وأنه الخالق الرازق المدبر كما نعبده وحده دون سواه؛ فلا نُشرك معه أحدًا في ألوهيته، ولا نُشرك معه أحدًا في ربوبيته.

فمن اعترف بأن أحدًا مع الله ســـبحانه وتعالى، أو دون الله -تبارك وتعالى- يتصـــرف في شئون هذا الكون، في عالم الأ سباب والأقدار، ويعترف بأنه يمكن أن يُجازي العباد، أو أن يتدخَّل في أمر من أمور الحكم والـ شريعة، أو غير ذلك كل هذا من الطاغوت، ويجبُ على الإنســـان أن يَكفُر به، وأن يعترف بأن الله -تبارك وتعالى- وحده هو المُتصـــرّف في هذا الكون، وأنه هو المعبود وحده دون سواه، وأنّه هو الذي يُحاسب العباد ويجازيهم. لا بد أن يعترف بهذا كله، وأن يكون لديه توحيدٌ خالص في هذا كله، وأن يَبتعِدَ عن شوائب الشرك في ربوبية الله تعالى، أو ألوهيته، أو أسماء الله سبحانه وتعالى، أو صفاته سبحانه وتعالى جل في علاه.

كما أنه يجبُ علينا أن نعلم أن الطاغوت يُؤدي بمن ســـلكه إلى طرق الجرائم، وارتكاب الكبائر والفواحش وغير ذلك، ومن هُنا وجب الكفر بهذا الطاغوت، وأن يَرفع العبدُ وأن يرتفع العبد بـ ـــ"لا إله إلا الله" وأن يعتقدها اعتقادًا جازمًا، وإذا فعل ذلك نَقّى ضميره من أوشاب الشرك،

ونقى عقله من أو شاب الخرافة، ونقى مجتمعه من تقاليد الجاهلية، ونقى حياته من عبودية العباد لغير الله –تبارك وتعالى وحده جل في علاه.

ولذلك أقول: إن من مُقتضى الكفر بالطاغوت: أن ينتهي المرء المسلم عن كل ذلك، ويجبُ أن نعلم أن الشِّرك يجرّ إلى كل محرم، وهو المنكر الأول الذي يجبُ أن يُحشد الإنكار كله له؛ حتى يَعْتَرفَ النّاسُ أنه لا إله إلا الله، ولا رَبّ لهم إلا رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه، ولا حاكم لهم إلا الله، ولا مُشَرّع لهم إلا الله، كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير رب العالمين جل في علاه.

العنصر الثاني: ذكر نماذج من الأرباب الباطلة والآلهة المزيفة

من الذي ينبغي أن يكون إلهًا مع الله! أو من دون الله! أو شـــريكًا مع الله تبارك وتعالى، أو حتى معينًا له: أهو الصنم! أم الشجر! أم النار! أم البقر! أهي النجوم، أم الشمس، أم القمر، أم هو النمرود، أو فرعون، أو قارون، أو هو موسى عليه السلام، أو عيسى عليه السلام، أو غير هؤلاء من سائر أنبياء الله –تبارك وتعالى– ورُسله، أو يمكن أن نقول: بأنه يجوز لنا أن نعبد الجن، أو أن نعبد واحدًا منهم، أو أن نعبد الملائكة، أو نعبد زعيمًا منهم، من الذي يمكن أن يرشح لهذا المنصب الخطير ألا وهو أن يُعبد.

لقد عبد الناس أربابًا من دون الله –تبارك وتعالى، وكل ما ذكرته آنفًا هو في الحقيقة أصنامًا عبدها الناس من دون الله ســـبحانه وتعالى، أو آلهة توجه إليها بعض الناس، وجعلوها آلهة عندما صرفوا لهم نوعًا من العبادة، أو صرفوا لهم جُلّ العِبَادات أو كلها، دون رَبّ العَالمين جل في علاه، وإنني لو استعرضتُ جوانِبَ التّاريخِ؛ لرأيتُ أن من عُبد من دون الله سبحانه وتعالى هو ما أشرت إليه آنفًا، هؤلاء جميعًا لا يصلح الواحد منهم أن يكون إلهًا. ولعلي

أذكر واحدًا تلو الآخر؛ مبينًا فســـاد عبادة شـــيء من هؤلاء من دون رب العالمين جلَّ في علاه.

فالصّنَمُ مثلًا: هذا الحجر الأصم الأبكم الذي لا يسمعُ ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر، بل كان الجاهلي يقوم هو بصـــناعته ينحته، وأحيانًا يبول عليه ثم يعبده من دون الله -تبارك وتعالى. وقد كان بعض الجاهليين في العرب يفعلُ ذلك يصنع إلهًا ويبولُ عليه، أو يترك سائر الحيوانات يمنكنه أن تبول عليه، فهل هذا يمكن أن يكون إلهًا؟! هل هذا الحجر الذي هو قطعة من الأرض يصلحُ أن يكونَ إلهًا خالقًا رازقًا يُعبد من دون رب العالمين جل في علاه.

وإذا تركتُ الحديثَ عن الأصنام هل نقول: بأن الشجر يُمكن أن يعبد من دون الله -تبارك وتعالى، إنّنا لو نظرنا إلى أعظم شجرة، ونقول: مهما تأصلت جذورها أو طال ساقها، أو اخضـــرَّت أوراقها، أو أينعت ثمارها، أو طال أمدها؛ هل تصـــلح لتكون إلهًا مع الله يُدبّر أحوال الخلق، ويصلح شئون المخلوقين.

أم تلك النار التي عَبدها المجوس من دون الله سبحانه وتعالى، هذه النّار مهما كبرت، واشتدّ لهِيبُها، واحمرَّتْ نَارُها، وطالت مدة إيقادها، هل تصلح لتكون إلهًا يخلق ويرزق ويضر أو ينفع؟!

أو نقول: الأبقار التي أيضًا عُبدت في بعض البلاد من دون الله سبحانه وتعالى، هذا العجل مثلًا مهما زاد لحمه وشحمه، وكبرت قوته، وتجَمّل لونُه هل يصلح ليكون إلهًا، وهو يُوضع في أطباق الآكلين؟! ولا يصلح بلا شك والله -تبارك وتعالى- قد نعى على بني إسرائيل عبادتهم للعجل من دون رب العالمين سُبحانه، وبَيّن أنّ هذا العجل ليست عنده صفات الخالق؛ فكيف يُعبد من دون الله! كما قال رب العالمين جل في علاه: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ﴾

[الأعراف: 149]. ألا يوجَدُ عقل عند هؤلاء عندما يعبدون أصمّ لا يسمع كلامهم؛ لأنه وإن كان يسمع كلام غيره من الحيوانات إلا أنه لا يفهم هذا الكلام، ولا يُمكن أن يخاطبه إنسان.

ولو انتقلنا إلى النجوم مثلًا: كالشمس، أو القمر، أو غير ذلك من النجوم، هل يصلح شيء من هؤلاء؛ ليكون إلهًا يُعبد من دون الله سبحانه وتعالى هل الذي يغيب ويظهر، ويتحرك ويسكن، ويذهبُ ويجيء، ويكبر أحيانًا ويَصغُر أحيانًا أخرى، ويتجزَّأ ويتحول، هل يمكن لمن تجري عليه هذه العوارض أن يكون إلهًا قادرًا حكيمًا؟! لا يمكن بحال من الأحوال.

ولذلك أشار القرآن الكريم إلى أن كل ما ذُكر لا يمكن أن يكون إلهًا، أو أن يُتّخذ من دون رب العالمين سبحانه وتعالى معبودًا؛ لأنه لا توجد عنده صفات تؤهله لذلك، فهو لم يخلق، ولم يرزق، ولم يدبر، ولذلك بعدما ساق رب العالمين جل في علاه- بعضًا من آيات قدرته في الكون، وأشار فيها إلى خلقه لكثير من العوالم، كما جاء في مَطلع سورة النحل، التي عدَّد رب العالمين عز وجل كثيرًا مما أوجد وخلق في كونه.

بعد ما أشار في كثير من الآيات إلى شيء من هذه المخلوقات، عقب عليها ربنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: 17] يعني: أيها الإنسان كيف تسوي بين من خلق وأوجد، وبين من لا يقدر على أن يفعل شيئًا من ذلك! وصدق الله سبحانه وتعالى عندما أثبت العجز لكل ما عبد من دون رب العالمين سبحانه وتعالى، فقال في كتابه مثلًا: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: 195].

وفي صورة الأنعام نجد رب العالمين جل في علاه- يبطل عبادة الأصنام والكواكب، فقال - تبارك وتعالى- عن الأصنام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: 74]. هل استطاعت هذه الأصنام أن تُدافع عن نفسها حتى تدافع عن غيرها ساعة أن حطمها وكسرها خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وأين كانت عقول عبادها ساعة أن قالوا: ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 59].

وهذا يدلُّ على بطلان عبادة هذه الآلهة، ولعلهم كانوا يقولون ذلك، ولكنهم لا يُفكرون بعقولهم هذه الأصنام كيف تُؤخذ من دون الله -تبارك وتعالى- وهي لا يُمكن أن تحجب عن نفسها من يقوم بتحطيمها، ولا تستطيع أن تفعل شيئًا من ذلك؛ بل إن خليل الرّحمن إبراهيم عليه السلام قال لهم كلمة تهكم فيها عليهم، مبينًا لهم أنّ هذه الأصنام لا تَصلح أن تكون آلهة؛ لأنها لم تتمكَّن من أن تُدافع عن نفسها. وأشار خليل الرحمن إبراهيم إليهم بذلك عندما قال: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: 63].

أما عن الكواكب: فقد أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى أيضًا في كتابه أنها لا تصلح آلهة، وقد أبطل ربُّ العالمين سبحانه وتعالى أيضًا عبادتها على يد خَليلِ الرّحمن إبراهيم عليه السلام، وقد أثبتَ ذَلِك لعُبَّاد الكواكب على سبيل التدريج بهم؛ فإبراهيم عليه السلام تدرَّج في قومه من باب المحاجة معهم؛ ليُثبت بطلان ما هم عليه، تدرَّج معهم في الخطاب؛ ليبين أنّ هذه الأصنام التي يعتريها ما يعتريها، هذه الأصنام التي تظهر أحيانًا وتغيبُ في أحيانًا أخرى،

التي تكون كبيرة في بعض الأوقات و صغيرة في غيرها؛ هل يمكن لهذه الأ صنام أن تكون إلهًا يُعبد من دون رب العالمين جل في علاه؟!.

ولذلك قال لهم خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام فيما قال كما ذكر القرآن الكريم عنه: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ [الأنعام: 76، 77] وهكذا بدأ صلى الله عليه وسلم يتدرج بهم، وينتقل من كوكب إلى آخر، ثم يذكر ما لحق بهذا الكوكب مما يُنكر معه أن يقول لهم بأنه لا يصلح أن يكون إلهًا.

وبعض الناس في فترة من الزمن، عبدوا بعض رؤ سائهم، أو زعمائهم، أو ملوكهم من دون رب العالمين جل في علاه- فهل يَ صلُح الواحد من هؤلاء مهما أوتي من قوة، أن يكون إلهًا معبودًا حاشا وكلا.

ومن هؤلاء النمرود، فهذا الرّجل لا يصلح أن يكون إلهًا؛ لأن الإله عُرف بأنه قادر مُريد، وهذا الشخص ليس كذلك، فلقد عجز عن أمر بسيط جدًّا من أمور المخلوقات، والعاجزُ لا يَصلح أن يكون إلهًا، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى شيئًا لنا مِمّا دار بين خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وبين هذا الرجل، وقد جاء هذا في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة: 258].

وهذا والله آية بينة، ودلالة وا ضحة على عجز هؤلاء، وعلى أن الواحد منهم لا يـ صلح أن يكون إلهًا، ولكنه وللأ سف الـشديد عندما يبلُغ الكفر والطغيان بالإنـسان هذا المبلغ يحاجج

في ربه سبحانه وتعالى ومولاه، رغم أن الله هو المتفضل عليه؛ فهو الذي خلقه، وهو الذي يدبر أمره، وإن كان عنده شـــيء من الملك. فليعلم أن الذي أعطاه الملك هو رب العالمين جل في علاه، فمالك الملك هو الله، ولذلك يقول الله ســـبحانه وتعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: 258].

ثم قال له إبراهيم عليه السلام معرفًا بربه، ولعله سأل إبراهيم عن ربه، فأراد أن يُعرفه بأن ربه سبحانه وتعالى هو الذي أوجد هذه الموجودات، وهو سبحانه وتعالى هو الذي يُميتها، ولذلك قال له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ فظن هذا الرجل بجهله أنه يُمكن أن يفعل ذلك؛ فـــــ ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنه يُمكن له أن يأتي إلى إنسان بريء غير متهم، فيقتله في التوِّ واللحظة، ثم يأتي إلى إنسان آخر قد حُكم مثلًا عليه بالإعدام وإنهاء الحياة، فيطلق صراحه، ويظن بذلك أنه أحيا وأمات.

فأتى له إبراهيم خليل الرحمن، بقضـــية أو بآية أو بمعجزة أو بأمر لا يمكن أن يفعله أبدًا أي مخلوق؛ لأنه لا يفعله إلا رب العالمين، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، أتى له إبراهيم عليه الســـلام وطلب منه أن يأتي بآية كونية، إنْ كان صَـــادِقًا فيما يذهب إليه؛ فقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ لأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك.

وقد حدثنا الله سبحانه وتعالى عن آخرين زعموا لأنفسهم أنهم آلهة، وأنهم أرباب، ومن أعظم من فعل ذلك فرعون الطاغية، الذي بعث الله –تبارك وتعالى– إليه موسى عليه السلام، هذا

الرجل وصل به الطغيان، ووصل به الكفر إلى أن قال لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38].

ومرة أخرى يقول لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]. فهو كأنه يريد أن يقول لهم: إن كان هناك رب غيري؛ فأنا أعلى هؤلاء الأرباب، فهل هذا الرّجل يُمكنه أن يكون إلهًا معبودًا.

فرعون في بيته كان لا يستطيعُ إنجاب الولد، لذلك قالت امرأة فرعون عن موسى عليه السلام: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: 9] هذا يدلُّ على عجز هذا الرجل، إنسانٌ بطبيعته البشرية لا يمكن أن يأتي بما يأتي أو بما يكون عند غيره من البشر، بإرادة رب العالمين -سبحانه- يحجب الله سبحانه وتعالى عنه الولد، وتذهب زوجه، وتطلب منه إلى أن تتخذ موسى عليه السلام في بيتها لعله ينفعها، أو يكون مكان ولدها، وهو لا يستطيع الإنجاب؛ فهل مَن يكون كذلك يمكن أن يكون ربًّا أو إلهًا.

أيضًا هذا الطاغية لم يستطع أن يُجابه زَوجته يوم أن قالت وطلبت من ربها، كما ذكر القرآن الكريم ذلك: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: 11] وها هو مع قومه أيضًا بعد أن توعَّدهم يقول لهم: {فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: 71، 72].

هذا الرّجُل يواجه بهذه الكلمات، ممن كان يُطلق عليهم عبيده، ولكنهم واجهوه بهذه المواجهة، ولم يستطع هو أن ينفذ معهم شيئًا، أو أن يقوم بالوعيد الذي قاله لهم؛ لأنه لا يمكنه أن يفعل ذلك، ولأنه ليس ربًّا ولا إلهًا، ولذلك كانت نهايته أمام هؤلاء القوم الذين توعَّدهم؛ فلم يفعل، وإنما أهلكه رب العالمين –جل في علاه، وذلك عندما خرج يجري ويلهث وراء موسى عليه السلام ومن آمن به، لعله يدرك موسى، ولكن النهاية كانت أليمة عليه عندما أغرقه الله سبحانه وتعالى في البحر.

وهنا أقولُ: هل يمكن أن يكون هذا إلهًا وقد غرق؟ هل رأينا إلهًا يغرق؟! سبحان الله! وفي ذلك يقول رب العالمين جل في علاه: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس: 90] فقيل له: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: 91، 92].

ويَظهرُ من هذه الآيات أنّ فِرْعَونَ كانَ يَعلَمُ أنّه مَربوب، وقد صـــرح بما قام في قلبه عند غرقه، وصدق الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ ﴾ [النمل: 14] فقد جحدوا بهذه الآيات، وبالإيمان برب الأرباب –جل في علاه– رَغم أنّ قُلوبهم كانت في غاية اليقين، بأنهم مربوبون لرب العالمين جل في علاه.

وما قلته في النمروذ، أو في فرعون، أقوله في قارون، هذا الذي أُعطي من المال ما أعطي، وأعطي من الكنوز ما أعطي، وقال عن كنوزه وما له: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾

[القصص: 78]. وقد فَرِح واستكبر بما عنده، فماذا كانت نتيجته؟ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: 81]. فهل يُمكن أن يكون صاحب المال، أو الكنوز بماله وكنوزه إلهًا يُعبد من دون الله، هكذا يُهلك الله سبحانه وتعالى منهم من يُهلك، ويقضي على من يقضي منهم بالغرق وغير ذلك، ويتبيَّن لنا من خلال هذا أن الجميع لا يصلح أن يكون إلهًا يعبد من دون الله سبحانه وتعالى.

وإذا انتقلت إلى الجن، وقد عبد بعض الناس الجن من دون الله -تبارك وتعالى- وأنا أقول لهؤلاء: ما هي المؤهلات التي تُؤهل الجن ليُعبد من دون الله؟ وأي ميزة ترشحه لكي يُعبد؟ هذا الجن مخلوق ككل المخلوقات، والله -تبارك وتعالى- يقول: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ [الأنعام: 100]، وكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يدمغ هؤلاء الذين عبدوا الجن من دون الله، ويقول الله هذا الجن مخلوق من مخلوقات الله -تبارك وتعالى، فكيف يعبُد المخلوق المخلوق؟

أو أن يُشرك العبد بالله -تبارك وتعالى- ويجعَلُ أحدًا من المخلوقين مع الله، قال تبارك وتعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: 191] فالجن ضعيف، وإن كانت عنه قدرة على التشكل، إلا أنه لا يتمكَّن من أن يؤدي شيئًا لعبد طلب منه؛ لأنه أيضًا ضعيف ومخلوق.

صحيحٌ أنّ الجن قد تكون عنده بعض الأمور التي يمكن أن يتسلط بها على الإنسان، وعنده قدرة كما ذكرت على التشكل في أشكال مختلفة، إلا أنه مع كل ذلك فهو مربوبٌ مخلوق.

ونحن في دنيانا أعلمنا ربّنا أن الله سبحانه وتعالى قد حَفِظَ هذه السماوات بالشُّهب؛ حَتّى لا يتمكن الجن من أن يصعد فيَسْتَرِق السّمع، وإذا فعل واحد من الجن ذلك أتبعه شهاب ثاقب، يُرسله رب العالمين عليه فيحرقه، فهل بعد هذا من ضعف عند هؤلاء الجن؟!. رب العالمين هكذا يُحاسب المخالف منهم، بما يحاسبهم به.

وبالتالي أقول أيضًا: إنّ المَلائِكَة خلق من خلق الله -تبارك وتعالى- إلا أنهم لا يُعبدون من دونِ رَبّ العالمين، وفي ذلك يقول رب العالمين سبحانه: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: 172] فالمَلائكة المقربون ليسوا آلهة، وإنّما هم عباد من عباد ربّ العَالمين جل في علاه، وقد ردَّ الله سبحانه وتعالى في كلمة واحدة على من اتخذوا الملائكة بنات لرب العالمين جلَّ في علاه- فقال: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: 19].

وما قلته في الجن والملائكة، أقوله في أنبياء الله ورسله، فهل عُزير الذي قال اليهود عنه بأنه ابن لله، أو عيسى عليه السلام الذي قيل فيه ذلك، وقد عُبد من دون رب العالمين جل في علاه- هل يصلح واحدٌ منهم أن يكون إلهًا؟ قال الله سبحانه وتعالى عن اليَهود والنصارى، وماذا قالوا في عيسى عليه السلام، وماذا قال اليهود في عزير، وهذا جاء في قوله سبحانه:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: 30].

ثم نقول بعد هذا: بالنسبة لنبي الله عيسى عليه السلام لما كان عيسى بالذات ولدًا لله كما زعم البعض، ثم ما وجه الحاجة إليه، ثم ما الذي يرشحه؛ ليكون ولدًا لله دون بقية الخلق؟ فلا يقال: إنما اختِير عيسى بالذات؛ لأنه خُلق بدون أبٍ، قلنا: ذلك له مثاله في الكون، وهو أمثلة على قدرة الله تعالى، وعلى إيجاده للمخلوقات بسبب وبدون سبب.

فإذا قلنا: بأن عيسى عليه السلام خُلق بِدُون أبٍ، وهذه حقيقة؛ فحواء خُلقت بدون أم، فما ميزة عيسى عليه السلام عليها، وما الدّافع لأن يُعبد عيسى إذًا؟ لأنه خُلق بدون أب، بل إنّ آدم عليه السلام خُلق بدون أب وأم، وكذلك الملائكة. فما الميزة إذًا؟ بل الميزة لغيره؛ إذ أن آدم عليه السلام خُلق بدون أب وأم وسواه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وخلقه في الملأ الأعلى، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، ولم يجر من مجرى البول، ولم يكن طفلًا أو رضيعًا.

ومع ذلك قال رب العالمين جل في علاه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59].

ومن المعلوم أن الله –تبارك وتعالى– خَلَق خلقه على أربعة أنحاء، أو على أربعة أوجه: فخلق آدم من غير أب، ومن غير أم، وخلق حواء من آدم عليه السلام، وخلق عيسى من مريم –عليها السلام، وبقية الخلق يتناسلون كما هو معلوم عن طريق التزاوج.

ثم نقول في النهاية أيضًا: ما وجه الحاجة إلى أن يكون عيسى إلهًا، أالله –تبارك وتعالى– محتاج إليه في شئونه وأعماله؟! وحاشاه، فهو الغني عن العالمين، وهو القائل جل في علاه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: 15]، أم أن الله يحتاجه كولي يعهد له من بعده في أمر من أمور الخلق، أو بالخلافة أو بالتدبير، أو غير ذلك

-سبحان الله وتعالى- عن ذلك، فهو الحيُّ الدّائِمُ البَاقِي -جل في علاه- والجميع هالك ومنتهٍ، كما قال -تبارك وتعالى- في كتابه: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: 88].

كما أنه عز وجل أثنى على نفسه، وذكرها بجليل الذكر وجميل الصفات فقال مثلًا: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: 58]. ثم نقول: ما الميزة التي امتاز بها عيسى عليه السلام عن الخلق جميعهم حتى يكون ابنًا لله؛ فقد عرفنا أن الابن فيه كثير من خصائص الأب، فابن الغني يتضح عليه غنى أبيه، وابن الملك تتضح عليه علامات الإمارة، وأبناء الرؤساء والملوك كذلك، فما الذي امتاز به عيسى حتى يكون ابنًا لمالك الملوك، والغني عن العالمين.

لقد عَرفنا عنه كما حدَّثنا القرآن الكريم أنه كان بشرًا كبقية البشر، وأنه لم يتميَّز عنه صلى الله عليه وسلم في شيء؛ حتى فيما يراه الإنسان، خسيسة في نفسه وهو البول والغائط، فلقد رأينا أن عيسى عليه السلام يأكل ويشرب، ويبول ويتغوط، وينام ويستيقظ، ويموت ويولد، وسيموت صلى الله عليه وسلم. فهل من كان كذلك يصلح أن يكون إلهًا، أو ابنًا للإله؟!.

والقرآن الكريم يَحكي ذلك في مشاهد متعددة أذكر بعضًا منها هنا كما جاء في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: 17]، وقال سبحانه أيضًا: { لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى

وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: 72].

وكذلك قال سبحانه وتعالى مبينًا شأن عيسى عليه السلام، وأنه عبد مخلوق فقال -تبارك وتعالى- في كتابه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزخرف: 59]، كما قال سبحانه: {مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة: 75]، وقال جل في علاه: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: 116].

وهنا نلاحظ أن عيسى عليه السلام يتبرَّأ مِمّا زَعَمه قومه فيه، وأنّه إله، وأنه صلى الله عليه وسلم نزَّه ربه من أن ينسب إليه شيئًا من ذلك، أو أن يكون هو إلهًا مع رب العالمين سبحانه ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: 116]. وقد توسَّعت شيئًا ما في الكلام على عيسى عليه السلام؛ لأن بعضًا من الناس اليوم، بل إن كثيرًا من البشرية في عالم اليوم قد عبد عيسى من دون رب العالمين، والمخلوقُ لا يصلح أن يكون إلهًا.

ولذلك أقول: إنه من المستحيل أن يوجد في الكون إلهان، وكيف يمكن أن يكون هذا في كون رب العالمين، ورب العالمين سبحانه إله واحد خالق الخلق، ومدبر الأمر، الله جل في

علاه، وقد نزَّه نفسه من أن يكون معه شريك في كونه وملكه فقال جل في علاه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: 91].

وختامًا: بعد ذكري لنماذج من أرباب باطلة، وآلهة مُزيفة، عُبدت من دون رَبّ العَالمين جل في علاه- أقول: هذه كُلّها لا تَصْلُح أن تكون آلهة، ولذلك يجبُ أن نكفر بها؛ لأنها من الطواغيت، ولا بد لكي يتحقق الإيمان بالله أن نكفر بالطاغوت، ولذلك قال أئمتنا وعلماؤنا -رحمهم الله تبارك وتعالى: "إنّ الولاء والبراء من لوازم الإيمان".

ومعنى ذلك: أننا نعبد الله سبحانه وتعالى، ونُعلن عن عبوديتنا لربنا وحده دون سواه، ويجبُ علينا في نفس الوقت أن نتبرَّأ مما عُبد من دون رب العالمين جل في علاه.

ولقد ضرب الله -تبارك وتعالى- في كتابه أمثلة متعددة عن أنبيائه ورسله، وكيف أنهم توجهوا بالكلية إلى الله، وعادوا أعداء الله، وكفروا بمن عُبد من دون الله -تبارك وتعالى، ومن هؤلاء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الذي قال ربه عنه في كتابه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم 41 - 45].

كل هذا براءةٌ من خليل الرحمن إبراهيم لكل ما عُبد من أصنام، أو آلهة من دون رب العالمين سبحانه، ولما لم يستجب قومه له، وأبوه له اعتزلهم، وهذا أيضًا لون من ألوان الكفر بالطاغوت، ولذلك ذكر القرآن الكريم عن أنه قال لقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: 48، 49]. إذًا لا بد من الإيمان بالله –تبارك وتعالى– أن نكفر بالطاغوت، وبكل ما عُبد من دون رب العالمين.

الدرس الثامن: مقتضيات الإيمان بالله تعالى

عناصر الدرس

العنصر الأول: الإيمان بوجود الله وأنه حقيقة الحقائق

العنصر الثاني: أسباب الإلحاد والرد على الملاحدة

العنصر الأول: الإيمان بوجود الله وأنه حقيقة الحقائق

أ. قضية وجود الله -تبارك وتعالى:

إن قضية وجود الله سبحانه وتعالى من المسائل المسلَّمة عندنا نحن أهل الإيمان، وقد سبقت الإ شارة إلى أن كلمة "لا إله إلا الله" تعني: الكفر بالطاغوت، والإيمان برب العالمين جل في علاه- فهذه الكلمة في ن صفها الأول: "لا إله" تعني: الكفر بالطاغوت، وفي ن صفها الثاني تعني وجوب الإيمان برب العالمين جل في علاه.

وهذا ي شتمل على م سائل متعدِّدة، منها: الإيمانُ بوجود رب العالمين جلّ في عُلاه. الإيمان بوجود الله ســـبحانه وتعالى من البداهات التي يُدركها الإنســـان بفطرته، ويَهتدي إليها بطبيعته، وليس من م سائل العلوم المعقدة، ولا من حَقائق التفكير العوي صة، ولولا أن شِدّة الظهور قد تلد الخفاء، واقتراب المســـافة جدًّا قد يُعطل الرؤيا؛ ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد، والأمر في هذا كما قال رب العالمين جل في علاه: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: 10].

وقد جاءت الر سل لت صحيح فكرة الناس عن الألوهية، لا لإثبات وجودها؛ فالإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى أمر فطري في النفوس، فالناس وإن عرفوا الله بطبيعتهم، إلّا أَنّهم أخطئوا في الإ شراك به، والفَهم عنه، ولذلك كان إر سال الأنبياء والمر سلين ليردُّوا الناس إلى الأمر الأول، ويُبصّـــروهم أكثر بتوحيد العبادة، أو توحيد الألوهية الذي وقع فيه بعض الناس في الشـــرك، أما الإيمان بوجود الله، وبربوبية رب العالمين جل في علاه، هو أمرٌ لا يَحتاجُ إلى كثير من الأدلة؛ لأنه أمر فطري في النفوس.

والله سبحانه وتعالى قد بين أن مرتكز وأساس دعوة الأنبياء والمر سلين هي الدعوة إلى عبادة الله وحده دون سواه؛ كما قال -تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا

نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 25]، ولذلك قال الإمام الغزالي –رحمه الله– في (الإحياء) كلمات تبين حقًّا أن الإحياء أن الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى أمر لا يحتاج إلى مقدمات كثيرة، ومن هنا قال: "اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف، وأسبقها إلى الأفهام، وأسهلها على العقول، ولكن ترى الأمر بالضد من ذلك، فلا بد من بيان السبب".

فهو –رحمه الله تبارك وتعالى– يقول: هذا من أظهر الأمور، ولكن ظهر خفاء عند بعض الناس في هذا الأمر، ويَذكر هو –رحمه الله تبارك وتعالى– السبب الذي أدى إلى غموض هذا الأمر عند بعض الناس، ولماذا قصرت أفهامهم عن أن يعرفوه، وأن يقفوا على حقيقته؟ وقد ذكر هو سببين لذلك، قال في السبب الأول: "خفاؤه في نفسه وغموضه، وذلك لا يخفى مثاله".

أما الثاني فقال: "ما يتناهى وضوحه، إن الخفاش يُبصر بالليل، ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، ولكن لشدة ظهوره؛ فإن بصره ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت؛ فتكون قوت ظهوره مع ضعف بصره سبب لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئًا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام، وضعف ظهوره فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر بظهوره، ولا يُتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور؛ فإن الأشياء تُستبان بأضدادها.

والله –تبارك وتعالى– هو أظهر الأمور، وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم، أو غَيبةٌ أو تغير؛ لانهدمت السماوات والأرض، وبَطُل المُلك والملكوت، ولأدركت بذلك التفرقة بين الحالين، ولو كان بعض الأشياء موجودًا به، وبعضها موجودًا بغيره؛ لأدركت التفرقة أيضًا بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد، ووجوده

سبحانه وتعالى دائم في الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أنه أورثت شدَّة الظهور الخفاء؛ فهذا هو السبب في قصور الأفهام:

ويُنكر ضوء الشمس من * ويُنكر صوت الرعد من به

ولقد أحسن الغزالي –رحمه الله تبارك وتعالى– في ذكره لهذا السبب: لماذا قصرت عقول الخلق عن الإيمان، والتسليم بوجود رب العالمين؟ ذلك لأنه سبحانه وتعالى في غاية من الظهور جل في علاه. ووضوح رب العالمين سبحانه وتعالى في مخلوقاته ظاهر لا يُنكر. فالأعمى إذا أنكر ضوء الشمس لا يدل ذلك على أن الشمس ليست بموجودة.

وإذا أنكر الأصم صوت الرّعد لا يدلُّ ذلك على عدم حدوثه، الملاحدة أنكروا قديمًا وحديثًا وجود الله سبحانه وتعالى لا لعدم رؤيتهم له، وهل كل شيء في الوجود نراه، ولكنّ الإلحاد بَلغ بهم هذا المبلغ بسبب كفرهم برب العالمين جل في علاه.

إننا نؤمن بوجود الروح، ونُدرك أننا أحياء، ولسنا نرى الروح، أو نعلم ماهيتها؛ فإننا إذا رأينا إنسانًا يكتب أو يخيط مثلًا، كان كونه حيًّا عندنا من أظهر الموجودات؛ فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للكتابة أو الخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة، وإن كنا لا نرى بأعيننا حياته وقدرته وإرادته إلا بحركته، والله –تبارك وتعالى– فوق كل ذلك آثاره شاهدة عليه، تدل عليه جل في علاه.

فهو سبحانه وتعالى كل أمر أوجده في كونه ينادي بلسان حاله أنه هو الذي خَلَقَ، ويُنادي أيضًا بلسان حاله وجود رَبّ العَالمين سبحانه وتعالى؛ لأن هذه الموجودات التي أوجدها رب العالمين؛ لا بد لها من موجد أوجدها، ومحرك حركها، ماذا يقول المرء في وجود الله سبحانه وتعالى الذي لا تُحصى أدلته لكثرتها؟ وماذا يقول في أوصافه التي يشهد كل شيء بعظمتها؟

إن وجود الله –تبارك وتعالى– وقدرته وعلمه سبحانه وتعالى، و سائر صفاته يـ شهد له بالضرورة، كل ما نشاهده وندركه بحواسنا الظاهرة والباطنة.

وهذا هو السبب الثاني، الذي ربما كان سببًا عند البعض في أنه يذهب إلى إنكار وجود الله سبحانه وتعالى؛ لأن الأمر وا ضح غاية الو ضوح، وأحيانًا يغيبُ هذا الو ضوح عن بعض العقول، وعن بعض العقلاء.

إننا نؤمنُ مثلًا بوجود العقل، و ندرك أننا عقلاء، ومع ذلك لا نرى العقل، ولا نعرف ماهيته، والذي يطلبُ منا أن نُنكر كل ما لا نراه، ولا يقع تحت حس الحواس الخمس، عليه أن يُعلن أمام الجميع أنه مجنون، وساعتها لا نُصدقه ولا نَسمعُ منه؛ لأنّه رُفع عنه التكليف.

ومما يُستأنس به في هذا المقام: أنّ مدرسًا ممن أرادوا تعليم الشيوعية للتلاميذ، قال لهم: "أي: أولادي: أترون الباب، أترون الشباك، أترون السبورة، أترون الأستاذ؟ والإجابة في كل هذا نعم؛ لأنهم حقًّا يشاهدون ما يسألون عنه، فيقول لهم بعد ذلك: إذًا هو موجود –يعني كل ما ذكر من الباب، والـ شباك، والـ سبورة موجود– ثم يقول لهم: أترون الله؟ قالوا: لا، قال: إذًا هو غير موجود؛ فقام تلميذٌ نجيب يقول مثلما قال الأ ستاذ، ويسأل نفسه نفس أ سئلته، إلى أن قال: أترون الأستاذ؟ قالوا: نعم، قال: فالأستاذ موجود، ثم قال: أترون عقل الأستاذ؟ قالوا: لا، قال: فعقل الأستاذ غير موجود، الأستاذ إذًا مجنون".

ونحنُ نوقن بوجود الجاذبية الأرضية، و لم تقع تحت حواسنا، ومع ذلك فهي حقيقة علمية لا ســـبيل إلى إنكارها، ونعتقد بوجود الكهرباء، ولا نعلم ماهيتها، ولكننا اعتقدنا وجودها لرؤية آثارها، وهو الـ ضياء والنور؛ فالأثر يدل على المؤثِّر، والـ صنعة تدل على الـ صانع، والكلام يدل على المتكلم، والعلم يدل على العالم، وهكذا.

أوَلـ سنا نَدُلّ بأنفـ سنا وأجـ سامنا، وحوا سنا وأو صافنا، وتَقَلُّب أحوالنا، وتغيُّر قلوبنا وجميع أطوالنا في حركاتنا و سكناتنا، على خالقنا وربنا سبحانه وتعالى، أو ليس كل ما نـ شاهده

من حجر ومدر، ونبات وشجر، وحيوان وجماد، وسماء وأرض، وكواكب، وبر وبحر، ونار وهواء، وذرة ومجرة، وجوهر وعرض، ألا يدلُّ ذلك على رب العالمين -سبحانه- الخالق البارئ المصور، وصدق الشاعر في قوله:

وفي كل شيء له آية * تدل على أنه الواحد

ومع ذلك فرؤية الله سبحانه وتعالى ليست مستحيلة، فهو سبحانه وتعالى وإن كنا لا نراه في الدنيا إلا أن رؤيته ليست بمستحيلة، وإنّما نحن الذين لا نستطيع أن نراه سبحانه وتعالى في الدار الدنيا؛ لضعف حالنا، ولكن في الدار الآخرة نكون مؤهلين لرؤية ربنا جل في علاه، وهذا يقع لأهل الإيمان في الدار الآخرة، كما قال رب العالمين -سبحانه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: 22، 23]، وقال تعالى جل في علاه: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: 26] والزيادة: هي رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة للمؤمنين، وأما في الدنيا فإننا لا نستطيع ذلك بحالنا هذه.

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى لنا المثل بكليم الله موسى عليه السلام، وبيَّن لنا أنه مع نبوته وقوته وكلامه مع الله، وكلام الله له، لم يستطع رؤية الله سبحانه وتعالى؛ إذ عجز الجبل مع قوته ورسوخه أن يثبت بتجلي الله عليه؛ فدك الجبل بموسى عليه السلام، وهذا لا يعني أن الله سبحانه وتعالى غير موجود؛ لأنه لا يرى ولكن البشر هم الذين لا يتحملون رؤيته.

والشاهد من كل ذلك: أن كل ما في العوالم يَدُلّ على الله -تبارك تعالى، وأنه سبحانه وتعالى من أظهر الموجودات، وأجلاها، وأما إذا قصد الإنسان بعقله الضعيف عن الوصول إلى ذلك فما كان هذا إلا بسبب وضوح هذا الأمر وجلائه عنده ولديه، وأنه سبحانه وتعالى حجب

نفسه عن خلقه في الدار الدنيا جل في علاه، ولكنه يُري الدار الآخرة، وهذا أمر بحمد الله مُقرَّر عند أهل السنة والجماعة.

ب. فطرية الإقرار بالربوبية:

إن الإقرار بالربوبية أمر فطري في النفوس، وعُقلاء الناس في كل زمان ومكان يتحاشون دائمًا أن ينسبوا شيئًا من صفات الربوبية لغير الرب -تبارك وتعالى؛ لأن الرب هو الذي خلق، ولا رب غيره، وهو الذي رزق ولا رازق سواه، والإنسان صاحب الفطرة السليمة يعرف ذلك ويوقن به

ويكفي شاهدًا على هذه الحقيقة: اعتراف مُشركي العرب حين نزول القرآن الكريم، وهم يُدعون إلى عبادة الله وحده، اعترافهم بعدم صلاحية آلهتهم لشيء من صفات الربوبية، وحقائقها، مع شدة تعصبهم لتلك الآلهة، وتقديسهم لها، وتعظيمهم؛ فإنهم كانوا لا يتردَّدون في الاعتراف بعدم صلاحية الإنسان؛ فضلًا عن غيره من التماثيل، والأصنام للاتصاف بصفات الربوبية، فلم يكونوا ينتحلونها لأفرادهم، ولا لآلهتهم، ولا يدَّعونها لهم بحال، وذلك لما وقر في نفوسهم بحكم الفطرة البشرية من عجز المخلوقين عن الخلق والرزق، والتدبير والملك.

وقد سجل القرآن الكريم عجزه واعترافه في غير آية في كتاب رب العالمين، ومن ذلك قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: 31] إذًا لما سُئِلَ المشركون عن الذي يرزقهم في السماء والأرض، أو الذي يملك السمع والأبصار، أو الذي يُخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي؛ فلم يكن لديهم جواب إلا رب العالمين جل في علاه.

ومن أوضـــح ما يدل على ذلك ما جاء في قول الله –تبارك تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: 9] كما قال ربنا سـبحانه وتعالى أيضـًا: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: 86، 87]، وقال أيضًا كما في سورة الزخرف: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: 87].

إذًا الإقرار بالربوبية فطري في النفوس، ولذلك أقول: بأنه لن يعرف في العالم أجمع أن زعم إنسان لنفسه أنه خالق، أو أنه رازق، أو أنه مدبر، ولم يأتِ فيما أعلم من قال بأن في هذا الكون خالقين متماثلين في جميع الصفات.

بل إنّ المَجوس الذين قالوا بإلهين، قالوا بإله للظلام، وإله للنور، قالوا أيضًا بأن هناك تَفاوتٌ بينهما، ولذلك قالوا: بأن إله الخير، أو بأن إله النور أفضل من إله الظلام، وهكذا ما وُجد من يزعم أو يدَّعي لنفسه ذلك على سبيل الحقيقة.

وقد يقول قائل: فرعون قال: أنا ربكم الأعلى، أقول: فرعون كان يتظاهر بالإنكار، ولكنه كان يعتقد غاية الاعتقاد أنه مخلوق مربوب، وأنه ليس برب، ولا إله. ولقد ســجل القرآن الكريم ذلك عنه، ففي قول الله –تبارك وتعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: 14] دليل واضـــح على أن الأمر كان يتبينه فرعون غاية التبين، ولكنه جحد بوجود الله ســبحانه وتعالى من باب التعالي والتظاهر، والبغي، والظلم، والعدوان.

ولذلك قال له موســى عليه الســلام كما ذكر القرآن الكريم عنه: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ

﴿هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ [الإسراء: 102].

يقول لهذا الطاغية: أنت تعلم تمام العلم واليقين، أنّ مَا جِئتُ به إنما هو من عند رب العالمين، ولكني أظنك هالك، عندما لا تؤمن بالله سبحانه وتعالى. ومن تاريخ فرعون أيضًا يمكني أن أقول بأن فرعون كان يعتقد أنه مربوب، وأنه لا يملك شيئًا، وأنه يخاف حتى من الأطفال، والدليل على ذلك أنه لما أعلمه كاهن من كُهان بني إسرائيل، أنهم سيولد مولود يكون نهاية ملكه على يديه، خاف من الأطفال، وأصبح يقتِّل الأطفال، وهم أطفال لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

فلو كان فرعون يعتقد حقًّا أنه ربٌّ، وأنه يتحكَّم في هذا الكون، هل كان يمكن أن يخاف من الأطفال، لا يمكن أبدًا، وهذا يَدُلّ حقًّا على أن الربوبية الإيمان بها أمر فطري في النفوس، وأن ما ذُكر ذلك عن قوم في أنحاء الدنيا من هنا أو هناك، يدل على أن هذا من باب البغي والظلم والعدوان، والتظاهر بالإنكار.

العنصر الثاني: أسباب الإلحاد والرد على الملاحدة

قد يسأل الإنسان، فيقول بأن الإلحاد ربما يكون ظاهرًا، توجد في بعض الأماكن، أو في بعض البلاد، أو في بعض الأزمنة، وقد كان هؤلاء الملاحدة لهم وجود، حتى أثناء بعثة النبي صلى الله عليه و سلم، وهم الذين حكى القرآن قولهم عندما قالوا: بأنهم يموتون أو يحيون، وكل ذلك من الدهر ليس إلا، فلا رب خلقهم، ولا هناك رب أماتهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: 24].

هؤلاء الملاحدة وُجدوا مع القول بأن الإيمان بالله من أظهر الأشياء، وأنه فطري في النفوس.

ما هي أسباب هذا الإلحاد:

أقول: إنّ العوامل التي ساعدت على انتشار الإلحاد في العالم، ومكّنت للمذهب الشيوعي الإلحادي المدمر في أوروبا وغيرها، وفي الشرق، الذي تمثّل في الاتحاد السوفيتي الهالك قديمًا، الذي ساعد في وجود الإلحاد أمور خمسة فيما أراها، والله أعلم:

على رأس هذه الأمور: ظلم الكنيسة النصرانية، وتحالفها مع الملوك النصارى على استعباد الشعوب النصرانية، واستذلالهم واستغلالهم باسم السلطة الروحية الدينية. إن الكنيسة ظلمت الناس ظلمًا كثيرًا، وهذا أدَّى إلى أن يكفر الناس بالدين، ويظهر الإلحاد والعياذ بالله -تبارك وتعالى.

السبب الثاني: فَسَادُ الدِّيانة النَّصرانية وبُطلانها، ومنافاتها للعقول، وتصادمها مع حاجات الإنسان الفطرية، والإنسان إذا وجد الدين الذي يدين به، يتنافى أو يُصادم الحاجات الضرورية التي يحتاج إليها، لا شك أنه يسهل عليه أن يتنكر لهذا الدين، وألا يؤمن به، وألا يعترف برب أو إله بعث رسولًا، أو أنه موجود يدبر أمر الكون.

السبب الثالث الذي أراه من الأسباب التي أوجدت الإلحاد في العالم: طفرة العلوم الكونية والصناعية والآلية طفرة أدهشت العقول وحيرتها، الأمر الذي حمل الناس على تصديق كل نظرية تأتي باسم العلم ونظرياته، وإن كانت النّظرية فرية ظاهرة، معلومٌ كَذِبُها، ومعروف كاذبها، وذلك لأن المرء إذا ضَعُف أمام أية قوة مادية أو روحية، يفقد كل قواه العقلية والبدنية، ويُصبح قابلًا لكل ما تُمليه عليه، مستجيبًا لكل ما تدعوه إليه، مصدقًا لكل ما تقوله وتخبر به.

أما السبب الرابع: فهو ميل الإنسان بطبعه إلى الشهوات، والملاذ، ونفوره من القيود، والأنظمة التي تُحد من ميوله وتوجه غرائزه، لا سيما إذا وجد مشجعًا على ذلك، مؤيدًا له في نزعته التحررية الإباحية التحللية من كل القيود الأخلاقية، والالتزامات الدينية الشرعية.

فنجدُ أنّ الإنسان يميلُ إلى الشهواتِ والملاذ، ومن هنا لا يريد أن يدخل تحت شريعة تحكمه، وبالتالي يتنكَّر لإله يُعبد، ويتنكر لرب خلق وأوجد، سبحان ربي جل في علاه.

أما السبب الخامس والأخير، الذي أراه من الأسباب التي أدت إلى وجود الإلحاد خاصة في هذه العصور والأزمنة المتأخرة: فهو غيبة الحكم الإسلامي، وخفوت نور الإسلام، وتقلص ظل سلطانه الروحي، وانحسار مده الخيري الذي كان يعطي البشرية في شتى أنحاء العالم، طاقات كبيرة من القيم الروحية، والأخلاق البشرية الفاضلة الكريمة؛ إذ الفترة الذي ظهر فيها المذهب المادي الشيوعي، كان الإسلام قد ران على عقائده رين الخرافات والضلالات، وحل بدياره الدمار، وبأسواق علومه ومعارفه الكساد والبوار؛ نتيجة لكيد أعدائه له، وغفلة بنيه عنه، فوجد لذلك المذهب الإلحادي الجو خاليًا للتضليل والمغالطة والفساد؛ فحكم على الأديان كلها بالبطلان، ونَسب كل ضعف في الناس إليها، وكفر بها، وحاربها، ووجَّه نقده إليها بلا هوادة.

أما الله لو وجد الإسلامُ، وكان مطبقًا، وكانت له راية عالية خفاقة، وقام به أصحابه كما يجبُ أن يقوموا به، ووجدت اختراعاتهم، وتفوقوا في كل مجالات الحياة العلمية، وسواء منها التقنية أو التشريعية، أو الروحية، أو غير ذلك؛ ما استطاع أعداء الإسلام أن ينالوا من الإسلام شيئًا، أو أن يدعو إلى الكفر برب العالمين – سبحانه– أو إنكار وجود رب العالمين جل في علاه.

هذه خمسة عوامل، كل واحد منها ساعد على نشر المذهب الإلحادي المُدمر الذي يجتاح بعض أنحاء في عالمنا اليوم، وقد يحوِّل البشرية إلى حيوانية من أحط ما تكون الحيوانية، إن لم يعارض بسرعة، ويوقف عند حدِّه، وإني لا أرى أن مذهبًا في العالم أو قوة ستعارضه، وتوقفه عند حده، فضلًا عن أن تبدِّده، وتقضي عليه إلا دين الإسلام؛ فالإسلام وحده هو الذي يستطيع أن يقف أمام هذا الإلحاد.

فالإســـلام وحده هو الذي يســـتطيع أن يقف أمام هذا الإلحاد؛ لأن أوروبا كانت بعلمها التقني التقدمي، كانت –وللأ سف ال شديد– هي ال ضحية الأولى، بل إن أوروبا هي التي جرت هذه المحنة على العالم الإن ساني، هذه المحنة التي خرج ب سببها الإلحاد ال شيوعي، إن الملاحدة هؤلاء خرجوا وللأ سف ال شديد من أوروبا، ولذلك أنا بقولي هذا لا أتجنى عليهم بحال من الأحوال، وإنما أقول بأن السبب في ذلك أوروبا؛ لأنها وقفت أمام الإسلام.

فبعد أن ظهر الإسلام، وعرفت أوروبا في الجملة صلاحيته لهداية البشر، وأنه هو الدين الذي يسعد الإنسان به في الدنيا والآخرة؛ فبدلًا من أن تعتنقه دينًا، وتحتضنه مبادئ خير و سعادة وإ سعاد، قاومته ووقفت في طريق تقدمه وانت شاره، ومن العجيب أنها حاربته با سم الدين المسيحي والنصراني؛ كأنها لم تدري أن الإسلام هو دين الله الحق، الذي أرسل به نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كافة.

وأما المسيحية فلم تكن سوى دين إقليمي محلي فقط؛ لأن عيسى عليه السلام لم يكن رسولًا إلى غير بني إسرائيل أبدًا، فقد قال هو بنفسه: "لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة"، وقال القرآن الكريم عنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: 6]

وهذا الرسول هو نبينا صلى الله عليه و سلم الذي أُرسل إلى الناس كافة، وقد قال فيما ثبت عنه في الحديث ال صحيح الذي أخرجه البخاري وم سلم وغيرهم قال: ((وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصـــة، وبُعثتُ إلى الناس كافة)). وقد قال الله عنه في كتابه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: 158].

والـ شاهد من ذلك: أنني أدعو العالم الغربي والـ شرقي إلى أن يتـ صدَّى للإلحاد، بدلًا من أن يرفعه وأن يقوم به. إن الإلحاد في ظل هذه العلوم العصرية والتقنية الحديثة ينبغي ألا يكون له وجود، وعلى رعاة الإلحاد في العالم أن يقفوا عند حدٍّ، وأن يتســـاءلوا كيف ينكروا رب العالمين سبحانه، ولماذا لا يدخلون في شريعة نبينا صلى الله عليه و سلم؟. وأنا أوجِّه حديثي إلى الغرب الكافر بصورة خاصة، وأقول: أنتم ستتحملون وزر هذا الإلحاد، الذي وجد في العالم؛ لأنكم حاربتم دين الإسلام، ولو تركتم دين رب العالمين سبحانه يسودُ وينتشرُ؛ ما وُجد هذا الإلحاد على ظهر الأرض اليوم. بعد أن بينت أسباب الإلحاد.

الرَّدُّ على شبهات الملاحدة:

بعد أن بينت وذكرت أسباب الإلحاد، أسوق أشهر ما استند إليه الملاحدة من شبهات، وكانت هذه الـ شبهات سببًا كما يزعمون في إنكار وجود رب العالمين جل في علاه: وقد استند الملاحدة إلى شبهات كثيرة:

قامت عندهم شبهة: من الذي خلق المخلوقات؟

قالوا: الطبيعة، نحن نقول لهم: الطبيعة هي المادة، وعناصـــر تكوينها من البرودة والحرارة، والرطوبة واليبوسة، والمواد المركبة منها، وهي الذرات المكونة من النوى المشتمل كل نواة منه على بروتون ونيترون وإلكترون، هل هذه العناصـــر من النوى والذرة والخصـــائص المشتملة عليها المادة، أوجدت نفسها فكونت ما يُسمى بالطبيعة؛ اللهم لا. إنّ هذا مما تُحيله العقول ولا تقبله أبدًا، إنّ معنى هذا الهُراء: أنّ الطبيعة أوجدت نفســـها أولًا، ثم أوجدت غيرها من الموجودات ثانيًا.

إنّ المادّة المركبة من عناصـــرها والمودع فيها خواصـــها وطباعها مفتقرة إلى من يوجد عناصرها، ويودع فيها خواصها، وحينئذٍ فهي حادثة مخلوقة، فكيف يصحُّ أن تكون إلهًا

خالقًا؛ يُنسب إليها الخلق والتكوين، والإبداع والتنظيم. سبحانك ربي والله إن هذا لضلال في العقول مبين.

إن العقول السليمة قد حكمت بحدوث المادة المركبة من عناصر عدة؛ إذ كل مركب حادث، وكل حادث مفتقر إلى محدث أحدثه طبعًا، كما قضى بذلك قانون العلِّيَّة، المُسَلّم به من جميع العقلاء، إنّ وجود مادة وحركة لها وهي طاقتها معلول؛ فلا بد له إذًا من علة اقتضت وجوده، وهو الإله سبحانه وتعالى والذي ليس بمادة، إذ لو كان غير أزليّ؛ لكان محدثًا -جل في علاه، ولو كان محدثًا لكان مادة، والمادة ميتة، فكيف تخرج الأحياء! هذا كلام لا بد أن يفهمه هؤلاء الملاحدة.

ونُبيِّن لهم أنّ الطّبيعة التي قال البعض: بأنها هي التي أوجدت هذه المخلوقات. أقول لهم في النهاية: إن الإبداع الموجود في الكون كله، علويِّه وسفليِّه، من الذرة إلى المجرة، شاهد حق، وقاضي عدل، باستحالة صدوره عن الطبيعة العمياء الميتة، أو عن الصُّدفة البعيدة عن كل حكمة، والخالية من كل إرادة.

وقد يقول الإنسان ما هي الصدفة؟ أقول: هذه هي الشبهة الثانية:

أن هذا الكون وُجد عن طريق الصدفة، وهذا في الحقيقة أمرٌ غريبٌ وعجيب، يضحك الإنسان منه، بل يخجل العاقل من ذكره، فهو كما ذكر بعض أهل العلم أضحوكة وأعجوبة، وأُبين بأنّ الصدفة لا يُمكن بحال من الأحوال أن توجد هذا الكون، بهذا النسق العجيب، وهذا النظام الدقيق، لا يُمكن بحال من الأحوال.

وأقول لهؤلاء أيضًا: إنه بمرور الزمن الطويل الذي يتكلَّم الناس فيه بأرقام هائلة، كمئات الملايين وغير هذا، هل يُمكن أو كان من خلال هذا الزمن الطويل أن أوجدت هذه الحياة نفسها؟ أو أنه وجدت خلية على الأرض من نفسها، من طريق الصدفة التي لا يعرفها

الإنسان، ولا يمكن أن يصدق بها عقل؛ هذه الصُّدفة كيف تخلق هذا الكون؟! كيف تُوجد هذا التدبير العظيم الذي أوجده رب العالمين؟

ولهذا ذكر بعض العلماء لإبطال فرية الصدفة في الخلق والإبداع أمثلة عديدة: قضوا بها على هذه النظرية العمياء الميتة المُخجلة، القائمة على أســـاس الوهم والخيال اللاشـــعوري، ومما ذكره هؤلاء العلماء، قالوا: إن الإبداع الموجود هل يمكن أن يقول عاقل بأنه وُجد عن طريق الصدفة لا غير؟ إن هذه الصدفة شأنها كشأن من يقول: إن دارًا للطباعة بها صندوق من الحروف، يكفي لتصفيف كتاب، فأصاب الدار هزة من زلزال عنيف؛ فتساقطت تلك الحروف على بعضها، فكونت بالصدفة كتابًا ذا أبواب وفصول علمية مختلفة، وفي مواضع شتَّى منه.

إنّ من يقول ذلك كمثل من يقول: إنّ رجلًا أعمى غُرست له إبرة في لوحة، وأعطي ألف إبرة، وقيل له: ارم هذه الإبر واحدة بعد الثانية؛ لتدخل الأولى في ثقب الإبرة المغروســـة في اللوحة، وتدخل الثانية في عين الإبرة الأولى، والثالثة في عين الثانية، وهكذا بطريق الصُّدفة حتى تدخل كل الإبر في بعضها بعضًا، والرجل كما علمنا أعمى لا يُبصر شيئًا؛ فهل هناك عاقل يصـــدق بذلك؟ هل هناك عاقل يُمكن أن يقول: بأنه يمكن أن يخرج كتابًا نتيجة أن حروفًا مثلًا من العَربية أو غيرها، قد تَشكَّلت ووجدت ودارت حول نفسها؛ فأنتجت لنا كتابًا؟ أو أن يكون ثوب يُخاط بسبب إبر توجد هكذا واحدة تلو الأخرى، دون أن يكون هناك من يقوم بذلك؟!.

إنّ هذا لمن المُستحيل الذي لا يُمكن أن يُصَدّق به إنسان، ولذلك أقول: إن القول بالصُّدفة أيضًا مع هذا النّسق العجيب في هذا الكون من أمحل المحالات، وأبطل الباطل، ولا يُمكن أن يكون أيضًا.

المسألة الثالثة وهى الضرورة:

وهي شـــبهة أيضًـــا من شـــبهاتهم: قالوا: وُجد هذا الكون، وكان هذا الكون، ووجدت متطلبات الناس فيه بالضـــرورة؛ فنســـألهم هنا: ما الضـــرورة؟ وما معناها؟ إن التنوعات الموجودة يقولون: حصلت بطريق الضرورة، هذا معنى الضرورة، قالوا: التنوعات الموجودة في الخلق وُجدت لأن الضـــرورة أو أن الناس احتاجوا إليها؛ فمثلًا قالوا: حاجة الظرافة إلى تناول غذائها من أ شجار عالية، هي التي جعلت عُنقها يطول، وحاجة ال سمكة الملحة إلى السبح في الماء، هي التي أوجدت زعانفها التي تساعدها على السباحة.

إلى غير ذلك من الهراء والتعســـف العجيب، والمنطق الســـقيم، وما قالوا بهذه التراهات والأباطيل؛ إلا إمعانًا في الهروب من مواجهة الحقيقة، وهي الإيمان بالله الصـــانع الحكيم، الذي لا إله إلا هو، ولا رَبَّ سواه، وإلا فما يُ َسمّونه بال ضرورة، إنّما هو العناية الإلهية بمخلوقاته.

أو لم يروها في ذات الولد، وكيف تُدِرّ اللبن لمولودها بمجرَّد أن تضـــعه، وفي ولدها الذي كان في بطنها يتغذَّى بواسطة الأنبوب المتصل بسرته، ولما انفصل عنها، وخرج من بطنها، وحملت له الغذاء في ضـــرعها، وهدى الله ذلك المولود إلى معرفة امتصـــاص حلمة الثدي؛ ليتغذَّى باللبن، إلى أن يصـــبح قادرًا على التغذي بالحبوب والفواكه والخضـــر، بعث الله سبحانه وتعالى إليه، أو أخرج له الأ سنان؛ لكي يأكل بعد ذلك، ولكن أثناء فترة الر ضاعة جعل الله سبحانه وتعالى له لبنًا.

هذه الضـــرورة التي يقولونها هنا هي في الحقيقة، هي من عناية رب العالمين ســـبحانه وتعالى بمخلوقاته، وأنه ســـبحانه وتعالى يُوجد لكل مرحلة من مراحل ما خلق ما تحتاج إليه، وبالتالي فالضرورة لا مجال لها هنا، وإنّما ما وُجِدَ من حاجات الإنسان، وتوفيرها له، إنّما هي عناية الله -تبارك وتعالى- الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى.

هذا من خلق وحسن خلق رب العالمين جل في علاه، فقولهم إذا بأن الضرورة كانت سببًا في إيجاد ما هو موجود الآن، نقول: هذا باطل، وإنما لا يَخْرج شـــيء في كون الله -تبارك وتعالى- عن خلق الله -تبارك وتعالى.

وختامًا للرَّد على شبهات الملاحدة سأذكر هنا أيضًا ثلاثة أسس أُدلِّل بها على وجود رب العالمين سبحانه، وأنه هو الخالق لكل المخلوقات، وأنّ ما ذُكر سَابقًا سواء كان مما ذكره بعض الملاحدة، من طبيعة أو صـــدفة أو ضـــرورة، أو غير ذلك أنّ هذا باطلٌ لا يُمكن أن يكون.

سأذكر هذه الأسس التي أُبطل بها قول هؤلاء الملاحدة:

الأساس الأول: هو أن العدم لا يخلق شيئًا وهذه ضرورة عقلية، وحقيقة شرعية، شهدت بها بداهة العقول، وأثبتها كتاب رب العالمين -جل في علاه، وفي هذا يقول ســـبحانه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور 35: 36].

وكيف يُمكن لعاقل أن يجحد هذه الحقيقة، وقد شـــهد بها حذاؤه الذي ينتعله، والثوب الذي يلبسه، والسيارة التي تُقلُّه، والمظلة التي تقيه حر الشمس، بل طعامه وشرابه، وكل شيء حوله؛ فهو لا يعقل وجود شيء من هذه الأشياء، دون صانع أوجده وهيَّأه؛ لما أُعدَّ له من من منفعة، فكيف يقول إذًا بأنه خُلق من لا شيء، وأنه لا يوجد في هذا الكون ما يدل على رب العالمين جل في علاه؟!.

الأســـاس الثاني وهو: أنّ الفعل مرآة لقدرة فاعله، وبَعض صـــفاته، ذلك بأن بين الفعل والفاعل علاقة قوية؛ فلا يكون شـــيء في الفعل إلا ولدى الفاعل قدرة على فعله، فإذا شاهدنا مصباحًا كهربائيًّا، عرفنا أن لدى صانع ذلك المصباح زجاجًا وأسلاكًا، وأن لديه قدرة على تشكيل الزجاج والأسلاك في الشكل الذي نراه في المصباح، وأن لديه خبرة بالكهرباء.

وإذا شاهدنا سيارة متحركة تسير في الطرقات المعبدة، وتتحرك عند اللزوم، وتتوقف في المكان المعلوم، وتدور في المكان المُعدِّ للدوران؛ عرفنا أن ســـائق الســـيارة عاقل يُفكر، وأن له إرادة حكيمة أحكمت توجيه السيارة، وأنه عليم بطرق قيادة السيارات، وهكذا عرفنا شيئًا من قدرة الصانع والسائق، وصفاتهما من الآثار المشاهدة بأفعالهما أمامنا، وبهذا كان الفعل مرآة لقدرة فاعله، وبعض صفاته.

وقد دلَّنا القرآن الكريم على هذا الأساس العقلي؛ فحثنا على النظر في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء؛ لكي نتعرف من خلال هذا النظر على كثير من صفات الخالق الحكيم جل وعلا، فقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: 48 - 50].

فظاهرة تكون المطر، ثم ســـوقه إلى الأرض الميتة، ثم حياة الأرض به بعد موتها، تدل على وجود الصانع، وعموم قدرته؛ خاصة على إحياء الموتى، كما تدل على رحمته سبحانه، ولهذا قال تعالى

بعد ذكر هذه الظواهر: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الروم: 50].

فالتعَرّف على بعض صفات الفاعل من خلال مشاهدة أفعاله وآثاره؛ منهاج عقلي وشرعي، يُحسه العقل بالضرورة، وتَحُثُّ عليه النصوص الشرعية، وتعتمده أساسًا مهمًّا تقيم عليه كثيرًا من حقائق الإيمان، وبتطبيق هذا الأساس نجد أن هذا الكون الكبير يشهد بوجود الله -تبارك وتعالى- يشهد بوجوده، وأنه هو الذي خلق الكون، ويشهد بعظمة هذا الخلق الذي خلقه رب العالمين سبحانه وتعالى. ويشهد من خلال الإحكام والتناسق والترابط، على أنه من صنع حكيم عليم واحد مهيمن جل في علاه.

الأساس الثالث: وهو أن فاقد الشيء لا يعطيه، وهذه ضرورة عقلية شهد بها العقل، ودلَّت عليها النصوص الشرعية؛ فلا يُعقل أن ينسب إلى الأخرس فصاحة اللسان وحسن البيان، وإلقاء الخطب البليغة التي تأخذ بمجامع القلوب، ولا يُعقل أن يُنسب إلى حيوان لا يعقل، أو إلى جاهل غبي لا يعلم؛ أنه قام بإطلاق مركبة فضائية لغزو الفضاء الخارجي، والتعرف على كثير من حقائقه، ولا يُعقل أن يُنسب إلى بدويٍّ يعيش في مجاهل الصحراء، يرعى إبله وغنمه أنه قام بإجراء عملية دقيقة في المُخ؛ لاستئصال بعض الأورام الخبيثة، أو أنه ألَّف كتابًا حول الذرة يشرح فيه بالوثائق العلمية كلَّ ما يتعلق بها من حقائق.

نقول: لا يعقل ذلك؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وكل ما نُسب إليه الخلق فهو مخلوق، وكان عدمًا قبل أن يكون؛ فكيف ننسب إليه شيئًا من الخلق، إلى الطبيعة، أو إلى الصدفة، أو إلى الضرورة، والكون كله قد خلقه بعد عدم رب العالمين جل في علاه.

الدرس التاسع: أدلة وجود الله -تبارك وتعالى-

عناصر الدرس

العنصر الأول: دليل الخلق والحدوث

العنصر الثاني: دليل الإبداع والعناية

العنصر الأول: دليل الخلق والحدوث

وحديثي عن أدلة الله سبحانه وتعالى هو من باب مجادلة الملحدين بالتي هي أحسن والنزول إلى مستواهم في المنافسة من باب قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: 164] وكذلك فحديثي لهم أو مجادلتي معهم قبل أن تكون بالقرآن الكريم وهو دليل الأدلة وأعظم الأدلة كانت هنا بالعقل؛ لأن هذا هو الأمر المتفق عليه بيننا وبينهم.

ومن الأمور المُسلَّم بها عقلًا، والمعروفة تجربة وحسًّا وواقعًا: أن كل حادث لا بد له من مُحْدِث، وباعتبار أن هذا الكون كما عليه الإجماع من العُقلاء حادث، إذًا لا بد له من محدث، فالكون حادث، والعقلاء يُقرُّون بأن كل حادث لا بد له من محدث، وهذا الكون موجود؛ إذًا لا بد له من موجد أوجده، وهذا الكون أيضًا مخلوق فلا بد له من خالق خلقه. هذا أمر يُسلم به العقل ولا يُنازع فيه.

ولذلك نتساءل مَن الذي خلق الكون إذًا بعد أن قلنا: بأنه لا بد لهذا الخلق، أو الكون من محدث وخالق، أخرجه من حيِّز العدم إلى الوجود؛ فلا بد أن يكون الجواب هو رب الأرباب جل في علاه، و صدق الله في قوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: 36].

إذًا فإنكار محدث الحوادث، ومُوجد للوجود هو في الحقيقة تكذيب للواقع وتناقض مع العقل، ونسف لمبدأ السببية الذي هو مفتاح العلم، ومصدر الحقائق. إن المتأمل للمخلوقات الحية المنبثَّة هنا وهناك، والمنتشرة في عوالم هذا الكون؛ يجد ملايين الملايين من الأحياء، تنقسم إلى آلاف من الأنواع والأجناس، كل جنس وكل نوع له خصائصه ومزاياه، وشكله، وصورته، وطرق تغذيته، وطرق حياته، وبقاء نوعه وسلالته.

ولقد أ شار القرآن الكريم إلى هذه النوعيات والأجناس حين قال رب العالمين جل في علاه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: 45].

كما أنه سبحانه وتعالى أشار إلى الخصائص والمزايا، والشكل، والصورة وطرق الحياة حين قال: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: 38]، فهذه النوعيات، والأجناس من الكائنات الحية المنتشرة في الكونِ، وهذه الخصائص، والمزايا الموجودة فيها ألا تدل على أن الله سبحانه هو الذي بدأ خلقها، و صوَّر إ شكال، وقدَّر أقواتها، ونفخ فيها روح الحيوية والحياة.

تأمَّل قوله تعالى وهو يدعو إلى التأمل والنظر والاعتبار، وأن ما وجد في الكون إنما كان بخلق رب الأرباب يقول سبحانه: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: 20]، فهل يستطيع أحدٌ بعد هذا في هذا الوجود مهما أوتي علمًا وقدرة، وذكاء أن يخلق كائنًا حيًّا بعد أن لم يكن. القرآن الكريم يتحدى البشر أن يخلقوا ذبابةً إن كان في مقدورهم ذلك، فإن ثبت عجزهم عن خلق ذبابة، وهي شيء حقير.

أفلا يدل ذلك على أن المحيي، والمميت هو رب العالمين سبحانه الخالق المبدئ المعيد –جل في علاه، والله في ذلك يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج- 73].

هذا فضلًا عن خلقِ الإنسانِ، فهو أعجب وأعظم بما امتاز به من العقل، ولما أوتي من الفهم والعلم، ولما أعطي من ملكة التعليم والبيان، ولما فُطر عليه من حسن الهيئة والصورة، ولما

سُخِّر له ما في السموات والأرض، ولما أودع فيه من قدرةٍ فائقةٍ، وطاقة هائلة، وذكاءٍ فريدٍ. ويكفي الإنسان فضلًا وفخرًا وكرامةً أن يقول الله عنه في محكم تنزيله: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: 70].

فكل هذه الخصائص والمزايا التي ركَّبها الله في الإنسان تدل دلالةً تامةً واضحة على الخالق المبدع، والإله الحكيم القدير سبحانه وتعالى، ولذلك يقول الله -تبارك وتعالى- موجهًا الخطاب إلى هذا الإنسان قائلًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: 5 - 7].

ولعل قائلًا يقول: إن هذا العالم قديم أزلي ليس لنشأته بداية، فنقول: فكرة قدم العالم منقوضة من الناحية العلمية، ومن الناحية العقلية، كما قال الأستاذ "فرانك ألون" أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا، يقول: "كثيرًا ما يُقال: إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود، فكيف نفسر وجوده ونشأته، هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال:

أول هذه الاحتمالات يقول فيها: فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهو يتعارض، أو وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده".

أما الاحتمال الثاني: فهو إما أن يكون هذا الكون نشأً من تلقاء نفسه من العدم.

والاحتمال الثالث: إما أن يكون أبديًّا ليس لنشاته بداية.

أما الاحتمال الرابع والأخير: فهو أن يكون لهذا العالم، ولهذا المخلوق، ولهذا الكون خالق، ثم رجع بعد ذلك فتحدث وتكلم عن هذه الاحتمالات الأربعة، فقال:

أما الاحتمال الأول فإنه لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال لسخافته.

وأما الرأي الثاني الذي يقول: إن هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم؛ فهو لا يقل عن سابقه سخافة وحماقة.

والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يُشير مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية والقدم. وإذًا فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالَم ميت، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق، ولكن قوانين الحرارة تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيًّا، وأنها سائرة حتمًا إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة.

أما الشمس المُستعِرة والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون وأساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة؛ فهو إذا حدث من الأحداث، ومعنى ذلك: أنه لا بد لأصل هذا الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قويٌّ ليس لقدرته حدود، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه.

هذا رجل من الغرب يقول هذه الكلمات، ويصل إلى هذه الحقيقة المهمة وهي: أنه لا بد أن يكون لهذا الكون خالق أخرجه من حيز العدم إلى الوجود. ولذلك أقول: إن الذي نَخْلُصُ إليه بعد ما تقدم أن هذا الكون ما دام فيه حرارة، وما دام فيه حركة وسكون، فلا يمكن أبدًا أن يكون قديمًا، وإذا كان ليس قديمًا فهو إذًا حادث، وإذا كان حادثًا، فالمنطق والعقل يقول: لا بدَّ أن يكون له محدث، والمحدث هو رب العالمين جل في علاه، وصدق الله في قوله: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: 21].

إن الإنسان لم يخلق نفسه، و لم يخلق أولاده، و لم يخلق الأرض التي يدرج فوقها، ولا السماء التي يعيش تحتها، والبشر الذين ادَّعُوا الألوهية لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادّعاء ذلك؛ لأن هذا أمر لا يـ صدر عن إنـ سان يعرف ما يقول، ومن المقطوع به أن وظيفة الخلق، والإبراز من العدم لم ينتحلها لنفسه إنسان، ولا حيوان، ولا جماد. ومن المقطوع به كذلك: أن شيئًا لم يحدث من تلقاءِ نفســـه، فلم يبقَ إلا ربُّ العالمين جل في علاه، وقد قرر القرآن الكريم هذا الدليل، كما جاء في قول الله -تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾.

ولا شك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة، فنحن قبل ميلادنا لم نكن شيئًا يُذكر كما قال سبحانه: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: 1].

وأعتقد أن هذا يُسلم به العقلاء، فالإنسان لم يدَّعِ لنفسه أنه خلق نفسه، كما أنه أيضًا لم يزعم إنـ سانٌ أنه خلق غيره، والقرآنُ الكريمُ في الآيتين الـ سابقتين أ شار إلى الـ سموات والأرض؛ ذلك أن الـ سموات والأرض لها مكانةٌ عظيمةٌ في الأرض والإيجاد، فهي أكبر من الإنـ سان بقدر لا يـ ستطيع للإنـ سان أن يتـ صوَّره؛ فـ ضلًا عن أن يذكره، وإلى جانب أن السموات والأرض خُلقتا قبل الإنسان، ولا يوجد عاقل بحالٍ من الأحوال يمكن أن يزعم أنه أوجد شيئًا قد وُجِدَ قبله.

ثم بعد هذا نقول: إن عناصـــر الكون الذي نعيش فيه كذلك لها بداية معروفة، وعلماء الجيولوجيا يُقدِّرون أن لها أعمارًا محدودة مهما طالت، فقد كانت قبلها صفرًا، وكان هناك ظن بأن المادة لا تفنى، واعتمد على ذلك فريق من الناس في القول بقِدَمِ العالم، وما يتبع ذلك القدم الموجود من أباطيل. على أن تفجير الذرة هدم هذا الظن، ولو لم يتم تفجيرها ما قبلت هذا الظن على أنه حقيقة ثابتة، يعني: أنه لا يجوز لعاقل أن يقبل هذا الظن على أنه

حقيقة ثابتة. وأنا هنا أخاطب العقلاء؛ لأن المفتاح الذي يفتح على العالم أبواب الفناء ليس من الضروري أن يضعه الله في أيدي العلماء.

وعدم اهتداء الناس إلى ما يدمِّر الكون لا يعني أن مادة الكون غير قابلة للدمار والفناء، ولما يكون ذلك حصـــانةً أقامها القدر الأعلى؛ حتى يمنع العالم من الانتحار، إننا جازمون بأن وجودنا محدث؛ لأن تفكيرنا وإحســـاســـنا يهدينا لذلك، وغير معقول أن يتطوَّر العدم إلى وجود تطورًا بدائيًّا، إنه إذا وقعت حادثة لم يُدرَ فاعلها، قيل إن الفاعل مجهول، ولم يقل أحد قط: إنه ليس لها فاعل فكيف يُراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه، إننا لم نقل شيئًا، فقلنا: فمن كوَّننا؟ لا شك أنه هو رب العالمين سبحانه، ولذلك أُردِّد قول الله – جل ذكره– ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ [الأنعام: 91].

والمراد بالخلق هو الإيجاد والإحداث أي: إبراز الشـــيء من العدم إلى الوجود، وذلك مثل خلق الحياة في الكائنات الحية على ظهر الأرض، التي بثَّ فيها من كل دابة، وأنبت فيها من كل زوج بهيج، ومثل خلق الإنسان العاقل الذي لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم كان، ومثل خلق السموات والأرض، وهو أكبر من خلق الناس.

وقد دلَّل الفلك الحديث على عظم الأجرام العلوية، وسعة المسافات بينها حتى إنها لتُقاس بملايين السنين الضوئية، تُرَى من خالق الحياة على هذه الأرض، ومن خالق هذا الإنسان العاقل المُفكر؟ ومن خالق هذا الكون كله بأرضـــه وسمائه؟ هل وجدت الحياة، ووُجد الإنسان، ووجدت المخلوقات العلوية والسفلية وحدها بلا موجد؟ أم لا بد لها من خالق أوجدها، ومن هو؟ إنه من منطق الإيمان إلى جانب مخاطبة العقل هنا، لا بد أن يقول الجميع: الخالق هو رب العالمين جل في علاه.

وقد قال المتكلمون: "العالم متغير، وكل متغير حادث، وكل حادث لا بد له من مُحدث، ولا بد أن يقف العقل عند مُحدِث غير حادث، وإلا لزم الدور أو التسلسل المحالان؛ وذلك المُحدِث هو الله –تبارك وتعالى".

العنصر الثاني: دليل الإبداع والعناية

وقبل عرض قانون العناية الذي هو أحد القوانين العقلية الموجبة للإيمان بالله تعالى، والمعرفة به سبحانه نذكر هنا قاعدة عامة في الكون كله، قد تخفى على غير المتأملين في الكون، والدارسين له، وهي: أنه لا مجال في الكون للباطل، ولا محل فيه لعبث بحال من الأحوال، بل الكون كله قائم على أساس العدل والحق، والنظام والإحكام.

ولا يوجد جزء واحد من أجزاء خلوًا من فائدة مقصودة منه، أو حكمة متوخاة فيه، وهذه الحقيقة الكونية تظهر بوضوح لكل من تأمَّل الكون، ونظر في حقائقه. وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة، وأكَّدها فيه في مواطن متعددة منها ما جاء في قوله –تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: 39]، وفي ذلك أيضًا يقول رب العالمين سبحانه كما جاء في سورة ص: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: 27]

ومثل هذه الحقيقة الكونية في وضوحها وثبوتها قانون العناية الذي نعرضه الآن برهانًا عقليًّا على وجود الله –تبارك وتعالى، وطريقًا من طرق معرفته سبحانه وتعالى، وقانون العناية هذا يتألف من حقيقتين:

الحقيقة الأولى: خلوُّ الكون كله من أية ظاهرة للعبث والباطل فيه.

أما الحقيقة الثانية: فهي أن الكون كله بجميع أجزائه مسخر لخدمة نوع واحد من بين سائر أنواعه، فمن أعظم كائن فيه إلى أ صغر كائنٍ وأحقره، الكل يخدم ذلك النوع، وهي حقيقة مدهشة للغاية أن يكون هذا الكون الفخم الهائل بكل ما فيه من أجرامه السماوية، ومخلوقاته الأر ضية، الجميع م سخر ت سخيرًا خا صًّا لخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التي حواها الكون، وانتظمها هذا الوجود المادي القائم. كما سبق بيانه.

وهذا النوع المسخر له الكون كله هو الإنسان وحده، والمثل الذي يُو ضح هذه الحقيقة التي تبدو غريبة بادئ ذي بدئ وعجيبة: هو أن يأمر أحد الملوك العظماء ببناءِ ق صرٍ فخمٍ كبير، فيُبنى على أحســـن طراز، ويُجمل بأحســـن أنواع التجميل، ويزوَّد بكلِّ أســـبابِ الراحة والارتقاء؛ بحيث يـ صبحُ آية في باب القـ صور الملكية في دنيا الناس متعةً وجمالًا، ثم ينزل به ضيفًا كريمًا عليه. ويقول له: لقد بنينا لك هذا القصر لتعيش طوال حياتك، متمتعًا بكل ما فيه من خيرات ونعيم.

فالملك هو الله، والقصر هو الكون، والضيف هو الإنسان، وهذه الحقيقة قد قرَّرها القرآن الكريم أيضًا، وأكَّدها كالحقيقة الأولى، وذلك في قوله -تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 12، 13].

وبعد هذه المقدمة التي أراها ضروريةً كمدخل مهم عند الكلام عن دليل الإبداع، والعناية، أستعرض بعد ذلك الآن بعض مظاهر العناية بالإنسان في الكون مجملًا،

بعض مظاهر هذه العناية بالإنسان في هذا الكون، نحن لو نظرنا إلى السماء سنجد الكواكب الكثيرة، والنجوم العديدة، وفيها الـ شمس وفيها القمر، والأرض أكثر تعلقًا بهما من غيرهما

من سائر الأجرام السماوية، فبالنجوم المشرقة، والكواكب المنيرة ازدانت السماء الدنيا التي هي سقف في هذه الدار التي يسكنها الإنسان ويعمرها، وبالقمر المنير ذي المنازل والتقدير استنار غالب ليل الإنسان، وبه يعرف عدد السنين والحساب، وبالشمس المضيئة أشرق النهار على الإنسان، وبها عرف ليله وميَّز نهاره، ومنها استمدت أرضه دفأها وحرارتها، وطاقتها المودعة فيها.

ولولا الله ثم الشمس لتجمَّدت الأرض، ولما كانت صالحة للحياة، وفي السماء تتجمَّع السحب، وتتراكم، ومنها تنزل الأمطار مياهً عذبة، بها حياة الإنسان وسعادته، وفي السماء في علوِّها، وارتفاعها، وكثرة أجرامها ومجراتها، وكواكبها، ونجومها، وشموسها، وأقمارها آياتٌ عظام تهدي الإنسان إلى معرفة ربه، وتُبيِّن له قدرته عليه، وتريه سوابغ نعمه به.

في الأرض نجد فيها البحار، والأنهار، والمعادن، والجبال، والسهول، والتلال، فيها الأحياء المائية، والحيوانات البرية ذات المنافع العديدة، والفوائد الجمة الكثيرة، وبها الأشجار المظللة والمثمرة، وبها الزروع والنباتات، التي هي أرزاق وأقوات، وكلها مسخرة للإنسان، مُعطاة له، لم يكن فيها شيء لغيره، ولا يخرج منها شيء عن منفعته، وفائدته بحال من الأحوال.

ومن الأمثلة التي تُذكر في عناية الله سبحانه وتعالى الواضحة في هذا الكون، وخاصة بالإنسان: أنك ترى الزهر في النبات، فترى لها أوراقًا جميلة جذَّابة ملوَّنة بألوان زاهية، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك؛ أجابوا بأن هذا إغواء للنحل، وأشباهه من الحشرات التي تمصُّ رحيق الأزهار لتسقط على الزهرة، وحتى إذا وقفت على عيدانها، علقت حبوب اللقاح بأرجلها، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى، فيتمُّ التلقيح. فانظر كيف جُعلت هذه الأوراق الجميلة في الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان حتى يستخدم النبات الحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج. وهذا

التكامل لا نجده في عالم النبات فحسب، وإنما نجده في كل شيء بين الليل والنهار، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والطعام والجهاز الهضمي، والإنسان والحيوان والنبات.

ومما يدل على تلك العناية وهذا الإبداع: أنه لو أعطت الشـــمس نصـــف حرارتها الحالية لتجمدنا من البرودة، ولو أن حرارتها زادت بمقدار النصـــف لكنا رمادًا منذ زمن بعيد، ولو كان قمرنا يبعد عنا مائتي ألف ميلًا بدلًا من بعده الحالي؛ لكان المد في البحار يبلغ من القوة بحيث إن جميع الأراضـــي تُغمر مرتين في اليوم بماء متدفق، يُزيح الجبال عن أماكنها، ولما أمكنت الحياة على وجه الأرض.

ولو كان ليلنا أطول مما عليه الآن عشرات المرات؛ لأحرقت شمس الصيف نباتتنا في كل نهار، وفي الليل يتجمَّد كل نبت في الأرض. لو أن نسبة الهيدروجين، والأكسجين اختلفت في الماء عما عليه الآن؛ لما كان الماء صالحًا للشرب، ولقتل الناسَ العطشُ. لو كانت قشرة الأرض أسمك مما عليه الآن بمقدار بضع أقدام؛ لامتُص ثاني أكسيد الكربون الأكسجين، ولا أمكن وجود حياة.

ولولا الله ثُم قوانين الحرارة لما تبرَّدت الأرض، ولما كانت صالحة للحياة، ولولا الله ثم الجبال لتناثرت الأرض، ولما كانت لها مثل هذا القشرة الصالحة للحياة، ولولا أن في الأرض أرزاقها لما استطاعت الحياة أن تبقى، ولو كانت مياه البحار حلوةً لتعفن الماء الموجود لها، وتعذرت الحياة على وجه الأرض.

ولذلك نحن نجد أن معظم الماء الموجود في البسيطة إنما هو من الماء المالح حتى لا يفسد ولا يصل إليه الخراب، وما كان ذلك إلا لعناية رب العالمين سبحانه وتعالى لهذا الإنسان وتقديره –سبحانه جل في علاه.

ولو كان الأكســـجين في الهواء بنســـبة 50% بدلًا من 21%؛ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لأدني شرارة، وكان في ذلك هلاك الحياة، ولو

كانت نسبة الأكسجين 10%؛ لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم إلى آخر ما يُمكن أن نتحدث عليه في ذلك، وكل هذا بفضل الله وخلقه وقدرته.

هذا الإبداع، وذلك الجمال هو صنع الله سبحانه وتعالى، ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: 88]، وهذا الجمال والكمال من قدرة الله سبحانه وتعالى وبديع خلقه، وكما قال سبحانه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: 11].

هؤلاء الملاحدة هل خلقوا شيئًا، هل أبدعوا شيئًا، هل أوجدوا شيئًا من هذه العناية الربانية التي يسير بها الكون على أتم إحكام وتقدير، هل هناك من شارك الله سبحانه وتعالى في هذا الخلق حتى أوجد شيئًا من هذه الكائنات، أو كانت عنده بعض مظاهر هذه العناية، حا شا وكلا؛ ولذلك صـــدق الله في قوله: ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾، ونحن نجيب: والله ليس هناك مع الله أحد خلق شيئًا في هذا الكون.

وهذه الوحدة المتكاملة، والنسق البديع الذي لا خلل فيه، ولا نقص هو من خلق الله سبحانه وتعالى، كما قال سبحانه: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: 3، 4].

وهذه العظمة في خلق الأرض والسموات دلائل ناطقة على وجود الله -تبارك وتعالى، والآية التي سأشير إليها الآن فيها لون من ألوان مظاهر العناية بالإنسان في هذا الكون، قال -تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن

كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 164].

وهذه البراهين الساطعة على إبداعه المحكم وصنعه المتقن جل في علاه- دفعت الشاعر إلى أن يقول:

وفي كل شيء له آية * تدل على أنه الواحد

وقال بعضهم:

تأمل في نبات الأرض * إلى آثار ما صنع المليكُ
عيونٌ من لجين شاخصات * بأبصارهن الذهب
على قصب * بأن الله ليس له شريك

إن المرء منا إذا دخل دارًا فوجد بها غرفة مهيَّأة للطعام وأخرى للمنام، وثالثة للنظافة، ورابعة للضيافة إلى آخره؛ لجزم بأن ها الترتيب لم يتم وحده، وأن هذا الإعداد النافع لا بد قد نشأ عن تقدير وحكمة، وأشـــرف عليه فاعل يعرف ما يفعل، والناظر في الكون وآفاقه، والمادة وخ صائ صها يعرف أنها محكمةٌ بقوانين م ضبوطة، شرحت الكثير منها علوم الطبيعة، والكيمياء والنبات، والحيوان، والطب، وأفادت منها الناس أجمل الفوائد، وما وصـــل إليها علم الإنسان من أسرار العالم حاسم في إبعاد كل شبهة تُوهم أنه وُجد كيفما اتفق، كلَّا إن النظام الدقيق المختص في طوايا الذرة مضطرد فيما بين أفلاك السماء الرحبة من أبعاد.

قال -تبارك وتعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: 61، 62]. وهذا كله من فعل الله -تبارك وتعالى، وهو سبحانه وتعالى هنا يُثني على نفسه

ويمجدها؛ لأنه افتتح الحديث عن هذه الآيات الكونية، وعن هذه العناية الربانية بقوله سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾.

كما قال رب العالمين سبحانه: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: 20، 21]. إن الواحد منا يُمسك بحبة الرمانة فينظر في جمالها ونسقها ونظمها، ثم يتساءل من الذي نسقها، ونظم حباتها، وغلَّفها، ولا يملك الإنسان العاقل إلا أن يقول: سبحان الله. وينظر الإنسان كذلك إلى كل كوز الذرة. وقد وضعت حباته صفًّا متقنًا، وأحيطت بأغلفة متعددة تحفظها ومنحتها هواء بواسطة أنابيب دقيقة، يقال لها: "الشُّرَّابة" فمن الذي فعل ذلك! ويدُ من التي امتدَّت إلى سنبلة القمح فغلفت حباتها حتى لا تتساقط، وفي ورق غضروفي لا يتلفه المطر، وحصَّن كل حبة بشوكة حتى لا تكون غداءً للطير، وهي مقدرة أن تكون غذاء للإنسان.

وانظر إلى البرتقالة، وإلى عنقود العنب، وإلى التفاح، وإلى غير ذلك من ألوان ما خلق رب العالمين سبحانه من إنسان أو حيوان، أو فواكه وثمار، أو أشجار، وغير ذلك، إن الذي فعل هذا هو رب العالمين جل في علاه.

ومن إشارة إلى النبات والأرض، وما أودع الله -تبارك وتعالى- فيها أنتقل إلى إشارة يسيرة إلى الإنسان الذي يعيش على ظهر هذه الأرض، وأتساءل قدرة من التي امتدت إلى عين الإنسان فجعلتها في عُلبة منخفضة من العظم؛ لئلا تتعرض للتلف والمهالك، وظللتها برموش تدفع عنها معاكسة ضوء الشمس لها، وحاطتها بأهداب تمنع تساقط العرق فيها، وغطتها بأجفان، وجعلت لها ماءً ملحًا، ألا وهو الدموع حولها؛ لئلا يلحقها النتن. يدُ من التي جعلت ماء الأذن مُرًّا لئلا تتسرب الحشرات إليها والإنسان نائم فتتلف طبلتها، وجعلت ريق الفم عذبًا مع أن الماء الذي تشربه واحد.

وتدبير من الذي امتدَّ إلى مفاصل الجسم، فجعلت لكل مفصل قطعةَ شحم تُسهل حركته بقدر معلوم، وعناية من التي أتقنت لسانَ المزمار وهو البلعوم؛ بحيث تُسدُّ قصبة الهواء عند دخول الطعام والشراب، ويسد مسلك الطعام عند دخول النفس، وإبداع من الذي جَعَل اللسان عند خروج الهواء من الجوف، يضغط عليه من جوانب الفم، فينتج صفيرًا، وهذا الصفير يكون كلامًا منظمًا يُعبر عن ما في الضمير من معانٍ وخواطر، وأي جهاز وضع في الأنف حتى يميز بين الرائحة الطيبة والخبيثة، وأي جهازٍ وضـــع في الأذن حتى يميز بين الأصوات المتعددة، وهي قطعة من اللحم.

ولو تأمَّلت اللسان وخشونته؛ لئلا ينزلق الكلام، فيظهر غير مضبوط لأيقنت أن للكون إلهًا وصـــدق من قال: "نظرك فيك يكفيك"، ماذا أقول، والظواهر التي تدل على الله أكثر من أن يحصيها عادٌّ، أو يحيط بها عالم، وإنما أمثلة فحسب، ومما يرتبط بمعنى العناية والإبداع كذلك الهداية والإلهام، وسبحان الله العظيم الذي خلق وقدر وهدى كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 50].

ولنوضـــح هذه الظاهرة بالأمثلة التالية: خطر لعالم أمريكي أن يســـتفرخ البيض في جهاز خاص للتفريخ، وذلك بوضع البيض في نفس الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له، فلما جمع البيض ووضعه في الجهاز نصحه فلاح أن يُقلب البيض في كل فترة؛ إذ أنه رأى الدجاجة تفعل ذلك، فسخر منه العالم، وأفهمه أن الدجاجة إنما تُقلِّب البيض؛ لتعطى الجزء الأسفل من حرارة جسمها، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يُشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة. واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس وفات ميعاده، ولم يفقس، ولم

تفقس بيضة واحدة، وكرر التجربة بلا جدوى، وأخيرًا استمع إلى نصيحة الفلاح، فصار يقلب البيض حتى إذا جاء ميعاد الفقس خرجت الفراريخ.

وآخر تعليل علمي لهذه الظاهرة: أن الفرخ حينما يخلق في البيضة ترسّب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه إذا بقي بدون تحريك، فيؤدي ذلك إلى موته، ولولا هذه الهداية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الدجاجة؛ لما بقي نوع الدجاج في العالم. وانظر إلى هذا البيض وقد جاء موعد فقســـه، فتقوم الأم بنقر البيض ما تخطئ مرة، فتفقأ عين الكتكوت، أو تنقر أذنه فمن الذي هداها لهذا؟ و صدق الله في قوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: 3].

ونحن نشاهد حتى مع هذا النمل اليسير الصغير الذي نشاهده يمشي على الأرض، هذا النمل له هداية خاصة؛ كي يعيش، وكي تستمر حياته الذي هداه إليها هو رب العالمين جل في علاه؛ فالنمل يبقى في حفرة، أو خندق في الأرض في الشتاء، ولا يستطيع أن يخرج من شدة البرودة، فهداه الله ســـبحانه وتعالى إلى أمر كي يعيش من ورائه بالطعام الذي يدخره في الصيف في عشه أو مكانه في الأرض؛ ليأكل منه في الشتاء.

وقد ذكر أحد العلماء: أنه شاهد النمل قد أخذ حبة حنطة، ثم بعد ذلك حاول أن يقسمها، واستمر فترة حتى قسمها، وعُلِّل ذلك بأنها إذا لم تقسم هذه الحبة من الحنطة ربما أنبتت من التراب إذا وضعت فيه، أو بسبب وضعها في التراب والرطوبة التي يمكن أن تعيش فيها، من الذي هدى النمل لذلك؟ إنه هو رب العالمين جل في علاه. إننا نشاهد الحيوان إذا وُلد من أمه ســـرعان ما يحاول أن يقوم، وأن يلتقم ثديها، وهذا الحيوان قد نُزع منه العقل. فمن الذي هداه لذلك؟! إنه رب العالمين جل في علاه.

أيها الزملاء والأبناء الأعزاء، هذه بعض الأمثلة من أمثلة كثيرة لا تعد ولا تحصى، قصدت بها لفت النظر إلى ظاهرة الهداية الموجودة في الإنسان والنبات والحيوان على السواء، فإذا التفت العقل ودرس الوجود كله بعمق ودقة واستيعاب يرى هذه الظاهرة في كل شيء من هذا الوجود على الإطلاق، فهي ظاهرة تنظم شئون الكون كله بما فيه من الذرة إلى العناصر إلى الأرض إلى الشمس إلى المجرات إلى الحيوان إلى الإنسان، وما أجمل ما عبر به القرآن الكريم في إثبات ظاهرة الإلهام والهداية حينما قال سبحانه ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: 50].

والذي نخلص إليه بعدما تقدم: أن ظاهرة الإلهام والهداية كما أن أيضًا الخلق من الأدلة العظيمة على أن رب العالمين سبحانه وتعالى موجود وأنه هو الخالق الحكيم المبدع الذي أوجد هذا الكون وأخرجه من حيز العدم إلى الوجود بإحكام وإتقان. وأكرر في الختام: ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: 11].

الدرس العاشر: تابع أدلة وجود الله تعالى

عناصر الدرس

العنصر الأول: دليل النظام والحركة

العنصر الثاني: دليل الفطرة والأخلاق والتاريخ

العنصر الثالث: سياق بعض الأدلة الشرعية على وجود الله -تبارك وتعالى-

العنصر الأول: دليل النظام والحركة

ذكرت دليلين يدلان على وجود الله سـبحانه وتعالى: دليلي الخلق والإبداع والعناية، وسـأذكر في هذا اللقاء إن شـاء الله -تبارك وتعالى- ما بقي من أدلة يمكن أن نواجه بها هؤلاء الذين أنكروا وجود رب البرية جل في علاه-:

إن التأمل في الكون كله علوِّه وسـفليه يكشـف عن حقيقة كبرى لا مجال لإنكارها أو تجاهلها والإغضاء عنها، أو الغضِّ من شأنها ألا وهي النظام الدقيق العجيب الذي رُبطت به أجزاء الكون كله من الذرة إلى المجرة، هذا النظام المدهش المحيِّر للعقول الذي يُحيل العقل البشري السليم أن يكون ناجمًا عن صدفة وتلقائية، لا يمكن لعاقل أبدًا أن ينظر لهذا النظام الدقيق ثم يقول بعد ذلك بأن هذا أتى، أو خرج من الـ صدفة، أو أتى كأمر عابر هكذا، أو وُجد عن طريق تفاعلات كيمائية، أو يكون نتيجة للحركة المسـتمرة للمادة منذ ملايين السـنين كما يزعم الخياليون والمغرورون والمخدوعون، إنه لمن أمحل المحال وأبطل الباطل أن يصدر هذا النظام الشامل للخلق كله من غير ذي إرادة، وقصد، وعلم، وحكمة، وتدبير.

إن نظرة إلى السـماء إلى خلقها وتكوينها، إلى الإحكام والإتقان فيها، إلى أبعادها، إلى سعتها، إلى عدد نجومها ومواقعها، إلى الأفلاك الدائرة فيها، إلى ضوء شمسها ونور قمرها؛ هذه النظرة الفاحصة الشاملة تُري الإنسان العاقل من مظاهر القدرة والعلم والإرادة والقصد والتصميم ما يجزم الإنسان معه ببطلان هُراء الماديين، وتُرَّاهات الملحدين، ويسلم على الفور بوجود إله خالق عظيم، متصف بصفات الربوبية، ونعوت الألوهية.

أَمَا فكَّرت في هذه السيارات المنطلقة، وأعني بها هذه الكواكب التي تخترق أعماق الجو، والتي تلتزم مدارًا واحدًا لا تنحرف عنه يمينًا ولا يسارًا، وتلتزم سرعة واحدة لا تبطئ فيها ولا تعجل، ثم ترتقبها في موعدها المحسوب، فلا تختلف عنه أبدًا. إن الكرة تنطلق من أقدام اللاعبين ثم لا تلبث أن تهوي بعد تحليق. أما هذه الكرات الغليظة الحجم المضيء منها والمعتم

فهي معلقة لا تسقط، سائرة لا تقف، كلٌّ في دائرته لا يعدوها، وقد يصطدم المشاة والركبان على أرضنا، وهم أصحاب عقل وبصر. أما هذه الكواكب التي أُزحم بها الفضاء فإنها لا تزيغ ولا يصطدم بعضها ببعض، وصدق الله في قوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: 37-40].

من الذي هيمن على نظامها، وأ شرف على مدارها، بل من الذي أم سك بأجرامها الهائلة، ودفعها تجري بهذه القوة الفائقة، إنها لا ترتكز في علوِّها إلا على دعائم القدرة، ولا تطير إلا بأجنحة، أعارها الملك العلي الأعلى جل في علاه. ولو أُطلق لها المجال هكذا ولو لم يكن هناك نظام وإتقان؛ لا صطدمت هذه الأجرام ال سماوية بع ضها ببعض، ولحدثت الطامة الكبرى، ولهلك هذا العالم بأسره، وصدق الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر: 41].

إنها قوانين تصرخ باسم الله، ولكن الصُّمَّ لا يسمعون، وأي نظرة فاحصة دقيقة على الأرض إلى خلقها وتكوينها، إلى محيطاتها وأنهارها، إلى جبالها ووديانها، إلى مرتفعاتها و سهولها، إلى النباتات والأ شجار، إلى التنوع في الحيوانات، وإلى الاختلاف في أجناس البشر لونًا ولسانًا تقف بالناظر عند حقيقة لا يســـتطيع إنكارها، ولا إخفاءها وجحودها، وهي أن وراء هذا الخلق والإبداع خالقًا مبدعًا عليمًا حكيمًا هو رب العالمين جل في علاه.

وهو الله الذي لا إله إلا هو، ولا رب سواه، قال الله –تبارك وتعالى– ملفتًا نظر المتأملين إلى ذلك إلى النظام الذي أبدعه رب العالمين في الكائنات، وأنه وحده هو الذي فعل ذلك –جل

في علاه، وهو يأمر بالتأمل والنظر والاعتبار؛ ليصل الإنسان بعد النظر إلى ما أراده منه رب العالمين جل في علاه- يقول سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق: 6-11].

إن نظرة عابرة فقط إلى النور والحلك وهذا الهواء المشترك، إلى ائتلاف الهواء، إلى عناصر الماء، إلى النوعية والزوجية في كل شـــيء فيها وعليها تكفي في إقناع ذي العقل بوجود إله ذي قصد وإرادة، وحكمة وتدبير، وقدرة لا تُحد، وعلم لا يحيط به أحد ألا وهو الله العزيز الحكيم، الله الذي أوجبت العقول الســـليمة وجوده، ودلت كل ذرة في الكون على علمه وقدرته وتدبيره وحكمته جل في علاه. هذا الذي رفع السماء بغير عمد نراها، وهذا الذي جعل الأرض هكذا ممدودة يسلك الإنسان فيها مسالك شتَّى، وأجرى فيها من البحار والأنهار ما أجرى، هذا الذي أنزل من السماء ماءً مباركًا، ثم أنبت به ما أنبت من سائر ألوان الزروع والثمار، و شرب من هذا الماء الإنسان والحيوان، كل ذلك ألا يدل على رب العالمين جل في علاه! وإذا كان الخلق يدل على الله سبحانه وتعالى فالتسوية أدلُّ عليه.

والتسوية أخص من الخلق، إذًا من الممكن أن يُخلق الشيء غير مُسَوَّ، ولكن قد يسأل الإنسان ما المراد بالتسوية؟ وما معناها؟ فأجيب عليه وأقول: إن تسوية الشيء هي إحسان خلقه وإكمال صنعته؛ بحيث يكون مهيَّئًا لأداء وظيفته، وبلوغ كماله المقدر عنده، وإمداده بما به صلاحه وبقاؤه، وجعله مستويًا معتدلًا متناسب الأجزاء؛ بحيث لا يحدث بينها تفاوت

يخل بالمقصود منها، وهذه التسوية ظاهرة في الكائنات كلها على وجه العموم، وفي الكائنات الحية على وجه الخصوص، وفي الإنسان على وجه أخص، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة: 7]، ثم قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: 6-8].

وإليك هذا المثل الذي نتأمل به قدرة الله سبحانه وتعالى في تنظيم كونه، وتقدير خلقه، وتسوية حاله، هذا الجمل قد أُعطي الصورة الخلقية التي تلائم عيشته وأسفاره الطويلة في الصحراء، فلهذا خُلق برقبة طويلة تُعلي رأسه، وتنأى بعينيه عن غبار الرمال، كما مُنح شفة مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادي دون أن تؤذيه، وأُعطي سنامًا يختزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يومًا في الصحاري القاحلة، ولم تنتهِ رجله بحافر يغوص في الرمل كحوافر الخيل، والبغال والحمير؛ بل انتهت بخُفٍّ يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها؛ ولهذا أُطلق عليه سفينة الصحراء، فسبحان الله، سبحان ربي الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ثم سخر رب العالمين سبحانه وتعالى هذا الجمل وهو حيوان ضخم، للإنسان، بل إنه سُخر لصبي صغير أو لفتاة صغيرة يقوده الواحد من هؤلاء ويركبه وهو مستسلم له دون أن يُعارض أو يُخالف. وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة المبثوثة في الكون، ولذلك قال رب العالمين سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية: 17-21].

على الإنسان –ولا شك– أن يتذكر لذلك إذا قُرئت عليه هذه الآيات، وإذا وقف على هذه الحقائق تذكر، فأدرك أن الذي خلق وأن الذي سـوَّى، وأن الذي أحكم خلقه هو رب العالمين جل في علاه.

هذا، ونجد كل شيء في الخلق له حساب وتقدير، وميزان وترتيب؛ بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيدة عنه، فلا يعطِّل وظيفتها أو يعوق سيرها لما خُلقت له، وبحيث يتم بين المخلوقات كلها توازن شامل ينتظم به سير الوجود كله، فإذا كانت التسوية إعطاء كل شيء من الخلق والتصوير ما يؤدي به وظيفته على الوجه اللائق به؛ فإن التقدير أن يكون بالقدر الذي ينفع في نفسه ولا يضر غيره، ولا يصطدم بالمخلوقات الأخرى، وذلك يتم إذا ما وُضع في مكانه الملائم وزمانه المناسب، وبالكمّ الذي يُصلح ولا يُفسد، وعلى الكيفية التي يتحقق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه.

وهذا التقدير ظاهرة عامة في كل شـيء، كما نبَّه القرآن الكريم على هذه الحقيقة في آيات كثيرة منه، أذكر هنا منها بعض هذه الآيات، وهي قول الحق –تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: 8]، كما قال جل في علاه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2]، كما قال – سبحانه– أيضًا: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3].

ولعظمته سبحانه وتعالى أشار في كتابه إلى أن كل ما يحدث في هذا الكون، وكل ما يقع فيه إنما هو بتقدير سابق يدل على سبق العلم، ويدل على الإحاطة والقدرة، فرب العالمين يتصف بصفات الجلال والكمال، ومن ذلك أنه –سبحانه– يعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكون لو كان سوف سيكون، وقد قدَّر جميع الخلائق والموجودات قبل وجودها فقال في كتابه: ﴿إِنَّا

كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 49]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر:21].

فالماء مثلًا سوَّاه الله –تبارك وتعالى– بمعنى أنه أحسن خلقه، وهيَّأه لأداء وظيفته من السقي، والري، والتطهير، والتنظيف، ونحو ذلك، ولكن الماء الذي خلقه الله، وأسكنه في الأرض خلقه بقدر، وأنزله بقدر قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ [المؤمنون: 18]، ونحن نشاهد أحيانًا أن رب العالمين جل في علاه– إذا أراد أن يُهلك قومًا بسبب كفرهم، وبغيهم، وطغيانهم أتاهم بما لا يوعدون، أو سلَّط عليهم شيئًا من خلقه كهذه البحار المتفجرة التي يُمكن أن تسيل من هنا، ومن هناك فتغمر أجزاء من الأرض، أو السيول التي تنزل في بعض الأماكن من لدن رب الأرباب سبحانه، وهي تنزل بقدر كما قال رب العالمين سبحانه، وهي وإن كانت تزيد في بعض الأحيان عن حاجة الإنسان، وتهلك بعض الإنسان والحيوان والنبات، وتعطل الطرقات وغير ذلك إن كل شيء من هذا بقدر رب العالمين، وأراده –جل في علاه– عقوبة للمنكرين الكافرين.

هذا؛ وقد جاء العلم الحديث بكشوفه ووسائله، فأماط اللِّثام عن الحكمة البالغة، والأسرار العجيبة، وما بين المخلوقات من مقادير وحدود، وضوابط وموازنات، إن في الفضاء الفسيح الذي لا نعرف له حدودًا ملايين الملايين من النجوم السابحة في أجوائه، وبعض هذه أكبر من الشمس بآلاف المرات وملايينها، كالشعرى الذي هو أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونورها ضعف نور الشمس بخمسين مرة، وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة، وهكذا.

ويقول الفلكيون: إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدَّة بلايين نجم ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يُرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تُحس به الأجهزة دون

أن تراها، هذه كلها تســـبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يتقرَّب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادئ يسيران في اتجاه واحد، وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيد جدًّا إن لم يكن مستحيلًا.

ومع هذا التباعد بين كل نجم وآخرُ، فقد وُضع كل نجم في مكانه؛ بحيث يتَّسق في آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب، وتؤدِّي جميعها مهمتها المنوطة بها في بناء الكون وسير حركته، ولنأخذ الشـــمس والقمر والأرض وما بينهم من علاقات مثلًا لهذا التقدير المحكم والنظام الدقيق، الذي كان من آثاره ظهور الحياة الإنسانية على الأرض واستمرارها إلى اليوم، وستستمر إلى أن يشاء رب العالمين –سبحانه– إنهاء هذا العالم، وسيحدث هذا كما ذكر رب العالمين وأشار إلى ذلك في كتابه، وعندئذٍ سيحدث تغييرٌ كوني عظيم في كونه أشـــارت إليه بعض آيات القرآن الكريم، كالآيات الواردة في ســـورة الشـــمس مثلًا، أو الانفطار، أو الانشقاق.

إن هذه الشمس هي الوحيدة بين آلاف النجوم التي تصلح لجعل الحياة على الأرض ممكنة، وإن حجمها وكثافتها، ودرجة حرارتها، وطبيعة أشـــاعتها، ودرجة بعدها عنا؛ كل ذلك لازم لقيام حياتنا على كوكبنا، الذي هو الأرض، وكذلك وضـــع القمر وحجم الهواء والغازات وعالم النبات والحشرات، تُرى مَن الذي وضع كل هذه المخلوقات في مواضعها الصـــحيحة، وقدر أحجامها وأشـــكالها، وأبعادها ونســـبها، وعلاقتها هذا التقدير المحكم العجيب.

هل عند الماديين الجاحدين من جواب لذلك يشـــفي صـــدور الناس عمومًا، وأهل الإيمان بصورة خاصة؟ كلَّا، ثم كلَّا.

أما نحن أهل الإيمان فجوابنا: إن الذي خلق ذلك وقدر ذلك وأحكم ذلك هو رب العالمين سبحانه، هو الإله الخالق المحيي المميت، هو الذي قال عن نفسه سبحانه وتعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: 96].

إنه باختلاف التوازن في أي شيء تحدث كارثة تندثر بها المدنية، وتتخبط بها البشرية إذا بقي أي شيء على قيد الحياة، تُرى كيف يتحقق كل هذا التقدير، وكيف يتم كل هذا التدبير إذا لم يكن هناك خالق أعلى، يقدر فيحسن التقدير، ويُدبِّر فيحسن التدبير.

العنصر الثاني: دليل الفطرة والأخلاق والتاريخ

إن كان هناك من الأدلة ما هو مبثوث في الكون، وهو خارج عن دائرة الإنسان؛ فهناك أدلة أخرى ليست خارجة عن كيانه، ومنها الفطرة التي فطر الله -تبارك وتعالى- عليها الناس، والمقصود بالفطرة هنا هو ذلك الشعور الطبيعي، البصير، الغامر بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية، وما والاها غير محدود ولا متناهٍ، بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية ربًّا، وإلهًا غير محدود ولا، متناهٍ يهيمن على كل شيء، ويدبر كل أمر، يُرجى، ويُخشى، ويُعظم ويُقصد، جل في علاه- وهو شعور ينبع من أعماق الإنسان، ويُستمد من كيانه كله، لا من عقله وحده، ولا من وجدانه بمفرده، شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعلم، ولا تلقين، ولا اكتساب.

وقد عبر الفيلسوف الشهير "ديكارت" عن هذا الشعور الفطري فقال: "إني مع شعوري بنقص في ذاتي أُحس في الوقت نفسه بوجود ذات كاملة، وأراني إلى اعتقادي بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال، وهي الله".

وكلما كان الإنسان أسلم فطرة وأزكى نفسًا؛ رقَّ حجابه، وتفتحت عين بصيرته، وارتفع عن جاذبية الطين، وحلَّق في أجواء الروح؛ وحينئذ يشعر بأن وجود الله يملأ عليه أقطار نفسه ويغمر كيانه كله؛ فيحس بأنه غير محتاج إلى دليل على وجود ربع سبحانه، خارج عن ذاته وكيانه هو، بل يشعر أن وجود الله -تبارك وتعالى- أظهر من كل شيء ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

والقرآن الكريم قرر دليل الفطرة هذا في آيات كثيرة من كتاب رب العالمين جل في علاه- في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم:30].

وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه ((أن كل مولود يُولد على الفطرة))، والمراد بالفطرة هنا الإسلام، فهذا الإسلام الذي يُولد مع الإنسان يجعله يسلم بوجود رب العالمين جل في علاه، فهو أمر قائم في النفس، ولذلك جاء في القرآن الكريم تساءل بعض الأنبياء والمرسلين لأممهم قائلين: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:10]، هل يمكن أن يوجد شك في هذا الخالق الذي فطر وأبدع السماوات والأرض جل في علاه.

ويُروى أن أحد العلماء الصالحين الموقنين قيل له يومًا: إن فلانًا من علماء الكلام قد أقام على وجود الله ألف دليل، فقال: لأن في نفسه ألف شبهة، وهذا جواب من وضح الأمر في نفسه؛ بحيث لا يحتاج إلى إقامة برهان أو دليل على نحو ما قال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان * إذا احتاج النهار إلى دليل

و سُئل واحد من الـ سلف بما عرفت ربك؟ فأجاب: "عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي"، هذا ما نقصده إن الإنسان سواء أكان جاهلًا أم عالمًا لو جرَّد نفسه من آثار الوارثات المختلفة، ومحا من ذهنه كل ما يربطه بالمكان الذي يعيش فيه، والمذهب الذي ينتمي إليه، ثم يُفكر بعد ذلك في الكون وفي نفسه؛ لانتفع بفطرته وطبيعته انتفاعًا اضطراريًّا؛ ليجد نفسه ساجدًا خاشعًا أمام ربه العلي العظيم الرحمن الرحيم.

إن الذي علم الإنـ سان أن رقم 1+1= 2 بدون برهان ولا مقدمات، هو الذي علمه أن له إلهًا لا يُ ستغنى عنه، بدون حاجة إلى ا ستدلال، ولا انتقال من معلوم إلى مجهول، ولا من مقدمات إلى نتائج، هذا الشعور الفطري قد يختفي في ساعات العافية والرخاء، والغنى الذي يطغي الإنـ سان، ويحجبه أحيانًا عن رؤية نفـ سه على حقيقتها، فإذا أُنزل بالإنـ سان شدائد قاهرة ذات الطلاء الكاذب الذي غشَّ الفطرة الأصلية، ورجع الإنسان إلى ربه ضارعًا داعيًا منيبًا إليه.

سأل رجل الإمام جعفر الـ صادق –رحمه الله تبارك وتعالى– عن الله، فقال له: "ألم تركب البحر؟ قال: بلى، قال له: فهل حدث لك مرة أن هاجت بك الريح العاصـــفة؟ قال: نعم، قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم، قال: فهل خطر ببالك وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن يُنجيك إن شاء؟ قال: نعم، قال جعفر: فذلك هو الله".

وإلى هذه الحقيقة يُشير القرآن الكريم في قول الحق الكبير المتعال جل في علاه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: 22].

هذه في الحقيقة آية بينة، ودليل على أن هذه الفطرة القائمة في نفس الإنسان تتحرك عند الشدائد، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك عن المشركين بأنهم إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين رغم أنهم مشركون وهم في الأمان والبر، ولكن عندما تنزل بهم النازلة، أو تدور بهم الدوائر تتحرك الفطرة؛ لأنها كامنة في النفس، وبالتالي يدعون رب العالمين جل في علاه- ولا يلتفون إلى غيره. والقرآن الكريم يصور أصالة هذه الفكرة وشمولها لكل أفراد النوع الإنساني تصويرًا بليغًا يأخذ بمجاميع القلوب ويسوقها إلى ربها سوقًا حثيثًا، ويعرض ذلك في صورة ميثاق قديم بين الإنسانية وبين ربها على أن تؤمن به، وتعبده، وتوحده، فلنستمع إليه يقول -سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 172، 173].

وهذا يدل على أن رب العالمين -سبحانه- أخذ العهد والميثاق من جميع بني آدم، وهم في ظهر أبيهم أن يعبدوا الله -تبارك وتعالى جل في علاه، كما أنه أخذ العهد عليهم على أنه ربهم، ومالكهم، وخالقهم جل في علاه. وهذا أمر فطري في النفس؛ لأن هذا من العهود والمواثيق التي أخذها رب العباد من الإنسان على نفسه، ولما كان هذا الشعور أمرًا فطريًّا كما تبيَّن؛ وجدنا أصل الإيمان قدرًا مشتركًا بين جميع الأمم، وفي مختلف الأقاليم، وفي شتى عصور التاريخ، وإن كان الكثيرون قد انحرفوا عن الإيمان الصحيح، وخلطوه بأوهام وأباطيل كدَّرت نقاءه، وأفسدت جوهره.

يقول الفيلسوف المعروف "هنري بيرجسون": "لقد وُجدت جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة".

ويقول المؤرخ الإغريقي القديم "بيرو كارت": "لقد وُجدت في التاريخ مدن بلا حصـــون، ومدن بلا مدارس، ومدن بلا قصور، ولكن لم توجد مدن بلا معابد".

والدار سون في تاريخ الأديان يؤكِّدون أن الإنسان لن يستطيع مهما بلغ من العلم والتمدن أن يستغني عن الإيمان والدين.

يقول الفيلسوف "رينان" في كتابه (تاريخ الأديان): "إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه، وأن تطلب حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكري الإنساني في المضايق الدنيئة في الحياة الأرضية.

هذا فضلًا عن الوازع الأخلاقي المركوز في النفس الإنسانية، كما قال الفيلسوف الألماني "عما نويل كانت".

وجوهر هذا الدليل أن الكون بما فيه من خلق وتســـوية، وما فيه من تدبير وبداية يدل على وجود الصانع القادر، ولكن لا يلزم من قدرته وصنعته أنه الإله الذي يصدر منه الخير والنعم، وتتجه إليه القلوب بالعبادة، والحب، والحمد والتعظيم، وإنما يثبت وجود هذا الإله بدلالة وعلامة في النفس الإنســـانية لا يتأتى وجودها فيها بغير وجود إله، وتلك هي دلالة الوازع الأخلاقي، أو دلالة الواجب، أو دلالة الضمير.

فمن أين استوجب الإنسان أن يُدين نفسه بالحق كما نعرفه إن لم يكن في الكون قسطاس للحق يغرس في نفسه هذا الوجوب، ومن أين تقرَّر فطرة الإنسان أن الواجب الكريم لديه أولى به من إطاعة الهوى المحبب إليه، وإن لم يطلع أحد على دخيلة سره.

إن وجود هذا الوازع الأخلاقي في نفس الإنسان دليل على أنه هناك غارسًا غرسه فيها؛ ليستقيم سير الحياة، وينتظم أمر الجماعة؛ وذلك هو الله مصدر الخير والرحمة والجمال،

ويُشـــير القرآن الكريم إلى هذا الدليل فيقول: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: 7، 8].

وإلهام التقوى للنفس يعني: منحها الوازع الأخلاقي الذي يُقاوم دواعي الشكوى والفجور، ويعترض بعض الناس على هذا الدليل بأن وجود الأخلاق، أو الضـــمير، أو الشـــعور بالواجب؛ إنما هي عادة اجتماعية، رسخت في النفس بمضي الزمن حتى استحالت إلى رغبة مقبولة، أو مطلب محبوب، وينسى هؤلاء أن العادة الاجتماعية ليست بالتفسير الذي يُعلل نشأة الأخلاق، وإنما هي تكرير للمشاهدة كما رأيناها، فإذا سألهم سائل: لما نشأت العادة الاجتماعية؟ قالوا: للمصلحة الاجتماعية، ولكنهم لا يسألون أنفسهم لماذا كانت المصلحة الاجتماعية أمرًا مفروغًا منه، مقضيًّا بوقوعه؟

إن هذه الأدلة كلها العقلية تدل بوضوح على أن الذي خلق الخلق هو رب العالمين جل في علاه، والأدلة كثيرة على وجود رب العالمين سبحانه وتعالى والأعراب، أو العربي في البادية كان يعرف ذلك؛ لأن الفطرة كانت تدله على هذا الأمر؛ وأعني بالفطرة: الشعور الكامن في النفس الذي سبق أن ذكرته.

ولذلك قيل لأعرابي سُئل عن رب العالمين -سبحانه- كيف عرف الله -تبارك الله وتعالى؟ هذا سؤال وُجه إلى أحد الأعراب؛ كيف عرفت ربك؟ فأجاب قائلًا: "البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير؛ فكيف بسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؛ أفلا يدل ذلك على العلي الكبير!!"، لا شك أنه يدل. والإجابة عن كل ذلك: بأن الذي خلق هو رب العالمين -سبحانه- الخالق الذي لا يُخلق جل في علاه.

العنصر الثالث: سياق بعض الأدلة الشرعية على وجود الله -تبارك وتعالى-

من هذه الأدلة إر سال رب العالمين سبحانه وتعالى الأنبياء والمر سلين، وإنزال الله سبحانه وتعالى عليهم الكتب، وتأييدهم بالمعجزات والخوارق التي يعجز عنها البشـــر عادة، ولا يقدرون على مثلها؛ لكونها لا تخضع للسنن الكونية، فالمعجزات والخوارق لا تخضع للسنن الكونية، وإنما هي بخلق الله وإيجاده -سبحانه.

وأود أن أفصل هذا الذي أشرت إليه آنفًا، وهو إرسال الله تعالى الأنبياء والمرسلين، وإنزاله الكتب عليهم إلى غير هذا؛ أفصل هذا فأقول: خطاب الله سبحانه وتعالى لكافة عباده في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: 21، 22].

إنني أدعو عموم أهل الإيمان وأقول لهم: والله سبحانه وتعالى إن هاتين الآيتين ا شتملتا على نداء الله تعالى للعباد، وبينت أن الله سبحانه وتعالى أمر عباده بعبادته، ونهاهم عن الشرك به سبحانه وتعالى، كما ا شتملت الآيتين على التعريف به تعالى ربًّا خالقًا مدبرًا رازقًا، خلق البـ شرية سبحانه وتعالى، وجعل لها الأرض فرا شًا، والـ سماء بناءً، وأنزل من الـ سماء ماءً، فأخرج لها به من الثمرات رزقها، وما به قوام حياتها، كما اشتملت الآيتان أيضًا على دليلين عقليين؛ الأول: دليل الحدوث، والثاني: دليل العناية، وقد سبق بيان كل منهما.

وفي قوله سبحانه وتعالى من سورة النـ ساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ ﴾ [النســـاء: 1]. ففي هذا النداء الإلهي يأمر الله تعالى البـ شرية كلها بتقواه، وهي عدم الخروج عن طاعته بترك أمره، أو بفعل نهيه،

ويذكرهم بأنه ربهم؛ أي: خالقهم، ورازقهم، ومدبر أمرهم – سبحانه، كما ذكرهم بأ صل نشأتهم؛ فاشتمل هذا النداء الكريم على التعريف بالله تعالى بوصفه الخالق، كما اشتمل على دليل عقلي أيضًا سبقت الإشارة إليه ألا وهو دليل الحدوث.

وفي قوله سبحانه وتعالى من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]، ففي هذا الإخبار الإلهي تعريف بالله –سبحانه– بوصفه الرب الذي خلق الكون كله، علوه وسفليه، وهو يدبر أمره من فوق عرشه، وكما انفرد بالخلق والتدبير –سبحانه– انفرد بالأمر والعبادة والتشريع.

وفي قوله تعالى من سورة فاطر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: 3]. ففي هذا النداء تعرف الله تعالى إلى الناس بأنه ولي نعمتهم، نعمة الخلق والرزق، وطلب منهم أن يذكروا ذلك ليشكروه بعبادته وحده؛ لكونه لا يستحق العبادة سواه.

وفي قوله تعالى من سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]. ولقد اشتمل هذا النداء الإلهي على التعريف بالله –تبارك وتعالى– بوصفه الخالق والمدبر –سبحانه– الذي أحاط بكل شيء علمًا، ومن مظاهر تدبيره للناس أن جعل حياتهم اجتماعية؛ ليتم التعاون فيما بينهم على تحقيق سعادتهم، ولو شاء لجعلهم يعيشون على نمط حياة البهائم

والحيوانات، فلا أسرة، ولا قبيلة، ولا شعب، وحينئذ لا مناص من أن يعيشوا عيش الحيوانات؛ فلا مدنية ولا حضارة، بل ولا إنسانية ولا كرامة آدمية.

وفي قوله تعالى من سورة لقمان: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ﴾ [لقمان: 10، 11]. ففي هذا الخبر الإلهي تعريف بالله تعالى بصفات الكمال الذي انفرد بها دون غيره، وهي خلق السماوات خلقًا محكمًا بما أودع فيها من قانون الجاذبية، فتماسكت أجرامها ولم تحتج إلى ما يدعِّمها من وسائل الدعم التي عرفها الناس كالأعمدة ونحوها، وإلقاؤه تعالى الجبال في الأرض لحفظ توازنها حتى لا تضطرب، ولا تميد، ولا تميل بأهلها فيهلكوا، كما أنه سبحانه وتعالى نشر آلاف الدواب المختلفة نوعًا، وشكلًا، وخاصية، كما أنه –سبحانه– كما أشارت الآيات أنزل المطر من طبقات الجو فأنبت نباتات مختلفة، التي هي أصل غذاء تلك الدواب التي بثها رب العالمين سبحانه وتعالى في الأرض، كما أن الإنسان أيضًا يستفيد من هذه المخلوقات والنباتات التي يُخرجها رب العباد جل في علاه.

كما اشـــتمل آخر الخبر المذكور على تحدٍّ صـــريح لأولئك الذين يؤلِّهُون غيره تعالى من مخلوقاته، بأن يشيروا إلى شيء ما قد خلقته آلهتهم الباطلة المزعومة، كما اشتمل الخبر أيضًا على أدلة عقلية سبق الحديث عنها، وهي دليل الحدوث، ودليل العناية، ودليل النظام، ودليل الوجوب إلى غير ذلك.

على كلٍّ هذه الآيات التي سقتها وذكرتها الآن من القرآن الكريم هي في الحقيقة بعض الأدلة الشرعية الدالة على وجود الله –تبارك وتعالى، وهي تشير إلى أن الذي أوجد ذلك وخلق ذلك، والذي نسق كل هذه الكائنات، وهذه المخلوقات هو رب العالمين جل في علاه، ولذلك تعجب

الله سبحانه وتعالى من كفر الكافرين، وإلحاد الملحدين فقال سبحانه وتعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 28، 29].

حقًّا علينا فعلًا أن نعجب حقيقة من هؤلاء الذين يكفرون برب العالمين –سبحانه، والله سبحانه وتعالى هو الذي أحياهم بعد أن كانوا موتى، ثم يميتهم بعد ذلك، ثم يحييهم، ثم أشار –سبحانه– في هاتين الآيتين إلى أنه خلق ما في الأرض للإنسان ليستفيد منه، هذا المخلوق الذي كفر بربه بعد ذلك، أو وقع بعض الناس في الكفر بعد هذا، وما كان له ذلك، ولذلك أقول هنا: بأن الإلحاد غاشية طارئة سرعان ما تزول، ولا يكون هناك ملحد إذا تأمل الإنسان وتفكر في هذه الكائنات التي أودعها رب العالمين في هذا الكون، والأدلة على ذلك كثيرة، ويكفي ما ذكرته، وأشرت إليه.

الدرس الحادي عشر: الإيمان بربوبية الله تعالى وألوهيته

عناصر الدرس

العنصر الأول: الإيمان بربوبية الله تعالى وصوره

العنصر الثاني: الإيمان بألوهية الله تعالى

العنصر الأول: الإيمان بربوبية الله تعالى وصوره

أ. معنى الإيمان بالربوبية:

الإيمان بربوبية الله تعالى هو اعتقاد أن الله سبحانه وتعالى هو وحده ربُّ كلِّ شيء ومالكه، وهو خالق كل شيء – سبحانه– فهو خالق العباد، ورازقهم، وهو سبحانه وتعالى محييهم ومميتهم، وأنه سبحانه النافع الـ ضار، المتفرِّد بإجابة الدعاء عند الا ضطرار، والأمر كله له سبحانه، وبيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير. ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك أيضًا الإيمان بقضاء الله وقدره؛ لأنه من شئون الربوبية.

والإيمان بربوبية الله تعالى يســـتلزم الإيمان بألوهيته. ومعنى يســـتلزم الإيمان بالألوهية: أن العبد الذي يُقِرُّ أنّ الله ربه، وخالقه، ومالكه، ورازقه، وأنه هو الذي أحياه وهو الذي يميته، وهو الذي يوصل النفع إليه، ويدفع الضر عنه، وأنه هو الذي سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد، هذا العبد الذي يعتقد ذلك، هذا الاعتقاد يُلزمه أن يعبد الله وحده دون ســـواه.، وإن لم يفعل فهو لم يدخل في الإسلام.

ولذلك قاتل الرسول صلى الله عليه وسلم المشركين في مكة، وفي غيرها مع أنهم كانوا يُقرُّون بأن الله –سبحانه– هو الخَالِق الرازق، المحيي المييت، المتصرف بالأمر كله، وأنه هو وحده الذي يفعل ذلك، وقد حكى الله –تبارك وتعالى– عنهم ذلك ومن هذا قول الحق –تبارك وتعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: 63]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } [يونس: 31] فهم ينسبون الخلق، والإحياء، والإماتة، وتدبير الأمر كله من رزق وإنزال للمطر، وغيره، ينسبونه كله لله –تبارك وتعالى.

ومع ذلك حكم الله –تعالى– عليهم بالكفر، ودمغهم بالشرك فقال سبحانه: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يو سف: 106] أما إيمانهم بالله الذي أثبته الله لهم في هذه الآية فهو قولهم: إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع إشراكهم في عبادتهم غيره، فهم يعرفون الله، ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره، وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصـــون له أنواعًا من العبادات كالحج والـ صدقة، والذبح والنذر، والدعاء وكالا ضطرار ونحو ذلك، ويَدّعون أنهم على ملة إبراهيم عليه الســـلام، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 67].

وبع ضهم كان يؤمن بالقدر، وبع ضهم يؤمن بالبعث والحـ ساب، كما قال زهير بن أبي سلمى:

يُؤخر فيوضع في كتاب * ليوم الحساب أو يعجل

وقال عنترة:

يا عبل أين من المنية مهرب * إن كان ربي في السماء

ومثل هذا يوجد في أشـــعارهم؛ فوجب على كل عاقل عقل عن الله تعالى، وفهم آياته أن ينظر، ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم، وسبي نسائهم، وإباحة أموالهم، مع هذا الإقرار والمعرفة، وما ذاك إلا لإشـــراكهم في توحيد العبادة، الذي هو معنى: "لا إله إلا الله".

وحتى أولئك الذين عبدوا الأصنام، واتخذوها آلهة من دون الله تعالى، لم يعتقدوا أن الأصنام مـ شاركة لله في الخلق، وإنما اعتقدوا أنها تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والـ صالحين، فهم يتو سلون بها إلى الله، كما حـ صل لقوم نوح الذين عبدوا ودًّا و سواعًا، وقال الله –تبارك

وتعالى- عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: 23].

فإنّ هذه الأسماء أسماء قومٍ صالحين في قوم نوح، لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ولَّما طال عليهم الأمد، ونسي الناس العلم، ودعوة الأنبياء المرسلين إليهم، عبدوا هذه الأسماء والصور، والتماثيل التي أقاموها على أنماط وأشكال قوم صالحين، ثم صارت هذه الأصنام بعينها مع غيرها هي المعبودة عند العرب، الذين قالوا كما ذكر الله عنهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: 3].

وحتى أولئك الذين اعتقدوا بإلهين اثنين كالثنوية مثلًا، الذين قالوا بإله للنور، وإله للظلمة، أو إله للخير وإله للشر، لم يكونوا يعتقدون تساوي هذه الآلهة؛ فإله النور عندهم خير من إله الظلمة، وهذا ليس مثل ذاك، ولذلك الأمر كما ذكر الشيخ الطحاوي -رحمه الله- أنه لم يَعْلَم في العالم أجمع: أن هناك أُمّة ذَكرت أن لهذا الكون خالقين متماثلين من جميع الوجوه. ولا أظن عاقلًا يوقن في قرارة نفسه بأن هناك خالقًا، أو مدبرًا لهذا الكون غير الله سبحانه، أو أن هذا الكون لم يخلقه الله تعالى؛ لأن الوحدة والتناسق في نظام هذا الكون دليل على وجود رب العالمين ووحدانيته، وكما قال الشاعر:

وفي كل شيء له آية * تدل على أنه الواحد

ولذلك جاءت الآيات القرآنية الكريمة توجِّه أنظارنا إلى هذا الكون وتناسقه؛ لتبين لنا أن وراء هذا كله قدرة الله -تبارك وتعالى- وإرادته، وأنا أدعو عموم المسلمين أن يتأملوا هذه الآيات الواردة في سورة النمل، وهي قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ

ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ
مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا
رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن
يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ
قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ
بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾
[النمل:59- 64].

والجواب على كل سؤال ورد في هذه الآيات أإله مع الله؟. القول والجواب هو: أنه لا يوجد مع الله إله، ولا رب جل في علاه، ولهذا وجب أن نردد قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 79].

ومن نور هذه المشكاة جاء حديث النبي صلى الله عليه وسلم ودعاؤه الذي يقول فيه: ((اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)). والإيمان بربوبية الله لا يتنافى مع ما جاء من تسمية المالك للشيء المتصرف فيه، ربًّا له، كأن نقول مثلًا: فلان ربُّ الدّار، أو رب البيت؛ فإن هذا يعني أنه هو

صاحب هذا الشيء الذي جعل الله تعالى له حق التملك والتصرف في ذلك الشيء المملوك، وهو يصلحه وينميه، ويتعهده ويقوم برعايته.

ولا يتنافى ذلك مع أن الله سبحانه وتعالى هو رَبُّ كل شيء ومليكه، فهو إطلاق بمعنًى خاص، لا بأس به في الشرع، ولا في العقل، وإذا كان من البداهة والفطرة، أن يُقِرّ الإنسانُ بوجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته.

ب. صُور إخلال الإيمان بربوبية الله تعالى:

أحمد الله سبحانه وتعالى أولًا على أن الموجة الإلحادية التي اتَّسعت دائرتها في الشرق والغرب في القرن المنصرم، لا شك أنها قد انكمشت كثيرًا، ونحمد الله على ذلك؛ إلا أننا نواجه مشكلة في داخل الأمة الإسلامية؛ فبعض المسلمين في بقاع الأرض يأتون بصور تخلُّ بالإيمان بربوبية الله تعالى، ومن ذلك زعمهم أن أحدًا من البشر كالأقطاب والأبدال، لهم نوع من القدرة والتصرف في هذا الكون، أو أن هذا الكون يُحفظ بهم، أو أنّ الأولياء في قبورهم يستطيعون أن ينفعوا أحدًا بشيء، كالشفاء من المرض، أو تيسير حاجة ما من حاجات الناس، ولذلك تراهم يطوفون حول قبورهم، ويدعونهم من دون الله، أو مع الله، ويستغيثون بهم ويستجيرون، ويقدمون لهم النذور والقرابين.

العنصر الثاني: الإيمان بألوهية الله تعالى

أ-معنى الإيمان بألوهية الله تعالى:

ما أعظم قدرة الله سبحانه، وما أجلى حكمته في هذا الخلق، إن هذا الوجود كله اتجهت إليه إرادة الله تعالى؛ فأوجدته، وأودعه الله – سبحانه– قوانينه التي بها يتحرك، والتي تتناسق حركة

أجزائه فيما بينها، كما تتناسق حركته الكلية سواء بسواء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

فتناسق حركة إرادة وأجزاء هذا الكون واضحة، وقال تعالى أيضًا مبينًا أنه وحده سبحانه هو الذي يفعل قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

وبهذا يترتب الإيمان بألوهية الله تعالى على الإيمان بربوبيته، كما أن الإيمان بالألوهية يتضمن الإيمان بالربوبية، ومعنى أن الإيمان بالألوهية يتضمن الإيمان بالربوبية، أنّ الذي يعبُد الله وحده، ويسجد ويركع له وحده، ويدعوه ويتوكل عليه وحده، يُوقِنُ يقينًا في قرارة نفسه أنّ اللهَ خَالِقُه ورَازِقُه، ولولا ذلك ما عبد الله وحده.

توحيد العبودية هو: إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، بمعنى: أن يُعبد الله سبحانه وتعالى وحده، ولا يُشرك معه غيره في عبادته؛ أيًّا كان هذا الغير، لأنه وحده المستحقّ أن يُعبد.

وهذا التوحيد مَبني على إخلاص العمل كله، والتوجه به لله -تبارك وتعالى- وحده، دون سواه. سواء كان هذا العمل من أعمال القلوب أو أعمال الجوارح، وهذا النوع من التوحيد هو الذي تضمنه قول الله -تبارك وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: 123].

وأساس هذا التوحيد: أن نعلم أن هناك ألوهية وعبودية؛ فالله سبحانه وتعالى هو الرّبُ القوي القادر، الغني الواسع، العزيز الحاكم، وهو الإله الحاكم المُشرع، الذي ينبغي أن

يتوجه إليه جميع الخلق بالعبادة، وأما الإنسان فهو مخلوق لله –سبحانه– وهو عاجز ضعيف، رغم كل ما منحه الله من المواهب والملكات، وهو خا ضع عابد بطبعه، إن لم يكن عابدًا لله تعالى؛ فإنه سيعبد غير الله، ويقع في عبودية غير الله تعالى، فهو إن لم عبدًا لله كان عبدًا لغير الله.

فال صلة بين العبد وربه –تبارك وتعالى– هي ال صلة العبودية للربوبية، وتحقيق ذلك يكون بالتوجه إلى الله تعالى وحده بالأعمال والقصد، وهو توحيد الألوهية.

ب. أهمية توحيد العبادة، ومنزلته من الدين:

هذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل –عليهم الصلاة والسلام– وآخرها. وهو معنى قول "لا إله إلا الله" وجميع رسل الله –تبارك وتعالى، عليهم الصلاة والسلام– جاءوا إلى أممهم بالدعوة إلى هذا التوحيد، قال الله تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: 25- 26] وقال عن هود عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [هود: 50].

وتكرَّرت هذه الكلمة، وهذه الدعوة على لسان صالح و شعيب، و سائر الأنبياء والر سل – عليهم ال صلاة وال سلام، ثم ذكره الله –تعالى– قاعدة عامة في دعوة كل الر سل، فقال – ت بارك و ت عالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: 36]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 25].

ويُفهم من هذا كما نَصّت الآيات: أن تَوحيد العبادة هو ما جاء به جميع الأنبياء والمرسلين، ثم أمر الله تعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه و سلم أيضًا بهذا فقال: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الزمر: 11- 12]، وقال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزمر: 14].

وعندما بعث النبي صلى الله عليه و سلم معاذ بن جبل ر ضي الله عنه إلى اليمن، قال له: ((إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة ألا إله إلا الله))، وفي رواية: ((أن يوحدوا الله)) وهذا يعني: أن هذا التوحيد هو نقطة الانطلاق في الدعوة إلى الله، وعلى كل داعية أن يكون كذلك، فيبدأ دعوته بالدعوة إلى إفراد الله بالألوهية والعبادة، ولأهمية هذا النوع من التوحيد.

ولأنه هو لب دعوة الرسل -عليهم السلام- وأن نزاع المشركين، إنما كان في هذا النوع في هذا كله، كانت العناية به في القرآن الكريم؛ فما من سورة من سوره إلا وقد جاء فيها الحديث عن التوحيد ن صًّا أو دلالة، وقد سلك القرآن الكريم في بيان حقيقة هذا التوحيد ولوازمه، ومقتضياته مسالك شتى؛ فهو قد أمر به مباشرة، ثم ناقش شبهات المشركين ورد عليهم ما ادَّعوه من الأ سباب التي أوقعتهم في ال شرك، وبين حقيقة ال شرك الذي وقع فيه المشركون، وأنه هو شرك العبادة، أو شرك الطاعة والاتباع، والتحليل والتحريم من دون الله تعالى.

ومن خلال هذه المناقشات رسم القرآن الكريم الصورة الصحيحة الصادقة للتوحيد، ومن هذه المناقشات مثلًا قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى

ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: 16].

ثم ذكر سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين طريق العبادة الصحيحة التي ينبغي أن يكون المسلم عليها أو يقوم بها، ويوجه نظره إلى التفكر فيما بثه سبحانه من آيات ودلائل، تقوده إلى الخضوع لله سبحانه وتعالى وحده كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: 190- 191].

ثم ذكر سبحانه وتعالى في كتابه ما أعدَّه الله لعباده المؤمنين من صور النعيم والثواب في الجنة، لمن يحقق هذا التوحيد، وبالمقابل ر سم صورة قاتمة للعذاب المهين الأليم، لكل من يخالف هذا التوحيد؛ لأنه يكون في هذه الحالة قد أشرك مع الله غيره والله تعالى، يقول: ﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 88].

وأما تحقيق هذا التوحيد: فإنه يكون بالتوجه لله تعالى وحده، وإفراده بكل أنواع العبادة، والبراءة من كل ما يُعبد من دون الله؛ فينبغي أن يتجه العبد بالعبادة كلها له سبحانه، سواء كانت عبادة اعتقادية أو قلبية، أو بدنية، أو مالية، وأن تخلص العبادات كلها لله -تبارك وتعالى- وحده دون سواه.

الدرس الثاني عشر: تعريف العبادة وحقيقتها

عناصر الدرس

العنصر الأول: تعريف العبادة.

العنصر الثاني: استعمالات لفظ "عبد" في القرآن الكريم.

العنصر الثالث: أنواع العبودية

العنصر الرابع: حقيقة العبادة ومفهومها في الإسلام.

العنصر الأول: تعريف العبادة

ا – العبادة في اللغة:

معنى العبادة في اللغة:

العبادة في اللغة: مصدر عَبْدَ

في القاموس: العبدية والعبودية والعبادة: الطاعة.

وفي الصحاح: أصل العبودية الخضوع والذل، والتعبيد: التذليل.

يقال: طريق معبد، والبعير المعبد: المنهوء بالقطران المذلل.

والعبادة: الطاعة، والتعبد: التنسك، تفرق بين المعاني بحسب الاشتقاق.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ [البقرة:207] أي في حزبي، فأضاف معنى جديداً وهو الولاء.

وفي المخصص:

أصـــل العبادة: التذليل، من قوله طريق معبد أي بكثرة الوطء عليه. ومنه أخذ (العبد) لذله لمولاه.

والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب في المعاني.

يقال: تعبد فلان لفلان – إذا تذلل له، وكل خ ضوع ليس فوقه خ ضوع. فهو عبادة طاعة كان للمعبود أو غير طاعة، وكل طاعة لله على جهة الخضـــوع والتذلل فهي عبادة، والعبادة نوع من الخضـــوع، لا يســـتحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم، كالحياة والفهم والسمع والبصر.

وفي اللسان: أصل العبودية: الخضوع والتذلل، وفي حديث أبي هريرة «لا يقل أحدكم لمملوكه: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي» هذا على نفي الا ستكبار عليهم وأن ين سب عبوديتهم إليه، فإن المستحق ذلك الله تعالى رب العباد كلهم والعبيد.

وجعل بعضهم العبادة لله، بخلاف العبدية وغيرها فهي تجعل لله وللمخلوقين.

قال الأزهري: ولا يقال: عبد يعبد عبادة، إلا لمن يعبد الله، ومن عبد إلها دونه فهو من الخا سرين، قال وأما عبد خدم مولاه، فلا يقال: عبده. قال الليث: ويقال للم شركين: هم عبدة الطاغوت.

ويقال للمسلمين: عباد الله، يعبدون الله، والعابد، الموحد.

قال في اللسان: والتعبد: التنسك، والعبادة: الطاعة.

قال، والتعبد: التذلل، والتعبيد: التذليل.

بعير معبد مذلل، وطريق معبد: مسلوك مذلل.

قال ابن منظور:

العبد: الإنســـان، حرًّا كان أو رقيقًا يُذهب ذلك إلى أنه مربوب لباريه عز وجلَّ. يقال فلان عبد بيِّن العبودية.

وأصـــل العبودية: الخضـــوع والتذلل، والتعبد: التنســـُّك، والعبادة الطاعة، قال ابن الأنباري: فلان عابد: هو الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره".

وقال الفيروز أبادي: "والعبادة الطاعة" ، وعلى هذا فتعريف العبادة في لغة العرب: الذلُّ والخضوع المستلزِم طاعة المعبود أمرًا ونهيًا، ولذا سُمِّي الرقيق «عبدًا» يذل ويخضع لسيده أمرًا ونهيًا فيما يختص بشئون الحياة.

ب-العبادة في الشرع:

لقد اختلفت عبارات العلماء – رحمهم الله تعالى – في تعريف العبادة شرعًا إلا أن المعنى متحد، وإنما الفرق بينها في الشمول، وسنعرض بعضًا منها:

1- قال القرطبي – رحمه الله -: " والعبادة عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه، وأصل العبادة الخضوع والتذلل " .

2- قال ابن كثير رحمه الله: العبادة في الـ شرع: عبارة عمّا يجمع كمال المحبة والخ ضوع

والخوف" . فعرَّف العبادة بأنها «كمال المحبة لله مع كمال الخضـــوع لله مع كمال الخوف من الله» فمن اتصف بذلك فإنه يطلق عليه عابد لله – عز وجل –.

3- وقال ابن تيمية: "العبادة: هي اســـم جامع لكل ما يحبه الله ويرضـــاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة" .

وعلى هذا يتضح أنَّ للعبادة تعريفين.

أحدهما: باعتبار العابد، وهو كمال الذُل مع كمال الحب لله عز وجل.

والآخر: باعتبار المتعبَّد به، وهو ما يحبه الله ويرضـــاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، لكونه –عزَّ وجلَّ –شرعه وعُمل وفق مراده.

ومن ذلك: "الصـــلاة، والزكاة والصـــيام والحج، وصـــدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين و صلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حبُّ الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكُّل عليه والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله".

العنصر الثاني: استعمالات لفظ "عبد" في القرآن الكريم.

لفظ (عبد) ومشتقاته تواتر بكثرة في القرآن، وبلغ مجموع تواتره أربعاً وسبعين ومائتين موضع، جاء في اثنين وخمسين ومائة موضع بصيغة الاسم، من ذلك قوله تعالى: ﴿**والله رءوف بالعباد**﴾ [البقرة:207]. وجاء في اثنين وعشرين ومائة موضع بصيغة الفعل، من ذلك قوله سبحانه: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم**﴾ [البقرة:21].

ولفظ (عبد) ومشتقاته جاء في القرآن على عدة معان، نذكر منها ما يأتي:

أولاً: بمعنى المؤمنين والكافرين، من ذلك قوله تعالى: ﴿**والله بصير بالعباد**﴾ [آل عمران:15]، أي: إنه سبحانه عليم بمن آمن به من عباده، ومن كفر به. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾ [الأنعام:18].

ثانياً: بمعنى المؤمنين من عباده خاصة، من ذلك قوله تعالى: ﴿**والله رءوف بالعباد**﴾ [البقرة:207]، قال الطبري: والله ذو رحمة واسعة بعباده المؤمنين في عاجلهم وآجل معادهم، فينجز لهم الثواب على ما أبلوا في طاعته في الدنيا، ويسكنهم جناته على ما عملوا فيها من مرضاته.

ثالثاً: بمعنى الكافرين والعاصين من عباده خاصة، من ذلك قوله سبحانه: ﴿**يا حسرة على العباد**﴾ [يس:30]، أي: يا حسرة على الكافرين بأنعم الله، والمكذبين لرسله وندامتهم يوم القيامة، إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله. ومن هذا القبيل قوله عز من قائل: ﴿**وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا**﴾ [الإسراء:17].

رابعاً: بمعنى المصطفَين والمجتبَيْن من الناس، كالأنبياء وغيرهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا**﴾ [فاطر:32]، أي: اخترنا الخُلَّص من الناس. وعلى هذا النحو قوله عز وجل: ﴿**وسلام على عباده الذين اصطفى**﴾ [النمل:59].

خامساً: بمعنى سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، من ذلك قوله سبحانه: ﴿**وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا**﴾ [الجن:19]، أي: لما قام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله، تجمع ضده المشركون، وكادوا له كيداً. ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ [النجم:10].

سادساً: بمعنى التوحيد، من ذلك قوله تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا**﴾ [النساء:36]، أي: ذلُّوا لله بالطاعة، واخضعوا له بها، وأفردوه بالربوبية، وأخلصوا له بالانتهاء

إلى أمره، والانزجار عن نهيه. وعلى هذا النحو قوله عز من قائل: ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ [المائدة:117].

سابعاً: بمعنى الطاعة، من ذلك قوله سبحانه: ﴿فإياي فاعبدون﴾ [العنكبوت:56]، قال الطبري: فأخلصوا لي عبادتكم وطاعتكم، ولا تطيعوا في معصيتي أحداً من خلقي. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ [سبأ:40]. ومجيء لفظ (العبادة) بمعنى (الطاعة) كثير في القرآن.

ثامنا: بمعنى العبد المملوك، مثل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [النحل:75]

ومن المفيد أن نشير ختاماً إلى أن لفظ (عبد) وما اشتق منه من ألفاظ في القرآن، يحدده أولاً المعنى الشرعي لهذا اللفظ، ثم يحدده ثانياً السياق الذي ورد فيه، والمعنى اللغوي حاضر عند التدقيق والتأمل. ومن ثم فإن المتأمل، في جميع موارد الجذر (عبد) وما اشتق منه من ألفاظ في القرآن الكريم يلحظ أنه تضمن معناه اللغوي الأوسع، الذي هو الخضوع والذلة، كما تضمن معناه الشرعي بمعنى إفراد الله بالطاعة والعبودية، ثم أخيراً تحدد معناه الأضيق من خلال السياق الذي ورد فيه.

العنصر الثالث: أنواع العبودية لله تعالى.

العبودية نوعان: عامة وخاصة.

فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا

﴿يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:88-93] فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: 17] فسماهم عباده مع ضلالهم، ولكن تسمية مقيدة بالإشارة وأما المطلقة: فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: 46] وقال ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [الغافر: 31] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [الغافر: 48] فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: 68] وقال ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ [الزخرف: 68] وقال تعالى: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82]، ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 83] فقال تعالى عنهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[الحجر: 42].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته.

ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقا، إلا لهؤلاء:

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية: فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

إما منكرا، كقوله ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93].

والثاني معرفة باللام: كقوله ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [الغافر: 31] وقوله:﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [الغافر: 48].

الثالث: مقيدا بالإشارة أو نحوها، كقوله ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: 17].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر.

كقوله ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: 46].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم، كقوله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53].

وقد يقال: إنما سماهم (عباده) إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع، يقال: (طريق مُعَبَّد) إذا كان مذللا، بوطء الأقدام، (فلان عَبَّده الحب) إذا ذله، لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعًا واختيارًا، وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا.

العنصر الرابع: حقيقة العبادة ومفهومها في الإسلام.

وحقيقة العبادة: هي ا ستسلام القلب والجوارح لله حبًا وخضوعًا له، وخوفًا من عقابه، لا شريك له في شيءٍ من ذلك ألبته، فهو المستحقُّ للعبادة وحده دون ما سواه.

مفهوم العبادة في الإسلام:

هو أن يكون ما ا شتمل عليه ضمير الإنسان وجميع أقواله وأفعاله لأجل الله عزَّ وجل على مراده، والمعنى أنَّ كلَّ حركة يقوم بها المســـلم في حياته يكون الدافع لفعلها رجاء محبة الله ور ضوانه، فقول القول لله وتركه لله، وفعل الفعل لله وتركه لله، وهكذا فحياته لله جميعها، بل وموته لله كما قال تعالى آمرًا نبيَّه صلى الله عليه و سلم أن يقِّرر هذا للناس، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا

أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162-163].

بل إنَّ الإ سلام قد أ سبغ على جميع أعمال الإنسان صفة العبادة إذا قصد بهذه الأعمال وجه الله ومر ضاته، وقام بها على الوجه الم شروع الموافق لل سنة، وكانت في سبيل تحقيق أهدافها المقصودة المشروعة، فالمزارع والصانع والتاجر وغيرهم من أصحاب الأعمال تُعتَبر أعمالهم عبادة إذا ق صد بها كلٌّ منهم نفعَ عباد الله والا ستغناء عن الحاجة إلى الناس وإعالة العيال، تحقيقًا لأمر الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا فكلُّ ما أُمر به شرعًا سواءً كان من الـشعائر أو من سائر أحوال الناس إذا ابتغى به فاعله وجه الله – عزَّ وجل – فهو عبادة سواء رتّب الـشارع عليه جزاءً مُحدَّدًا أو أتى الأمر به مُطلقًا دون تحديد جزاء، وهذا من فضـــل الله ورحمته بعباده، فمثال ما رُتِّب على فعله جزاء ويحصـــل للمســـلم هذا الجزاء إذا كان إنما فعله من أجل الله، ما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل سُلامَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الـ شمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقـــــة، وبكل خطـــــوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

فا شتمل الحديث على بعض الآداب، وجعل الـشارع القيام بها عبادة يُثاب عليها المسلم إذا نوى أنه إنما قام بها من أجل الله عزَّ وجل، كما أن التحلِّي بالأخلاق يُعتبر عبادةً أيـ ًضا، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلق».

ومثل ما أُمر به شرعًا و لم يُحدَّد على فعله جزاءً معينًا، ويعتبر القيام به عبادة إذا نُوي بها القربة لله ويؤجر عليها، إجابة دعوة الم سلم، قال عليه الـ صلاة والـ سلام «إذا دُعي أحدكم فليجب، فإن كان صائمًا فليـ صل، وإن كان مفطرًا فليطعم» . فمن كانت نيته في إجابة

الدعوة امتثال أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وإدخال السرور على أخيه المسلم كان فعله عبادة، أما من لم تكن له نية في إجابتها فلا يُعتبر قد قام بعبادة، وهذا ينطبق على كلِّ أمرٍ من شئون الحياة، من مأكلٍ ومشربٍ ومنكحٍ ونومٍ ويقظةٍ وسفرٍ وإقامة، وهكذا، فمن نوى بكلِّ هذه وأمثالها وجه الله فهي عبادةٌ مأجورٌ عليها، وكلَّما كانت النية أشمل كان الأجر أعظم لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...» الحديث .

قال عبد الله بن المبارك: " ربَّ عمل صغير تعظمه النية، وربَّ عمل كبير تُصغِّره النية " .

أما من لم ينوِ شيئًا فليست سوى أفعال عادية، لذا تباين الناس في ذلك تباينًا عظيمًا، فمن الناس من كلُّ عاداته وأفعاله عبادة لله لأنه مُحتضر نيته، قاصد وجه الله بذلك، بينما بعض الناس قد تكون كلُّ عباداته حتى "الشعائر" أو بعضها عادات، وذلك لخلوِّ قلبه من نية التقرُّب لله عزَّ وجل.

فالعبادة تشمل قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح:

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه و صفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رُسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك والدعوة إليه والذَّبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له والتوكُّل عليه والإنابة إليه والخوف منه والرجاء له وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به وعنه والموالاة فيه والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه والطمأنينة به وغير ذلك من أعمال

القلوب التي فَر ُضها أفرضُ من أعمال الجوارح، وم ستحبُّها أحبُّ إلى الله من م ستحبِّها، وعمل الجوارح بدونها إمَّا عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كال صلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات وم ساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فالدين كلُّه عبادة لأنه إنما شُـــرع من أجل أن يرســـم للإنســـان منهج حياته الظاهرة والباطنة ويُحدد ســـلوكه وعلاقته بالآخرين، بل إنَّ عبادة الله تَسَـــع الحياة كلَّها من آداب الأكل وال شرب وق ضاء الحاجة، إلى بناء الدولة و سيا سة الحكم و سيا سة المال و شئون المعاملات والعقوبات والعلاقات الدولية في الحرب والسلم وغير ذلك من شئون الحياة، ولذا خاطب الله عباده المؤمنين في كتابه العزيز بأوامر شـــاملة لجميع شـــئون الحياة، وليســـت مقصورة على الشعائر فقط كما يفهمه البعض – مع الأسف الشديد – فهم لا يفهمون من كلمة «عبادة» إذا ذُكرت إلاَّ ال صلاة وال صيام وال صدقة والحج والعمرة، ونحو ذلك من الأدعية والأذكار، ولا يحســـب أنَّ لها علاقة بالأخلاق والآداب أو النُظم أو العادات والتقاليد، وكما يح سب بعض الناس أنهم إذا قاموا بهذه ال شعائر فقد وفَّوا الألوهية حقَّها وقاموا بواجب العبودية لله كلِّها، وهذا خطأٌ وفهم قاصر في مفهوم العبادة.

صحيح إنَّ هذه ال شعائر العظيمة والأركان الأ سا سية في الإ سلام، لكنها لا تعني أنها كلّها، إنما هي جزء من العبادات لله وليست هي كلُّ العبادة التي يريدها الله من عباده.

والحقُّ أنَّ دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنســـان وجعلها غايته في الحياة ومهمته في الأرض دائرة رحبة وا سعة، إنها تشمل شئون الإنسان كلها وتستوعب حياته جميعًا، وهذا ما نزل القرآن به، وعلَّمه ر سول الله صلى الله عليه و سلم أ صحابه، والأدلَّة من سُنته أكثر من أن تُحصى كما ذكرت سالفًا بعضًا من ذلك.

فالر سول عليه الصلاة والسلام علَّم أ صحابه أنَّ كلَّ أمرٍ يقوم به المسلم فهو عبادة إذا

قَصد وجه الله، حتى أنه لَمَّا ذكر بعضًا من القربات إلى الله ذكر من بينها مباضعة الرجل لزوجته، كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: إن أُناسًا قالوا: يا رسول الله: ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نُصلِّي ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون بفضول أموالهم، قال «أو ليس قد جعل الله لكم ما يصدَّقون به؟ إنَّ بكلِّ تسبيحة صدقة، وكلِّ تكبيرةٍ صدقة، وكلِّ تحميدةٍ صدقة، وكلِّ تهليلةٍ صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» .

وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقَّاص عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «إنك لن تُنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أُثِبتَ عليها، حتى اللقمة تجعلها في فيِّ امرأتك» .

وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».

المفهوم الشمولي للعبادة:

هو الذي فهمه الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من العلماء. قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: "لكني أنام ثم أقوم، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي" .

وقال زيد الشامي: "إني لأحب أن تكون لي نية في كلِّ شيء حتى في الطعام والشراب"

وقال عبد الله بن المبارك: "رُبَّ عملٍ صغيرٍ تعظمه النية، وربّ عمل كبير تصغره النية".

قال ابن رجب: قال بعض السلف: " من سرَّه أن يكمل له عمله فليحسِّن نيته؛ فإنَّ الله

– عز وجل – يؤجِر العبد إذا أحسن نيته حتى باللقمة".

قال الذهبي: "من التفرُّغ للعبادة السعي في السبب، ولاسيَّما لمن له عيال".

لذا يجب على كل مسلم ذي بصيرة تصحيح هذا المفهوم الخاطئ لدى بعض الناس نحو العبادة ومفهومها على نحو ما شرعه الله في كتابه العزيز وأو ضحه النبي – عليه الـ صلاة والسلام – في سُنته.

الدرس الثالث عشر: أهمية العبادة وثمراتها.

العنصر الأول: أهمية العبادة

العنصر الثاني: ثمرات العبادة

العنصر الأول: أهمية العبادة

إنَّ الله لَمَّا خَلق المخلوقات جعل جميعها متعبِّدة له التعبُّد العام، سواء أقرَّ المقِرُّ بذلك أم لا، فهم مدينون له، مُدبَّرون بأمره، قد أسلموا له طوعًا أو كرهًا، ليس لأحدٍ من المخلوقات خروجٌ عمَّا شاءه وقدَّره وق ضاه، فهو خالقهم وبارئهم وم صورهم ومليكهم، يـ صرفهم كيف يـ شاء، وكل ما سواه مربوب مفطور محتاج فقير إليه – جلَّ وعلا – وهذه عبودية عامة.

لكن اللَّه قد اختصَّ بعض خلقه وكلَّفهم بعبودية خاصة يقومون بها، بل إنما خلقوا لأجل القيام بها، ومن ذلك الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

ومن رحمة الله بهم أنه لم يكلهم في عبادتهم على عقولهم يتخبَّطون فيها، بل أرسل رسله – عليهم الـ صلاة والـ سلام – وأنزل كتبه مو ضِّحة كيف يعبدون الله ويتقرَّبون إليه. ولهذا كانت مهمَّة جميع الأنبياء دعوة أقوامهم على توحيد الله وإفراده بالعبادة، كما قال تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا صلى الله عليه و سلم في بيان ما أوحى به إلى الر ُسل قبله، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25] فكل ر سول من الر سل – عليهم الـ صلاة الـ سلام – افتتح دعوته بالدعوة إلى عبادة الله وحده والقيام بها على مراد الله – عزَّ وجل – كقول نوح ومن بعده كما في سـورة الأعراف وغيرها ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: 84].

إنها دعوة لعبادة الذي خلق الإنسان من العدم، ونفخ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكته وأ سكنه جنته، وأ سبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، تلك العبودية التي شرَّف الله من دخل في ظلِّها، وا ستنار بهديها، فنال سعادة الدنيا والآخرة، والإنسان لا ينفكُّ عنه و صف العبودية

لأنه كائنٌ حيٌّ ذو حاجات ومطامع وشهوات.

فإما أن يكون عبدًا لله وإلا فهو عبدٌ لغيره حتمًا، ســـواء كانت حاجاته أو مطامعه أو شهواته أو طواغيت الجن والإنس أو غير ذلك. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60-61].

ولقد اتفقت دعوة الرسل قاطبة على التحرُّر من كل معبودٍ سوى عبادة الله وحده، وكان آخرهم نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم الذي أُرسل إلى الثَّقَلَين الجن والإنس، وأنزل الله عليه القرآن ﴿إن هذا القرآن يهدي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّـــرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9]. وامتنَّ الله على نبيه صلى الله عليه وسلم بإنزاله وشموله، فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89].

ولذا أكمل الله الدين بإرسال النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبإنزال القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسلام دِينًا﴾ [المائدة: 3], وبلَّغ الرسول – عليه الصلاة والسلام – أمَّته البلاغ المبين، فلا خير إلا دلَّ الأمَّة عليه، ولا شرَّ إلا حذَّرها عنه، وترك أمته على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

فوجب على المكلَّفين بعد قيام الحجة عبادة الله وحده بما شـــرع لهم، وهذا هو حقُّ الله على العباد، كما روى معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وســـلم على حمار، فقال لي: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟»

قلت: الله ورسولـــــــــه أعلم، قال: «حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به

شيئًا، وحقُّ العباد على الله ألاَّ يعذب من لا يشرك به شيئًا» الحديث.

فبالقيام بالعبادة لله يحصل للمرء الأنس وراحة الضمير وانشراح الصدر وطمأنينة القلب وتهذيب الأخلاق وتزكية النفس والتلذُّذ بحرية القلب من كلِّ معبود سوى الله، ولا ألذَّ ولا أطيب ولا أ سرَّ ولا أنعم من محبة الله والأنس بعبادته، وبالعبادة يتحقَّق للعبد مر ضاة ربه وحصول ثوابه وإتيان كتابه بيمينه والفوز بجنة ربه جزاء ما عمل من العبادات الصالحات في الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِ سَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيـ شَةٍ رَا ضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 19-24].

أمَّا من تنكَّب الطريق، وأعرض عمَّا شرع الله من العبادات، واستكبر عن عبادة ربه فإنَّ الله جعل له في الدنيا النكد والضنك في المعيشة، وظُلمة في القلب ووحشة في النفس، والقلق المستمر، والتخبُّط في عبادة الشهوات؛ تلك العبودية التعيسة والجحيم الدائم في حمأتها، وفي الآخرة غضـــب الله وأليم عقابه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَـــةً ضَنْكًا وَنَحْ شُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَ شَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَ صِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَ سِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْ سَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَ سْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: 124-127].

ولأهمية العبادة في حياة المســـلم، بل هي الأهم في هذه الحياة فيجدر بيان حقيقتها وأركانها و شروط صحتها ومف سداتها من أدلتهاالواردة في الكتاب وال سنّة، مدعمة بأقوال العلماء – عليهم رحمة الله – خا صة ونحن في وقتٍ قد ح صر كثيرٌ من الم سلمين مفهوم العبادة بال شعائر كال صلاة والزكاة والحجِّ وال صوم وقراءة القرآن والذكر فقط، وأغفلوا – جهلاً – أنَّ العبادة شاملة لكلِّ أمرٍ يقوم به الإنسان في هذه الحياة، سواءً كان قولاً أم فعلاً كبيرًا أم صغيرًا ظاهرًا وباطنًا، حتى مع الأ سف انبرى بعض الناس – جهلاً أو تجاهلاً –

مناديًا ما دخل الدين بالحياة؟ فالعبادة في المساجد ونحوها، ولا دخل للدين في شئون الحياة! وهذا ولا شكَّ راجعٌ إلى الجهل بحقيقة دين الله، كما أنهم يجهلون حقيقة العبادة ومفهومها في الإسلام، ذلك المفهوم الشامل كما جاء في القرآن والسنة، فبحث هذه المسألة مهمٌّ جدًّا في حياتنا اليوم لفهم حقيقة دين الله، وتعليم الناس حقيقة العبودية حتى يكون فهمهم سليما صحيحا بموجب ما دلت عليه النصوص الشرعية.

العنصر الثاني: ثمرات العبادة

ثمرات العبادة "من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية"

الباعث الأساس لعبادة الرب سبحانه هو استحقاقه تعالى لذلك فنحن نعبد الله جل وعلا لأنه مستحق للعبادة تحقيقا للغاية التي من أجلها خلق الإنس والجن كما قال الله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }[الذاريات: 56] فهو المستحق الوحيد للعبادة لعموم سلطانه على الكون وعظيم فضله على الخلق أجمعين . ومع ذلك يجب أن نعلم أن الله تعالى غني عن العالمين فالعبادة لا تزيده ولا تنقصه مثقال ذرة لأنه غني بذاته غنى مطلقا فلا يحتاج إلى شيء مما في الوجود بل كل ما في الوجود محتاج إليه قال الله تعالى {يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15]

وعليه فإن ثمرة العبادة إنما ترجع إلى الشخص العابد نفسه إذ هو المحتاج إلى الله تعالى والمفتقر إليه استعانة وتوكلا.. كما قال تعالى : {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}[الإسراء: 15]

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

أنا الفقير إلى رب البريات *** أنا المسكين في مجموع حالاتي

وهذه الثمار هي:

أولا : تربية الروح وتغذيتها

ذلك أن الإنسان مكون من مادة وروح فإذا كان العنصر الجسدي فيه يجد حاجته في العناصر المادية في الكون من مأكل ومشرب وملبس ومنكح وغير ذلك فإن العنصر الروحي لا يجد إشباعا لحاجته إلا بالقرب من الله تعالى إيمانا به واتباعا حتى يشعر بمعية نصرته تعالى له وحفظه ورعايته وذلك لا يتحقق إلا بالعبادة سواء في الضراء أو في السراء كما قال الله تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ }{ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ }{ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر: 97-99].

وقال تعالى { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ }{ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا }{ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } [النصر: 1-3] فدل رسوله عليه الصلاة و السلام إلى التقرب إليه تعالى وعبادته.

ثانيا : تحقيق حرية الإنسان

فالعبادة لله تعالى تحرر المؤمن من الخضوع لغير الله تعالى فيصبح بذلك حرا طليقا من سلطان سوى سلطان الله تعالى وبذلك يصل إلى شاطئ الأمان ويحس بالسكينة إلى الله تعالى فإن مصدر العزة إنما هو اللجوء إلى الله تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: 10]

قال شيخ الإسلام رحمه الله :" وَأَمَّا مَنْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ فَصَارَ عَبْدًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَهَذَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَلِكَ النَّاسِ . فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ" الفتاوي

ثالثا : تمحيص المؤمن بابتلائه بالعبادة إعدادا له للحياة الآخرة

قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام { يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ } [غافر: 39] فالدنيا دار ابتلاء ومادة هذا الابتلاء هي عبادة الله تعالى تحقيقا لأمره { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [الملك: 2]

رابعا : العبادة سبيل لصلاح المجتمع

بالنظر إلى العبادة بمفهومها الشامل نجد أنها شاملة لكل أوجه الإصلاح الفردي والاجتماعي حيث إن كل عمل يقوم به الفرد أو تقوم به الجماعة يدخل في إطار العبادة .

وقد شرع الإسلام مبدأ فروض الكفاية التي يراعي فيها صلاح الجماعة والمجتمع قال الله تعالى { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا } [النور: 55]

وجماع هذه الثمار تحقق السعادة الدنيوية والأخروية.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :" من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية" المدارج لابن القيم

وقال الناظم :

الدين جاء لسعادة البشر *** ولانتفاء الشر عنهم والضرر

جاء في تفسير قوله تعالى : «وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً»[الجن: 16-17].

يقول اللّه – سبحانه – إنه كان من مقالة الجن عنا : ما فحواه أن الناس لو استقاموا على الطريقة ، أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفورا نغدقه عليهم ، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء ..

«لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ» .. ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون.

وهذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قولهم في هذه النقطة ، يزيد مدلولها توكيدا بنسبة الإخبار فيها والوعد إلى اللّه سبحانه. ومثل هذه اللفتات كثير في الأسلوب القرآني ، لإحياء المعاني وتقويتها وزيادة الانتباه إليها.

وهذه اللفتة تحتوي جملة حقائق ، تدخل في تكوين عقيدة المؤمن ، وتصوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها.

والحقيقة الأولى : هي الارتباط بين اســـتقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى اللّه ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه. وما تزال الحياة تجري على خطوات الماء في كل بقعة. وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة ، ولم تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء. ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية ..

وهذا الارتباط بين الاســـتقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة. وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف ، حتى استقاموا على الطريقة ، ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء ، وتتدفق فيها الأرزاق. ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلابا. وما يزالون في نكد وشظف ، حتى يفيئوا إلى الطريقة ، فيتحقق فيهم وعد اللّه.

وإذا كانت هناك أمم لا تســـتقيم على طريقة اللّه ، ثم تنال الوفر والغنى ، فإنها تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها ، تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء. وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته (كما سبق بيانه في سورة نوح) ..

والحقيقة الثانية التي تنبثق من نص هذه الآية : هي أن الرخاء ابتلاء من اللّه للعباد وفتنة.

ونبلوكم بالشر والخير فتنة. والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أ شق وأندر من الـ صبر على الـ شدة! على عكس ما يلوح للنظرة العجلى .. فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتماسكون لها بحكم ما تثيره في النفس من تجمع ويقظة ومقاومة ومن ذكر للّه والتجاء إليه وا ستعانة به ، حين تسقط الأ سناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره. فأما الرخاء فينـ سي ويلهي ، ويرخي الأعـ ضاء وينيم عنا صر المقاومة في النفس ، ويهيئ الفرصة

الدرس الرابع عشر: أركان العبادة وشروط صحتها

عناصر الدرس

تمهيد

العنصر الأول: أركان العبادة

العنصر الثاني: شروط صحة العبادة

تمهيد

من حكمة الله –عزَّ وجلَّ – أن جعل لكل شيء في الوجود يراد قيامه وانتصابه أركانًا يقوم عليها ويعتمد، سواء كان معنويًا أو حسيًا، فلا يمكن أن يقوم ويكون له أثر في الوجود إلا إذا ا ستكمل ما يلزمه من أركان، ومن ذلك عبادة الله – عز وجل – فلا يمكن أن تقوم وتسمَّى عبادة إلا إذا توفرت فيها كل عبارة على هذه الأركان، أما إذا فقد واحد منها فإنه لا قيمة لها، وبالتالي فلا تسمَّى عبادة.

والعبادة لا تقوم وتستقيم إلا بأركانها الثلاثة، فلا بدَّ من اجتماعها في قلب العبد وأن تكون مجتمعة حال فعله للعبادة، بل الدافع لفعلها اجتماعها، وهي:

1–المحبة.

2–والخوف.

3–والرجاء

وأقواها المحبة، وهي المقصودة لذاتها لأنها تُراد في الدنيا والآخرة، فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إلى الله بخلاف الخوف؛ فإنه يزول في الآخرة، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب.

والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم، يجب على كلِّ عبد أن يتنبهَّ له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكلُّ أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره.

فالقلب في سيره إلى الله عزَّ وجل بمنزلة الطائر:

فالمحبة رأسه.

والخوف والرجاء جناحاه.

فمتى َسلِم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قُطِع الرأس مات الطائر، ومتى فُقِد الجناحان فهو عرضة لكلِّ صائدٍ وكاسر.

ولكنَّ ا ستحب العلماء أن يقوى في ال صحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف.

ومن العلماء من يقول: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرَّجاء فسد.

ومن العلماء من يقول: أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحب. فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ والخوف سائقٌ، والله الموصل بمنّه وكرمه.

ولعلَّ الراجح أن يعتدل رجاء العبد وخوفه، فلا يطغى أحدهما على الآخر إلا عند الاحتضار، فيغلِّب جانب الرجاء والثقة بالله عزَّ وجل، لقوله عليه ال صلاة وال سلام: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عزَّ وجل».

واعتدال الرجاء والخوف في الحياة قد اختاره جملة من العلماء.

قال النووي: "اعلم أنَّ المختار للعبد في حال صـــحته أن يكون خائفًا راجيًا، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يمحِّض الرجاء، وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنة متضافرة على ذلك، لأنَّ العبد في ساعة الاحتضار وما بعدها أحوج ما يكون إلى رحمة الله عزَّ وجل، فلا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ولا يستطيع أن يعمل صالحًا، فلزم أن يكون راجيًا مغفرة الله ورضوانه ويظنُّ بالله خيرًا، والله عند ظنِّ عبده به.

العنصر الأول: أركان العبادة

الركن الأول–المحبَّة:

فمن عبد الله و لم يكن محبًا له فلا عبادة له، بل لا بدَّ أن تكون عبادته قائمة على محبة الله وتعظيمه.

والأدلة على ذلك:

1–قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...﴾ [البقرة: 165]

قال ابن كثير: "ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشـــركون به شيئًا، بل يعبدونه وحده، ويتوكَّلون عليه، ويلجئون في جميع أمورهم إليه " .

2–وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِـــيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُـــمْ مِـــنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ...﴾ [التوبة: 24].

فمن كان محبًا لله، لزم أن يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسَّى به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله، وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله. وذلك لأنَّ الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان.

3–عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم، قال: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار» .

والشاهد قوله: « أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما» فكلَّما عظمت محبة العبد لربه كلَّما عظم تقرُّبه له وقويت صلته به وزادت عبادته، وبذلك تحصل محبة الله للعبد، كما

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إنَّ الله قال: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

فمن أحب الله حبًّا صادقًا بحيث يدفعه للعمل المشروع والبعد عن المحذور فإنَّ هذا يورث محبَّة الله له، ومن أحبه الله فهو من أوليائه الذين قال فيهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: 62-64].

والمراد بها أن يكون العبد مُحبًا لله تعالى، ومحبته له منتهى الحب، لذا يفعل العبادات بدافع محبته لله وخوفه ورجائه له، طلبًا في إرضاء محبوبه، فالذي دفعه لفعل العبادة هو محبته له – عزَّ وجلَّ – وهو أعظم ركن في العبودية، فمن لا يحب الله لم يكن عابدًا، وليس في الوجود من هو أجدر من الله – تعالى – بأن يُحَب، فهو صاحب الفضل والإحسان، الذي خلق الإنسان ولم يكن شيئًا مذكورًا، وخلق له ما في الأرض جميعًا، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة وخلقه في أحسن تقويم، وصوَّره فأحسن صوره وكرَّمه وفضَّله على كثيرٍ ممَّن خلقه، ورزقه من الطيبات وعلَّمه البيان واستخلفه في الأرض، ونفخ فيه من رُوحه، وأَسجَدَ له ملائكته، فمن أولى من الله بأن يُحب.

فالعبادة المأمور بها تتضمَّن معنى الذلِّ ومعنى الحب؛ فهي تتضمَّن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحبَّ شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما يُحب الرجل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحبَّ على العبد من كلِّ شيءٍ وأن يكون الله أعظم

عنده من كلِّ شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله، وكلُّ ما أحبّ لغير الله فمحبته فاسدة.

الركن الثاني–الرجاء:

والرجاء من الأمل نقيض اليأس.

الرجاء هو: حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة، ويطيِّب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الربِّ تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل هو الثقة بجود الربِّ تعالى.

والرجاء ركنٌ في العبادة، والمراد به هو أن يفعل العبد العبادة بدافع – أيضًا – الرجاء في ثواب الله ورحمته ورجاء مرضاته، لأنه هو النافع فهو المرجو جلَّ وعلا وحده دون ما سواه. والرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه.

والأدلة على ذلك:

1–قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90] فالله وصف حال بعض أنبيائه وذكر عبادتهم والدافع لها ومن ذلك الرجاء مما يدل على كونه مقربًا إلى الله تعالى.

2–وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 56-57] فأخبر تعالى عن خواصّ عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقرَّبون بهم إلى الله تعالى أنهم كانوا راجين له خاضعين.

3-وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: 60].

4-وقال تعالى: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 9]. فوصف المؤمنين أنهم يرجون الله طمعًا في ثوابه والقرب منه.

5-وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 218] فأخبر عن الصحابة المهاجرين الذين فرُّوا بدِينهم وتركوا أموالهم وأولادهم وأوطانهم وما عملوه في الإسلام والدافع لذلك.

6-وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي»

7-وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتن أحدكم إلاَّ وهو يحسن الظن بربه».

ومن الفوائد في رجاء العبد لربه:

أ-**إظهار العبودية والفاقة**، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه، ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغنى عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ب-ومنها: أنه يحب – سبحانه – من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله لأنه الملك الحقُّ الجواد، أجود من سُئِل، وأوسع من أَعطى، وأحب شيء إلى الجواد أن يُرجى ويؤمل ويُسأل.

ج-ومنها أنَّ الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلى الله، ويطيب له المسير، ويحثُّه عليه، ويبعثه على ملازمته، فلولا الرجاء ما سار أحد، فإنَّ الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يُحرِّكه الحب، ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء.

د-ومنها أنه يبعثه على أعلى المقامات وهو مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية؛ فإنه

إذا حصل له مرجوُّه كان أدعى لشكره.

ه–ومنها أنه يوجب له المزيد من معرفة لله وأسمائه ومعانيها والتعلُّق بها؛ فإنَّ الراجي متعلِّق بأسمائه الحسنى متعبِّدٌ بها، داع بها.

و–ومنها أنَّ العبد إذا تعلَّق قلبه برجاء ربه فأعطاه كان ذلك ألطف موقعًا وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصـــول ما لم يَرجُهُ، وهذا أحد الأســـباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحـ صول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

ز–ومنها أنَّ الله – سبحانه وتعالى – يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحبِّ عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف،

ح–ومنها أنّ في الرجاء من الانتظار والترقُّب والتوقُّع لفـ ضل الله ما يُوجب تعلُّق القلب بذكره ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته.

والفوائد أكثر من أن تحصى.

وفي عدم رجاء العبد لربه يأس وقنوط من رحمته، وهذا محرم لا يجوز بل هو كُفرٌ كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوســـف: 87].وقال تعالى على لســـان إبراهيم عليه السلام في جوابه للملائكة ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [يوسف: 87].

كما نهى – تعالى – عباده الذين ارتكبوا المحرَّمات وأسرفوا على أنفسهم ألا يقنطوا من رحمة الله، وعليهم الا ستقامة ورجاء ثوابه، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَ سْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر: 53].

وقد جعل الرسول – عليه الصلاة والسلام – الدعاء هو العبادة كما في حديث النعمان

بن بشير – رضي الله عنهما – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدعاء هو العبادة» وذلك لأنَّ الدعاء من أقوى أسباب الرجاء لذلك يغضب الله على من ترك دعاءه ؛ لأنه ترك للرجاء كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه و سلم – قال: «من لم يسأل الله يغضب عليه» .

الركن الثالث– الخوف:

فكما أنَّ المسلم يعبد ربَّه تبارك وتعالى حبًّا له ورجاءً لثوابه وطمعًا في جنته، فإنه كذلك يعبده خوفًا من عقابه وحذرًا من ناره.

تعريف الخوف:

قال أبو القاسم الجنيد: هو توقع العقوبة على مجاري الأنفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكُّر المخوف.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

والوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة.**والخشية أخصُّ من الخوف**؛ فإنَّ الخشية للعلماء بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]. فهو خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله...» **الحديث**

فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض و سكون" لذا يجب على العابد أن يعبد الله بدافع ما مضى من الأركان وبدافع الخوف من الله عزَّ وجل.

والأدلة على وجوب الخوف من الله تعالى:

1–قوله تعالى: ﴿... وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40]،

2–وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 117]،

3-وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56].

4-وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ...﴾ [المائدة: 44]

5-وقال تعالى﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: 27-28] ، فمدح الخائفين والخاشعين لله في معرض ذكر صفات المؤمنين .

6-وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء: 90] ، في وصف بعض أنبيائه.

7-وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 50] في معرض إخباره عن ملائكته والدافع لعبادتهم.

8-وقال تعالى: ﴿... أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورًا﴾ [الإسراء: 57] في وصفهم أيضًا.

9-وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: 60] في وصف المؤمنين.

10-وقال تعالى:﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: 9-10] عن المؤمنين وما عملوه والدافع لذلك.

11-وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 46] في وعده لمن خافه أن يُدخله الجنة.

12-وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 40-41]

13-وقال عليه الصلاة والسلام: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله».

14-وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: يا رسول الله قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60] أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟

قال:«لا يا ابنة الصديق، ولكنَّ الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألاَّ يُقبَل منه » .

قال الحسن البصري: "عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُردَّ عليهم، إنَّ المؤمن جمع إحسانًا وخشيةً والمنافق إساءةً وأمنًا".

وقال ابن كثير: " يُعطون العطاء وهم خائفون وجلون ألاَّ يُتقبَّل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشروط العطاء".

الخوف المشروع:

الخوف المحمود الـ صادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله – عز وجل – فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، قال أبو عثمان: ِصدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا.

فوائد الخوف من الله تعالى:

1- **أنه يحمي العبد من الوقوع في المعاصي والآثام.**

كما حكى الله عن ابن آدم الذي تبرَّأ من مقاتلة أخيه إذ أراد قتله، وأوضح أنَّ السبب في الكفِّ عن مقاتلته هو خوفه من الله، فقال تعالى عنهما: ﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 27-28]

2- **أنه يدفع إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها.**

يقول عليه الصلاة والسلام: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة».

العنصر الثاني: شروط صحة العبادة

من رحمة الله بعباده – وهو أرحم الراحمين – أنه لَمَّا فرض عليهم عبادته وجعلها مبنيةً على محبته ورجائه وخوفه، أوضح لهم بعد ذلك شروط صحة تلك العبادة، وأنها لا تكون صحيحة ومقبولة عنده إلا إذا توافرت فيها هذه الشروط، وقد دلَّ عليها الكتاب والسنة وإجماع الأمَّة وهي:

الشرط الأول- الإخلاص:

فالإخلاص هو لبُّ الدين، وعموده الأعظم،

تعريف الإخلاص:

الإخلاص لغة:

وهو لغةً: «تصفية الشيء وتنقيته»، يقال: خلص الشيء من الشوائب إذا صفا، وأخلص الشيء: نقاه، وخلَّصه: أزال عنه ما يكدره.

الإخلاص شرعا:

اختلفت عبارات العلماء في المراد به شرعًا:

فقيل: هو «قصد المعبود وحده بالعبادة» كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]

وقيل: تخليص القلب من كلِّ شوب يُكدِّر صفاءه.

وقيل: التوقِّي من ملاحظة الخلق.

وقيل: إفراد الحقِّ سبحانه في الطاعة بالقصد.

وقيل: أن يكـــــون الداعـــــي إلى الإتيان بالمأمور وإلى ترك المنهي إرضاء الله تعالى.

والتعريفات متقاربة، ومدارها على أن يريد العبد بطاعته التقرُّب إلى الله سبحانه دون أيِّ شيءٍ آخر من تصنُّعٍ لمخلوقٍ أو اكتساب محمدةٍ عند الناس، أو محبة مدحٍ من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرُّب به إلى الله تعالى.

أهل الإخلاص

أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة هم: من كانت أعمالهم كلُّها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرًا و باطنًا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم وطلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم ولا هربًا من ذمِّهم، بل قد عدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا ولا حياةً ولا نشورًا.

الأدلة على شرط الإخلاص:

وردت أدلَّةٌ كثيرةٌ في الكتاب والسُنة مُقرِّرةً هذا الشرط، ومنها:

1-قوله تعالى آمرًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يُوضِّح لأمته ما أُمر به من قِبل الله – عزَّ وجل – فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾[الرعد: 36] ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 11]

2-وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: 14]

3-وقال تعالى موضحًا ما أُمر به المؤمنون: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ...﴾ [البينة: 5]

4-وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: 19-21]

5-وقال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: 37]

6-وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 10]

7-وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»

8-وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

9-وفي رواية أخرى: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»

10-وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»

فهذه الأدلة تدلُّ على وجوب إخلاص النية في جميع العبادات.

أهمية الإخلاص.

الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله إن كان عبادة محضة كالصلاة والزكاة والصيام والحج والطواف وقراءة القرآن، وشرط لحصول الثواب إن كان غير ذلك كالأكل والشرب والنوم والكسب ونحو ذلك.

وما أعظم مقام الإخلاص عند الله! وما أشقَّه على النفس! لذا جديرٌ بالمسلم أن يجاهد نفسه ويحاسبها في كلِّ قول وعمل، بل وفي كلِّ مقام ولحظة.

قال سهل بن عبد الله: "ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب

وقال يوسف بن الحسين الرازي: " أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبت فيه على لون آخر.

فعمل القلب هو رُوح العبودية ولُبها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الميت بلا رُوح، والنية هي عمل القلب.

والكلام في مسألة النيَّة شديد الارتباط بأعمال القلوب ومعرفة مراتبها وارتباطها بأعمال الجوارح وبنائها عليها وتأثيرها فيها صحةً وفسادًا، وإنما هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تبع ومكمِّلة ومتمِّمة، وأنَّ النية بمنزلة الرُوح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء، الذي إذا فارق الروح فموات، وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية فحركة عابث، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هو أصلها، وأحكام الجوارح متفرِّعة عنها.

والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبودية ظاهرًا وباطنًا، وقدَّموا قلوبهم في الخدمة، وجعلوا الأعضاء تبعًا لها، وهي حقيقة العبودية، ومن المعلوم أنَّ هذا هو مقصود الربِّ بإرسال رسله وإنزال كتُبه وشرعه شرائعه. ومن تأمَّل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأنَّ أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كلٍّ واحد منهما من الأعمال التي ميّزت بينهما، وهل يمكن لأحدٍ الدخول في الإســـلام إلاَّ بعمل قلبه قبل جوارحه، فعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كلِّ وقت، ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام، والإســـلام واجب الجوارح في بعض الأحيان، فمركب الإيمان القلب، ومركب الإسلام الجوارح.

إن أساس القبول لأي عبادة هو إخلاص القلوب لله تعالى، فإن حقيقة العبادة ليست شكلا يتعلق بالمظهر، ولا رسما يتصل بالجسد، ولكنها سر يتعلق بالقلب، وإخلاص ينبع من الروح، فإذا لم يصْدُق قلب المسلم في عبادته، ولم يخلص لله في طاعته، وأداها رسوما خالية

من الروح، كما ينطق الأبْلَه بالألفاظ الخالية من المعنى، فهناك يردّها الله عليه، كما يرد الصـــيرفي النقاد الدراهم الزائفة. قال تعالى: **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصـــين له الدين حنفاء﴾** [البينة: 5]، **وقال :﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصـــا له الدين﴾** [الزمر: 2]، **وقال :﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصـــا له الدين﴾** [الزمر: 11]، **وقال :﴿قل الله أعبد مخلصا له الدين﴾** [الزمر: 14].

فالقلب هو الأ ساس في الإ سلام، وهو مو ضع نظر الله تعالى، ومحل عنايته، وهو مستند القبول والفلاح في الآخرة، وفي هذا يقول الر سول صلى الله عليه و سلم: "إن الله لا ينظر إلى أجـ سامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم"، "ألا إن في الجـ سد مـ ضغة إذا صلحت صلح الجـ سد كله، وإذا فـ سدت فـ سد الجـ سد كله ألا وهي القلب". ويقول الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَـــلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾[ق: 31-34].

أثر الإخلاص في الأعمال.

وكل عمل شـــرعه الله ليتعبد به ويتقرب إليه يشـــترط فيه إخلاص النية لله تعالى، وقد هاجر بعض المـ سلمين في زمن النبي صلى الله عليه و سلم من مكة إلى المدينة من أجل امرأة يريد الزواج بها تعرف بأم قيس، فسماه من يعرفونه "مهاجر أم قيس".

وفي هذا الشأن حدثهم النبي ذلك الحديث الجامع الذي عده بعض المحدثين ربع الإ سلام أو ثلثه أو نـ صفه، والذي افتتح به الإمام البخاري جامعه الـ صحيح "**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ور سوله فهجرته إلى الله ور سوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**".

وهذا الحديث أجمع علماء الإسلام في كل اختصاص على تلقيه بالقبول.

وقيمة "النية" في الإ سلام لا تعتمد على هذا الحديث وحده، وإنما تعتمد على ن صوص وأحاديث كثيرة م ستفيضة، تعطي في مجموعها يقينا جازما بأن الأعمال بالنيات، وأن لكل امرئ ما نوى، ولو أخذنا كتابا كالترغيب والترهيب للحافظ المنذري مثلا لوجدناه يذكر في فضل النية الصالحة أحد عشر حديثا، وفي الترغيب في الإخلاص ثلاثة عشر حديثا، وفي الترهيب من الرياء أكثر من ثلاثين.

فهذا المجموع من الأحاديث وما شـــابهها، مع ما جاء في القرآن من آيات هو الســـند اليقين لقيمة النية في الأعمال.

الشرط الثاني–المتابعة:

تعريف المتابعة:

ومعناها أن تكون عبادة الم سلم تابعةً لِما جاء عن الله ور سوله صلى الله عليه و سلم، وهذا هو تحقيق شهادة أنَّ محمدًا ر سول الله، وهو طاعته فيما أمر، وت صديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألاَّ يعبد الله إلاَّ بما شرع عليه الصلاة والسلام.

الأدلة على ذلك:

والأدلة على هذا الشرط:

1- قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7].

2- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ [النساء: 64].

3- وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾ [النساء: 80].

4- وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَ ضَى اللَّهُ وَرَ سُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36].

5- وعن عائ شة ر ضي الله عنها قالت: قال ر سول الله صلى الله عليه و سلم «من

عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ» رواه مسلم.

وفي رواية متفق عليها «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ» أي مردود عليه غير متقبل منه كائنًا من كان.

قال ابن القيم رحمه الله وهو يذكر أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة قال ما نصه: "وكذلك أعمالهم وعبادتهم موافقة لأمر الله ولِما يُحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عاملٍ سواه، وهو الذي ابتلى عباده بالموت والحياة لأجله، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: 2]. وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: "العمل الحسن هو: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السُنة. فلا يقبل الله من العمل إلاَّ ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردودٌ على عامله، يُرد عليه أحوج ما هو إليه هباءً منثورًا".

جماع هذه الشروط:

وقد جمع الله بين هذه الشروط الثلاثة في آية واحدة، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: 125].

وبيان ذلك:

الشرط الأول- الإخلاص، ودليله قوله تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ...﴾ الآية.

والشرط الثاني- المتابعة، ودليلها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾والمحسن هو ما كان عمله وفق ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

الشرط الثالث– صحَّة المعتقَد، ودليله قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾ الآية.

أي: لا أحدَ أحسن من دينِ مَن جَمَع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله، الدَّال على استسلام القلب وتوجُّهه وإنابته وإخلاصه، وتوجُّه الوجه وسائر الأعضاء لله.

﴿وهو﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿مُحسِن﴾ أي متبع لشريعة الله التي أرسل الله بها رُسله، وأنزل كتُبه وجعلها طريقًا لخواص خلقه وأتباعه.

﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ أي دينه وشرعه.

﴿حنيفًا﴾ أي مائلاً عن الشـــرك إلى التوحيد وعن التوجُّه للخلق، إلى الإقبال على الخالق".

فلا بدَّ من توفُّر هذه الشروط في العبادة حتى تكون صالحةً مقبولةً عند الله عزَّ وجل. أمَّا إذا اختلَّ شرطٌ من هذه الشروط فإنها لا تصحُّ، وبالتالي لا تنفع صاحبها، بل تكون وبالاً عليه.

نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

أقسام الناس في شروط صحة العبادة

الناس منقسمون في هذا الباب إلى أربعة أقسام:

أحدها:أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة:

(الإخلاص): إذ إن أعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرا وباطنا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هربا من ذمهم، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجاؤهم للضر والنفع منهم

لا يكون من عارف بهم البتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

(المتابعة): وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بلا عباده بالموت والحياة لأجله، قال الله تعالى: "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا". وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملا. قال الفضيل بن عياض :العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه، قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا و لم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا، و لم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا، والخالص : ما كان لله، والصواب : ما كان على السنة، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا" وفي قوله: "ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن" فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه أحوج ما هو إليه هباء منثورا، وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم "كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد" وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدا، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

القسم الثاني: مَنْ لَا إِخْلَاصَ لَهُ وَلَا مُتَابَعَةَ:

فَلَيْسَ عَمَلُهُ مُوَافِقًا لِشَرْعٍ، وَلَيْسَ هُوَ خَالِصًا لِلْمَعْبُودِ، كَأَعْمَالِ الْمُتَزَيِّنِينَ لِلنَّاسِ، الْمُرَائِينَ لَهُمْ بِمَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. فَإِنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَ الأمور التي لم يشرعها الله، وَيجمعون معها الرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ، فَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوهُ مِنَ الِاتِّبَاعِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعِلْمِ.

القسم الثالث: مَنْ هُوَ مُخْلِصٌ فِي أَعْمَالِهِ، لَكِنَّهَا عَلَى غَيْرِ مُتَابَعَةِ الْأَمْرِ:

بعض الناس يظهر عليه الإخلاص في عمله لكنه يفعل أمورا مخالفةً للشرع كمن يَظُنُّ أَنَّ مُوَاصَلَةَ صَوْمِ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ قُرْبَةٌ، وَأَنَّ صِيَامَ يَوْمِ فِطْرِ النَّاسِ قُرْبَةٌ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وقد جاء الشرع بالنهي عن مواصلة الصوم. فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ الْوِصَالِ. قَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ. قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أُطْعَمَ وَأُسْقَى».

وأما صيام يوم العيد فقد ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ صِيَامِ يَوْمَيْنِ يَوْمِ الْأَضْحَى، وَيَوْمِ الْفِطْرِ»

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ صِيَامِ يَوْمَيْنِ، يَوْمِ الْفِطْرِ، وَيَوْمِ النَّحْرِ»

ومن هذا الباب ما جاء في حديث أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي، يسألون عن عبادة النبي، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي قد غفر له تقدم من ذنبه وما تأخر ؟! قال أحدهم: أما أنا فاصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» متفق عليه

القسم الرابع: مَنْ أَعْمَالُهُ عَلَى مُتَابَعَةِ الْأَمْرِ لَكِنَّهَا لِغَيْرِ اللَّهِ:

كَطَاعَةِ الْمُرَائِينَ، وَكَالرَّجُلِ يُقَاتِلُ رِيَاءً وَحَمِيَّةً وَشَجَاعَةً، وَيَحُجُّ لِيُقَالَ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ، فَهَؤُلَاءِ أَعْمَالُهُمْ ظَاهِرُهَا أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ مَأْمُورٌ بِهَا، لَكِنَّهَا غَيْرُ صَالِحَةٍ، فَلَا تُقْبَلُ ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة: 5] فَكُلُّ أَحَدٍ لَمْ يُؤْمَرْ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللَّهِ بِمَا أَمَرَ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ.

ودليله حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتل في سبيل الله ورجل كثير المال، فيقول الله تبارك وتعالى للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي صلى الله عليه وسلم قال بلى يا رب قال فماذا عملت فيما علمت قال كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله تبارك وتعالى له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذاك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد قال بلى يا رب قال فماذا عملت فيما آتيتك قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له كذبت وتقول الملائكة له كذبت ويقول الله بل إنما أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذاك ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقال له في ماذا قتلت فيقول أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذاك ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتي فقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».